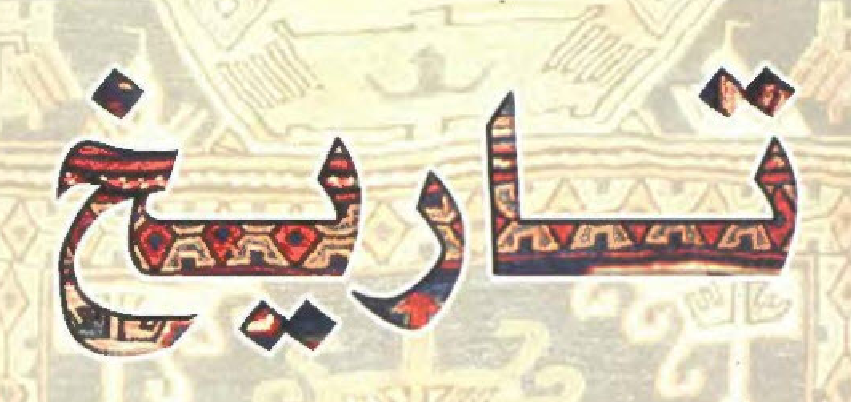
توماس بوا




تاريخ الأكراد

ترجمة

محمد تيسير ميرخان

دار الفكر
دمشق - سورية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

تاريخ الأكراد / توماس بوا؛ ترجمة: محمد تيسير ميرخان.- دمشق: دار الفكر، ٢٠٠١.- ٢٠٨ص؛ ٢٤سم.

١- ٩٠٩,٠٤١٥٩ ب و ا ت ٢- العنوان

٣- بوا ٤- ميرخان

مكتبة الأسد

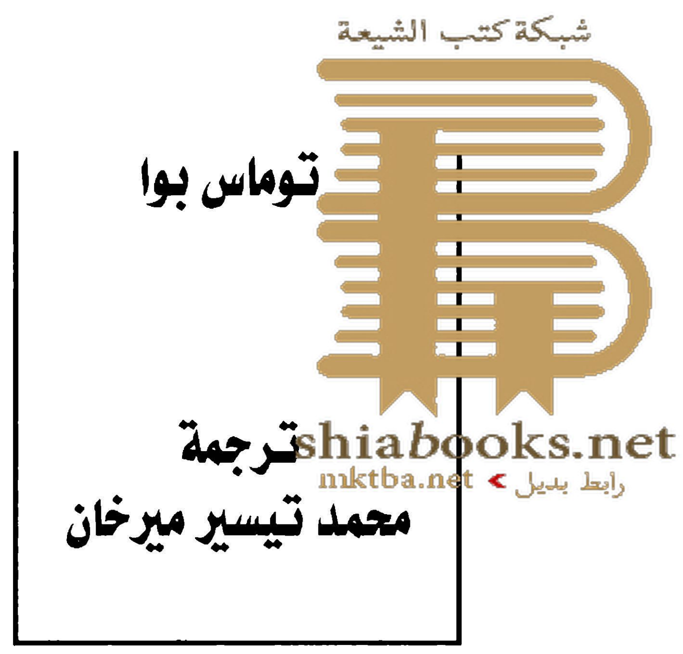
ع- ٢٠٠١/٥/٨١٤

تنويه

جميع الحواشي الواردة في الكتاب من إعداد

الدكتور شوقي أبو خليل

مدير قسم النشر في دار الفكر



توماس بوا

ترجمة
محمد تيسير ميرخان

تاريخ الأكراد


دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي : ١٤٦٤,٠١١

الرقم الدولي : ISBN: 1-57547-928-1

الرقم الموضوعي: ٩٤٠

الموضوع: تاريخ العالم

العنـوان: تاريخ الأكراد

التـأليـف: توماس بوا

الترجمة: محمد تيسير ميرخان

الصف التصويري: دار الفكر-دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية-دمشق

عدد الصفحات: ٢٠٨ ص

قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر - دمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

http://www.fikr.com/

e-mail: info@fikr.com



الطبعة الأولى

جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ

أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١م

المحتوى

مقدمة

مؤلف هذا الكتاب هو البروفسور توماس بوا (TOMAS BOIS) المولود في عام ١٩٠٠م في دنكرك (Dunkirk) في فرنسا. وقد انتظم في رهبنة الدومنيكان عام ١٩١٩م وفي عام ١٩٢٧م أُرسل إلى الشرق الأوسط لدراسة الأمة الكردية: التي كرّس لها معظم حياته، فتعلم اللغة العربية واللغة الكردية، وعاش بين الأكراد في جميع مناطقهم في تركية، العراق، إيران وسورية، ودرس عاداتهم وتقاليدهم وآدابهم، وبحث في أصلهم ونشأتهم مُستنيراً بأبحاث ونتائج المستشرقين الأوائل بصورة دقيقة جداً، أضاف إليها ما اكتشفه بنفسه وتبيّنه أثناء معايشته لهذه الأمة. وأخيراً جئت بدوري لأنقل ما كتبه إلى اللغة العربية، ليطلع عليه أبناء قومي لما في ذلك من مفاخر ومآثر ونضال وكفاح من أجل التحرّر، عانى خلالها الشعب الكردي الكثير، الكثير من الظلم والاضطهاد والغدر الذي كلف جموعاً وأرتالاً من الشهداء والضحايا والدماء التي لا تزال تهرق في كثير من المناطق..

م. ت. ميرخان

الفصل الأول

كردستان

أرض من دون حدود، هي كردستان، ومن البديهي أن يكون سكانها من الأكراد، وقد أطلق هذا الاسم على تلك الأراضي مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال، وحدودها إن كانت تزيد أو تنقص كان لا بد لها أن تتغير من عصر إلى آخر. فمثلاً في تركية اليوم لم يُحَدَّد لها شكل رسمي على خارطة ما، غير أنها كانت ظاهرة ومحددة إبان الحكم العثماني. على أن الخارطة في إيران تشير إلى الإقليم الغربي الذي يضم جميع الأكراد الموجودين في إيران.

كردستان تشكل العمود الفقري للشرق الأوسط حيث إنها تقوم في قلب آسيا الصغرى، وتحتل القسم الجبلي الأكبر الذي يمتد بين البحر الأسود وسفوح جبال ميزوبوتاميا[1] من طرف واحد وتقابل سلسلة جبال طوروس وهضاب إيران من الطرف الآخر حيث يبدو شكل أرضها كالمنجل أو الهلال، وفقاً لإحدى الاختبارات الوهمية، وهي تعادل تقريباً مساحة فرنسا وتشكل أجزاء كبرى من تركية، إيران والعراق وبالرغم من هذا فإن سكانها يمتازون بوضوح من حيث الأصالة واللغة والتاريخ عن الأتراك والفرس.

---

(١) بلاد ما بين النّهرين، أو الرّافدين: دجلة والفرات، (النّاشر).

جغرافية كردستان:

سلاسل جبال زاغروس وطوروس[1] التي تبدو كأنها عظام الظهر لهذا الوطن الذي يمتد على مرتفعات كبيرة فوق البلاد المحيطة به، لذلك تشمخ بعض قمم الجبال فوق المناطق المجاورة. مثل جبل أرارات الكبير الذي ترتاح عليه سفينة نوح عليه السلام، يعلو إلى ارتفاع ١٦,٢٠٠قدم. وجبل الجودي له المنزلة نفسها يبلغ ارتفاعه ٦٥٠٠قدم. وجبل نمرود داغ يرتفع إلى ١٠,٤٠٠قدم. وجبل سيبان الذي يتغنى به الجميع يرتفع تقريباً إلى ١١,٣٣٠قدم. في العراق جبل (بيرا ماغرن Pira Magrun) يبلغ ارتفاعه ٩٢٠٠قدم، وتغطي قمم تلك الجبال الثلوج خلال أكثر فصول السنة.

أما من حيث الأنهار، فهناك نهرا الدجلة والفرات وروافدهما المتعددة، مرداسو، الخابور، ونهرا الزاب، والديالا[2] الذي يخترق الجبال بتعاريجه وفجواته فوق الصخور وفي منحدرات عميقة، تضفي جمالاً أخّاذاً يزيد في روعة تلك المناظر الطبيعية، كما أنها تسهم في خصوبة أرض الوديان الكثيرة، ذلك الخصب الذي يتمثل غالباً في منحنيات الفرات الكبيرة، مثل سهل أورفة، ونهر الدجلة الذي يغذّي ديار بكر والجزيرة. وادي موش الغني جداً بخصبه، ووديان نهري الزاب حول إربيل وكركوك.

بهذه العناصر الطبيعية الأخّاذة، نرى أن البلاد لا تفتقر إلى الجمال الطبيعي فهي جميلة جداً. كما تتجلى في أهازيج الصبية التي تحكي عن جمال تلك الطبيعة الساحرة، لذلك ترى ما يثيرك إلى المقارنة بين سحر جمال الحبيب

---

(١) جبال زاغروس جنوب غربي إيران، تمتد من فارس وشيراز جنوباً، وحتّى كرمنشاه وهمدان شمالاً. وجبال طوروس جنوب تركية، تمتد من قيصرية ونهري سيحان وجيحان شرقاً، وحتى أنطالية غرباً. وبين زاغروس شرقاً، وطوروس غرباً تقع سلسلة جبال كردستان، شمال غرب إيران وشمال العراق، (الناشر).

(٢) مرادسو والخابور يرفدان نهر الفرات. نهر الزاب (الأعلى والأسفل، أو الكبير والصغير) وديالا يرفدان نهر دجلة، (النّاشر).

وسحر الطبيعة الكامن في كل مكان، كأزهار أشمخان، وتفاح ملاطية، وعنب سنجار، وما يشير إليه جمال المنحدرات الجبلية الصخرية المغطاة بالأشجار الطبيعية، سيبان وكلاط، إلى الينابيع الثرَّة التي تتدفق من (البنغول Bingol)[١] لتروي حدائق مريغان. هناك نهر يخترق القرية بروعته، وهنا الأثمار وأشجارها التي تزين كل مكان، الثلوج التي تغطي القمم كالقنديل وعجائب فاتنة أخرى يتغنى بها المنشد فيصف بها سحر حبيبته أو سحر جمال الطبيعة التي يحيا في أرجائها:

عيناك يا ابنةَ عمّي تسطعُ بالنّار والنُّور
كأنّها ينابيعُ أخماخان
وسط أزهار أخماخان
تنقّلك أشبه بخشف الظبية
وقوامك كزهرة الجبل العطرة
اخفيني بين أثوابك الوردية
بين خصلات شعرك المتناثرة غادية ورائحة
كنسيم أخماخان العليل العطر

إلا أن الحياة ليست شاعرية بكل معنى الكلمة؛ لأن الطبيعة قاسية جداً فبينما ترى الثلوج تتوج الجبال وتسبب البرد والصقيع، ترى الطقس حاراً ومحرقاً في مناطق أخرى بالجنوب. وتستمر الأمطار من تشرين الثاني (نوفمبر) حتى نيسان (أبريل). وهكذا فإن واقع الطبيعة القاسية هو الذي يمنح القوة والصلابة لسكان الجبال من الأكراد.

الموارد الاقتصادية في كردستان:

لا تزال بعض القبائل تعيش تحت الخيام. ففي فصل الصيف يغادر الأكراد

---

(١) جبال بنغول داغ عند أرضروم، غرب جبال أرارات، حيث منابع دجلة والفرات (الناشر).

السهول حيث يبدأ الجفاف ويسوقون قطعانهم إلى زوزان أو إلى المراعي الجبلية حيث تتوفر الأعشاب والكلأ للحيوانات التي تنعم إلى جانب هذا ببرودة الطقس المنعشة. بعض الأغنام تنمو لارتفاع ٣٢إنش[١] أي بزيادة ٦إنش عن أجود أنواع الأغنام في البلاد الأخرى المنتجة لها. وهكذا ترى كثيراً من الأكراد يمارسون تجارة الأغنام، التي أصبحت مرموقة جداً إذ إنها تمكن صاحبها من العيش بسعة وحرية تحت الشمس.

كثير من الأمثال الأصيلة التي تشير إليها الأحاديث الشعبية تشهد بدقة ملاحظة ومراقبة الراعي لقطيعه وتعكس طريقته الحرة في الحياة، وفيما يلي بعضٌ من هذه الأمثال:

الكبش القوي يُعرف بصاحب السلطة حتى داخل الزريبة
يسقط حق الكبش بالسلطة عندما يظهر من يملك قروناً أقوى
عندما ينتهي تيس الماعز يصبح الابن سيّد القطيع
التيس الأجرب، هو الذي يقفز فوق الينبوع
يتفيأ مئة خروف بظل شجرة واحدة
الخروف بدون قطيعه يصبح فريسة للذئاب

الكردي صياد حاذق جداً بفطرته. إذ يملك ما يتمناه. ذلك لأن الجبال ملأى بالوحوش: الدببة، الذئاب والخنازير البرية، هذا عدا عن الوعول وغيرها من الحيوانات الصغيرة، ذات الفراء وذات الريش كالحجل والبط البري الذي يوجد بكثرة.

في هذه الأيام أصبح غالبية الأكراد من الحضر وليسوا من الرحّل ولا ممن يمارسون تربية الماشية، ويقيم قسم كبير منهم في القرى، تلك القرى الكردية التي تشتهر بكرمها وحسن ضيافتها لأي طارق، وهي على وضعها تكاد تخلو

(١) ١ إنش = ٢,٦سم (النّاشر).

من الشوارع المعبدة، والبيوت فيها يتصل بعضها ببعض وغالباً ما تُقام على جوانب جدول تظلّله أشجار الحور وأشجار الجوز الباسقة، حيث يجري صيد الأسماك بالسهام الدقيقة وحيث يستمتع الصبية بالاستحمام، وتغسل النّسوة الثياب بألبستهن المزركشة. تحرث الحقول المحيطة بصورة جيدة؛ لأن الكردي شغوف بأرضه، وعندما تكون الأراضي صعبة المنال يعمد بمهارة لإنشاء المدارج الجبلية. وتزرع فيها الذرة الصفراء والبيضاء، والقنب، والأرز أيضاً يعطي محصولاً وافراً، أما التبغ فيشكل جزءاً مهماً من ثروة تلك البلاد، الكروم بوفرتها الهائلة تنتج أجود أنواع العنب بمختلف أجناسها.

يمكن مشاهدة القلاع وآثارها في شتى الأماكن تقريباً ولا سيما التي بناها الآغوات بصورة مستقلة على مرِّ العصور. وقد لعبت بعض هذه الحصون دورها بالتاريخ حيث امتزجت الأسطورة بالتواريخ الحقيقية، وأصبحت قصصها نواة للملاحم التي كان يتغنى بها المنشدون في نهاية النهار، ومنها ملحمة (ديمدن كالا) الشهيرة مثلاً لذلك.

لقد كان إقليم كردستان فاتناً جداً، والسؤال الذي يفرض نفسه دائماً. هل كانت تكتنفه السعادة بقدر فتنته وسحره؟

كردستان كما أسلفنا أرض جبلية بغالبيتها ومن الطبيعي أن تكون البلاد الجبلية لا تتمتع بالغنى والثراء، وهي مع هذا ترى أن محاصيل الحنطة والشعير والأرز وفيرة، وأشجار الفاكهة: التفاح، الكمثرى، الدرّاق، المشمش، بصرف النظر عن العنب فهي وافرة جداً، بالإضافة إلى الصوف، الحليب، الزبدة والجبنة إلخ.. فتربية المواشي هي إحدى موارد الاقتصاد الرئيسية في كردستان. وهناك موارد طبيعية أخرى. فالجبال التي تكسوها أشجار السنديان الدائم الخضرة يجمعون منها الصفراء التي يصنع منها الحبر، والعفص في مواد الدباغة. إلى جانب هذا تنتشر في كل مكان تقريباً مستودعات الفحم الخام غير المصنّع.

أما المعادن، فهي كثيرة جداً:

النحاس استخرج في منطقة (ERGANI) ويتوافر في منطقة بـالو (PALU) وفي مناطق (AKRA و VAN).

الحديد الخام اكتشف في (MADEN) المجاورة في قضـاء كيجـي (KESHKIN و KIGI) كشكن. وفي إقليم العمادية (AMADIA).

الرصـاص الفضـي يتوافـر بـالقرب مـن مـادن وفي ولايتـي وان وكيمـاه (KEMAH, VAN).

الذهب والفضة الخام أشيع عنه في مكان بالقرب من ديار بكر.

أما (الكروم) فهو واحد من أكبر موارد الثروة في كردستان ويوجد بكميات كبيرة جداً، وأهم من هذا كله يأتي النفط. فبترول الموصل الشـهير يتفجـر مـن كركوك التي هي من صميم كردستان. ولا يخفى هذا عن الأكراد مطلقاً.

وفي تركية بترول غـرزان (GARZAN) الـذي ينتـج في باطمـان (BATMAN) وآبـار رامـانداغ (RAMANDAGH) في منطقـة سـعرت (SIIRT) وهـي أيضـاً كردية.

المدن الكردية:

يوجـد عـدة مـدن في كردسـتان، وهـي علـى أي حـال تعـدُّ مدنـاً كبـيرة، ومعظمها يتمتع بمكانة هامة للغاية: **أرضروم**، في تركية برج الأنـاضول الشـرقية التي يقطنها أكثر من ٩٠ألف نسـمة، ولا تـزال تحتفـظ بعـادات وتقـاليد الديـن العريقة. **بتليس** (BITLIS) التي بنيت على صخور بركانية على ارتفاع يزيد عن ٥٠٠٠ قـدم ويمكـن عدّهـا تاريخيـاً عاصمـة كردسـتان وقـد شـهدت مـرور

كسيفوفون (xénophon)[١] (وهو فيلسوف وجنرال أثيني كان من تلامذة سقراط) بجنوده عشرة الآلاف بالقرب منها.

هناك مدن أخرى تكتظ بالسكان منها، **ديار بكر** التي تقوم على شواطئ الدجلة بحصونها الرومانية القديمة، وإن **وان** (VAN) في بلاد سميرا ميس القائمة على شواطئ بحيرة شديدة الملوحة شبيهة بالبحر الميت ومدن: العزيز، **ملاطيا**، **ماردين ومدن الجزيرة**.

وفي إيران يوجد مدينة **سودجي بولاق** (SAUDJI - BOOLAK) التي يطلق عليها الأكراد اسم **مهاباد** (MAHABAD) مدينة القمر أو في لغة الميدي خوي (KHOI) ومدن **ماكو**، **سينا** (MAKU, SINNA) وبصورة خاصة مدينة كرمانشاه (KIRMANSHAH).

وفي العراق مدن **السليمانية** التي يسكنها أكثر من ٥٠ألف نسمة، وتعد في أهم المدن الزراعية والصناعية. إربيل (ARBIL) حيث هُزم الإسكندر داريوس[٢] والتي تتبع السليمانية مباشرة بأهميتها وتأخذ بالألباب بموقعها الخلاب وهي شبيهة **بالعمادية** (AMADIA) **وأكرا** (AKRA) اللتين تشهقان بقلعتيهما المماثلتين للحصون الكبيرة. **راوندوز** (RAWANDUZ)[٣]، وهي أقل أهمية من حيث كثافة السكان، ولكنها من دون أي شك تتفوق بروعة جمالها وسحر شعابها وتعدّ في أبهى ما يمكن أن يتصوره الإنسان من المناظر. **كركوك** مدينة البترول يسكنها خليط من المواطنين. **زاخو** (ZAKHO) **ودهوك** (DUHOK)[٤].

---

(١) كسينوفون (نحو ٤٢٧ - ٣٥٥ ق.م) مؤرِّخ وفيلسوف وقائد أثيني، من تلامذة سقراط، حارب مع أثينة، ثم مع إسبارطة والفرس، اشتهر بكتابه (أنابازيس) أو (الرِّحلة)، وفيه وصف سيره بعشرة آلاف مقاتل من الفرات إلى البحر الأسود، (النّاشر).

(٢) داريوس الثالث: ملك فارس ٣٣٥ - ٣٣٠ ق.م، انتصر عليه الإسكندر المكدوني في معركة إيسوس - عند خليج الإسكندرونة - سنة ٣٣٣ق.م، ثم قرب إربيل سنة ٣٣١ق.م، قتله قوّاده، (النّاشر).

(٣) شمال شرق إربيل، شرق الموصل (النّاشر).

(٤) زاخو ودهوك شمالي الموصل، (النّاشر).

اللتان تقومان وسط الحدائق الكثيفة الرائعة تجعل المرء يدرك لأول وهلة مدى الروح العالية والنشاط، الدائم لدى السكان. **سرسنج** (SERSING) **وصلاح الدين** (SALAHUDIN) هي منتجع للاصطياف تضاهي بسحرها أجمل الأماكن في لبنان، ويعيش كل مواطن هناك من موارد التجارة الصغيرة ومن الصناعات اليدوية. كالحياكة وصناعة السجاد واللباد.. وكثير من الأكراد يعملون كموظفين بسدّ دوكان (DOKHAN)[1] أو يعملون في مصافي بترول كركوك.

بعضهم يسأل أحياناً فيما إذا كان الأكراد كثيرين في تعدادهم.

نقول: إنه من الصعب نوعاً، إعطاء جواب صحيح عن هذا السؤال بسبب أن الحكومات المعنية تتعمد دائماً تجاهل الأجناس المختلفة في شعوبها. إلا أن المصادر الغربية الحقيقية تذكر عدداً قديماً مضى عليه أكثر من ٥٠عاماً يفيد أن تعداد الأكراد يبلغ (٢ - ٣) مليون. وهذا فعلاً أقل من الحقيقة بكثير، وهناك من قدّم العدد إلى ١٢مليون نسمة، وهذا يحتاج إلى دعم مصادر موثوقة، وأمام هذا وذاك يمكن تقدير العدد بـ (٩ - ١٠) ملايين نسمة كأدنى حد، منهم على الأقل ٦ملايين في تركية وحدها، إذا اعتبرنا التقدير الذي قد يرغب بعضهم بالاقتصار على دراسته. هو الإحصاء رقم (٤٤٤) من الإحصاء العام لعام ١٩٦٠م الذي يؤكد بأن مجموع الشعب الكردي يعادل مجموع شعوب العراق، لبنان، الأردن والكويت مجتمعة.

الصفحات اللاحقة، أشارت إلى أن الشعب الكردي يكاد يكون مجهولاً وغير معروف على الرغم من وجوده في بلاده الرائعة الجميلة. التي أردنا من خلالها أن نبرز طبائع الأكراد الخاصة كما تبدو في نشاطاتهم اليومية في النواحي التالية: في المنزل، في دائرة الفنون والمهن، في شؤون اقتصادهم، حياتهم الاجتماعية وحياتهم الدينية وسنلقي نظرة سريعة على قومية الأكراد.

---

(١) سَدُّ دوكان: على نهر الزَّاب الصَّغير (الأسفل)، (النَّاشر).

الفصل الثاني

في البحث عن الشعب الكردي

البحث عن أصل الشعب الكردي هو واحد من الأمور التي كادت تنهك أفكار المؤرخين لمدة نصف قرن من الزمن. لقد قُدمت نظريات كثيرة بهذا الصدد. إلا أن الموضوع ما زال معقداً، فبعض الكتاب الروس، ولا سيما ف. مينورسكي (V.MINORSKY) دب. نيكيتين (B.NIKITINE) وفيلنشيفسكي (O. L. VILNCHEVSKY) حاولوا إلقاء ضوء على الموضوع تبعاً لدراسات واستناداً لبعض البحوث العلمية الأخرى. وسنحاول بدورنا إيجاد الطريق من خلال الحجج التاريخية والآثار القديمة واللغة وعلم أصل الإنسان وسوف لا نتوقف عند النهاية التي تقول بأن أصل الأكراد جاء من عدة فروع انصهر بعضها مع بعض بفعل مرور الزمن، أو بتأثير العوامل التاريخية ونمط حياتهم الاجتماعية التي جعلت لهذا الشعب طابعاً مميزاً واضحاً ومجتمعاً وطنياً فريداً.

من الأسطورة إلى التاريخ:

استناداً لرأي موريير (MORIER) كان سكان منطقة (ديمافاند DEMAVEND) حتى أوائل القرن التاسع عشر يحتفلون بعيدهم الوطني الذي ما زال يُحتفل به حتى عصرنا هذا ويسمونه بعيد الكرد (AIDè KURD)، ويعني

احتفالهم بذكرى انتصار فريدون على الطاغية زحلق (ZAHLAK أو AZ - DAHAK أو آز داهاك) ومعناها (الرجل ذو الرذائل العشرة)، وزحلق هذا كان قد أتى سورية وقاتل ضد الملك الأسطوري الشهير الفارسي جمشيد (JAMSHID) فانتصر عليه، وحلّ مكانه على العرش ولكن زحلق هذا كان يعاني من عقاب الطبيعة الشريرة وينوء بالآلام المنبعثة باستمرار من جسمين برزا على كتفيه على هيئة الأفاعي، وعبثاً حاول أمهر الأطباء شفاء ذلك الرجل التعس بعد أن استنفذوا كل حيلة، وهنا تدخل الشيطان بدوره ليخفف عنه الألم فوصّى بأن يواظب يومياً على تغذية الأفاعي البارزة على كتفيه بأدمغة فتيان بشرية من الرعية، وعلى هذا الشكل فقد هلك عدد كبير من الضحايا البريئة.. في أحد الأيام قام الطباخان (كرمائيل وأرمائيل KARMAïL , ARMAïL) اللذان كان عليهما إطعام آفات زحلق البشعة بمغامرة، وبوحي من ضميرهما للإبقاء على حياة تلك الضحايا البريئة فقد استعاضا عن الأدمغة البشرية بأدمغة خراف، ثم فرّا مع غيرهم ممن بقي على قيد الحياة بين الجنسين إلى الجبال.

وبفعل مرور الزمن والتزاوج فقد أصبح هذا الشعب يعد في جدود الأكراد، وقد لازموا الجبال حيث مارسوا الزراعة وتربية المواشي وكانوا رُحَّلاً ((لا يعرفون سكناً ثانياً لهم، إذ كانوا يقيمون في الخيام، ولم تكن قلوبهم تعرف مخافة الله)). في هذه الأثناء هُزم (زحلق) على يد فريدون (FIRIDUN) وسُحب بالسلاسل حتى رأس جبل دمافاند (DEMAVEND) حيث مات ميتة بطيئة شنيعة على غرار بروميثوس (PRCMETHEUS) شخصية خرافية كان يسرق النار من السماء، وهذا ما جاء في أسطورة الفردوسي، القصة وردت في الشاهناما (SHAH - NAMA) أو (تاريخ ملوك الفرس).

ولكن ربما كانت هذه الرواية لا تعطي القناعة الكافية لأولئك الذين يعدونها صادقة جداً في ذكر أصل الأكراد. وقد ذهب بعض الكتاب العرب بعيداً بهذا

الصدد فقالوا: ((إن الأكراد هم فرع من الجن)) وإن أصلهم معروف جداً. ودلوا على ذلك بما جاء عن الملك سليمان العظيم الذي كانت نفسه قد تأثرت جداً بالعادات والتقاليد الشرقية حتى أصبحت منها، وقد ترك كثيراً من آثار ملكه في كردستان قرّر ذات يوم أن يزيد في عدد حريمه، فأرسل في طلب ٤٠٠ من الفتيات الجميلات من الغرب وقد حدث أن اعترض نفر من الجن الفتيات أثناء الطريق واستولوا عليهن واعتدوا عليهن بناء لأمر الجني الكبير جسد (JASAD).وعندما بلغت تلك الحادثة الملك سليمان أمر أن الفتيات مطرودات وغير جديرات بملكه. ونتيجة لمواصلة الجن للفتيات فقد أنجبن أولئك الأولاد الأكراد الرائعين..

وهناك الإتيمولوجيا (ETMOLOGY) التي تبحث في أصل الكلمة إذا اعتبرناها نجد أن بعض الكلمات هي أقرب ما تكون إلى الخيال. فاستناداً لكلمة (GURD) أي بطل بالفارسية، فالأكراد يمكن أن يكونوا (أبطالاً) أو ذئاباً من الكلمة الفارسية (GURD) أي ذئب، كل هذا لا يخرج عن كونه تخميناً بريئاً لا يضر بأحد. إلا أن عضو المجمع العلمي السوفييتي السيد مار (MARR) تصور بوحي من أفكاره أن هناك صلة بين كلمة (KURD) وكلمة (KURT) الأرمنية التي تبدو بأن لها معنى كلمة (EUNECH)[1] وعلى هذا الأساس يكون قد أحكم نظرية كاملة عن البيئة التي هي شكل من النظام الاجتماعي الذي يمكن أن يكون معروفاً لدى الأكراد. وبهذا يكون قد بالغ في تصوراته، ذلك بأن الأكراد إذا كانوا يفخرون بوصفهم بالأبطال ثم بالذئاب فهم قلما توجد مخلوقات سيئة الحظ مثلهم استناداً لقول الشاعر جوكرخين (CEÇERXWIN). ومن المؤكد بأن هذه الترهات لا تنطبق عليهم أبداً ولا تنقصهم الصفات البشرية المحضة.

---

(١) الذّئاب.

ثم إذا كانت الأساطير الشعبية وبحوث أصل الكلمة تشرح بعض مزايا الأكراد فهي لا تكفي لحل مشكلة معرفة أصلهم مطلقاً.

التاريخ وعلم الآثار

هناك الشيء الوحيد الحقيقي. وهي الأراضي التي يسكنها الأكراد اليوم وتسمى كردستان كانت تسكنها شعوب منذ القدم إذ يبرهن على ذلك ما استخرج من الحفريات التي أُنجزت من قبل فرقة من جامعة شيكاغو خلال عام ١٩٦١م. منها باردا بالكا (BARDA - BALKA)، مغارة شانيدار (SHANIDAR) بقرب راوندوز حيث تم اكتشاف أول هيكل عظمي لإنسان العصر الحجري في العراق مما يثبت أن البلاد كانت آهلة منذ آلاف السنين، وفي مغارة الألف مارد عُثر على بقية أطعمة تركها السكان الأوائل، مثل عظام أرانب، ظباء، غزلان، ماعز، حمام، حجل بكميات كبيرة تعادل كمية عظام الحلزون (HELIX - SALOMONICA) جمعت من أجل طعامهم اليومي وجارمو (JARMO) التي تقع في وادي شمشمال (SHAMSHAMAL) وتُعد أقدم قرية في الشرق الأوسط، ويحتمل أن تكون أحد الأماكن التي زرع فيها الرجل لأول مرة أنواع الحنطة والشعير، الحمّص، العدس والشوفان، كانت تنمو أيضاً هناك، وكذلك الكتان فقد كان يُزرع منذ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح. الفواكه بأنواعها والبندق بالإضافة إلى الزيتون واللّوز والفستق والتين: وحتى العنب تقدم في زراعته. أما الحيوانات فكانت تنمو بكثرة. البقرة والخنزير لم يكونا من النوع الأهلي وذلك منذ أكثر من ٣٥٠٠سنة قبل المسيح. الأغنام كانت تُربّى من أجل خرافها وليس من أجل صوفها. الماعز الأهلي كان معروفاً منذ أكثر من ٤٠٠٠سنة حينما ظهر الكلب آنئذٍ الذي لم يكن يؤكل. ولكن أقرب أنسبائه، الذئب والثعلب لم ينجوا من هذا القدر.

بالقرب من عكر (AKR) في قرية كندك (GANDUK) في العراق وفي كهف يسميه المسيحيون المجاورون كهف القديس يوحنا اكتُشفت تماثيل منحوتة على الصخر يرجع تاريخها ربما إلى الزمن الذي كان فيه سكان تلك المنطقة يجهلون الزراعة وحيث كانت الحيوانات الأهلية نادرة جداً. أحد هذه التماثيل يبرز مشهد صيد ساحر يشابه الصور والنقوش الموجودة في كهوف فرنسة لما قبل التاريخ بناء لما جاء عن توفيق وهبي. زد على ذلك أنك في كل مكان من كردستان ابتداءً من منطقة آرامار وحتى قمم جبل الجودي (حيث تستريح سفينة نوح) تُشاهد أنصاب ضخمة سيكلوبيه (هائلة) ترمز إلى جبابرة أو جنّ، وآثار القلاع تنتشر بصخورها المتداعية هنا وهناك، والتي تشهد لبعد قِدم هذا الموطن. وفي كركوك وفي (يورجان جيبي نازه YORGHAN JEPE NAZU) آثار حضارة الأكاديين[1]، ومثلها على رأس جبل النسر ما يعرف بـ (بيرا ماكرون PIRA MAGRUN) حيث يُحتمل أن تكون سفينة جلكاميش (GILGAMESH) قد توقفت.

أقام ملك الأكاديين منذ ٢٠٠٠سنة قبل المسيح لوحة تكرس انتصاره على ساتوني ملك اللولو (LULLU) في دربندي جيور (DERBENDI GEWR). هؤلاء اللولو أو اللولوبين سكان جبال زاغروس (ZAGROS) ربما كانوا أجداد الأكراد وكذلك الكوتيين (GUTI) أيضاً سكان الجبال حتى شرق الزاب الصغير بالقرب من نهر ديالا.

كان في ذلك الوقت ملك الأكادين سارجون يحاول أن يحمي نفسه من غارات أولئك الغزاة والذين كانت فرقتهم في بعض الأحيان يقودها نساء. والقسيطيون بدورهم (KASSITES) ذوو الأصل الهندي - الأوربي حكموا بابل (١٨٠٠ - ١٢٠٠ق.م سنة قبل المسيح) راحوا يقاتلون أولاد حمورابي إلى

(١) قضى الأكاديُون على السُومريِّين سنة ٢٤٠٠ق.م، وحكموا بلاد الرافدين ١٢٥ سنة، (النّاشر).

أن نفذوا إلى بابل مسالمين بحجة العمل كمربين وسائسين للخيل وهكذا حتى تمكنوا بالنهاية من الاستيلاء بالقوة حتى على المنطقة التي تدعى اليوم لورستان (LURISTAN) وذلك بالقرن السابع عشر قبل الميلاد. وقد حكم هؤلاء مملكة بابل لمدة ستة قرون، وقد عرف هؤلاء الغزاة بالقوة والشجاعة الخارقة، وقد أصبح الحصان الذي أدخلوه إلى البلاد الرمز المقدس لهم وقد كان سرياش (SURYASH) ابن آلهتهم. كما كان زعماؤهم يرتبطون بصلة بالمتيانيين الذين تزوج بناتهم بالفراعنة نحو ٤٥٠ سنة قبل المسيح وقد وجدوا في قبور من البرونز في حوض لورستان الثلاثي حيث يفترض أن يكون القسيطيّون قد نقلوها إلى هناك، هؤلاء القسيطيون الذين أُبعدوا من قبل ملوك عيلام (ELAM)[1] أخيراً في القرن الثاني عشر قبل الميلاد يجب أن يكونوا قد لعبوا دوراً في تكوين الشعب الكردي حيث يعتقد بأنهم كانوا من الميديين. في الوقت نفسه الذي برز فيه الآشوريون على المسرح من خلال صدامهم مع الميديين.

بناء لما ذكره الكاتب الأرمني (آرشاك سافراستيان) في كتابه (الكرد وكردستان ١٩٤٨م) أن الميديين يدينون بوجودهم لخطأ ارتكبه هيرودوتس المؤرخ اليوناني ظهر لأول مرة في التاريخ على منقوشة تشير لإحياء ذكرى انتصار سلمنصر (SALMANZAR) الأول على المتمرد يانغو (YANGU) أمير حمري القسيطي (حمري هي كردستان اليوم) ونحو ١١٠٠ سنة قبل المسيح تجلات فلاصر الأوَّل (TEGLAT PHALASAR I) كما أن شمسي حدد (SHAMSI - ADAD) أجبرهم فيما بعد على دفع الجزية حينما قاد «أداد حيراني الثالث (ADAD - HIRANI III) زوج سميرا ميس الأسطورية عدة حملات عليهم، ولكن كان هناك (TEGLAT PHALASAR IV) تجلات فلاصر الرابع في القرن الثامن (عام ٧٤٤ ق.م) الذي تقدم في خضم المعارضة بين كثير من القبائل

---

(١) عيلام: موقع عربستان حالياً، عاصمتها سوزا (ششتار)، (النَّاشر).

وتغلّب عليهم واعتقل نحو ٦٠ألف سجين، واستولى على غنائم ضخمة وعلى قطعان من الماشية، وأوغل في غزوه حتى أقاصي الجبال والوديان وأجبر أسراه على العمل في مشاريع بناء في دولة الآشوريين، وبعد مرور ١٥ عاماً استولى سرجون الثاني (SARGON II) الذي بنى خورساباد (KHORSABAD) على سماريا (SAMARIA) وقاد شعبها في الأسر حتى شواطئ الخابور وبلاد الميديين كما جاء في التوراة. ((ومن الجدير بالذكر، أنه لا يزال يوجد في كردستان بأرض العراق كثير من قرى اليهود)) وقد أعقب ذلك بأن أشرحدون (ASHAR HADDON) تمكن من إخضاع ملوك الميديين الذين قدموا إلى نينوى (NENEVEH)[1] ليجمعوا فدية من الأحجار الكريمة والخيل والعتاق.

لقد ترك الآشوريون من خلال الغزوات في أرض كردستان كثيراً من الآثار التي تبيّن مدى قوتهم وأهميتهم. إذ تبدو تلك الآثار على المنحوتات والنقوش في مالطائي (MALTAï) التي لا تبعد عن دهوك وباتاس (BATAS) بين شقلاوي و راوندوز ومن دربند الأولى ورمكا (DERBEND(I), RAMKAH) على نهر الزاب الطريق الطبيعي بين نينوى وفارس. ويوجد غيرها كثير.

وبعد تلك الفترة بقليل استطاع الميديون نبذ نير الفرس بالوقت الذي كان فيه سنحريب (SENNACHERIB) مشغولاً بتنظيم مناطق بابل[2] تحت زعامة مشيخة مقتدرة. كان المانيون أثناءها (ديكوك أو دايوكو DEIKOKES or DAYAUKKU) أي الميديون لا يزالون يشكلون القبائل الجبلية المتوحشة التي تتخذ حياة البداوة أو الإقامة في قرى بدائية وقد نجحوا بتنظيم أنفسهم، وقد كان شيخ القبيلة أثناءها بناء لقول هرودوتس المؤرخ مضرب الأمثال في حكمه وعدله. وفي ذات يوم جميل انصرف كلياً حسب قوله ليحكم في قضايا تتعلق

---

(١) قُبالة الموصل، على الشّاطئ الشرقي لنهر دجلة (النّاشر).

(٢) بابل: وسط (ما بين النّهرين)، وموقع العاصمة (بابل) حالياً عند مدينة الحِلّة، شرق كربلاء، شمال الكوفة، (النّاشر).

بالضرائب فقط، مهملاً شؤونه الخاصة مما سبب نتائج سلبيةً ما لبثت أن تفجرت إثرها المنازعات والغزوات بجميع أشكالها فعمت الفوضى التي نشأت عنها فكرة اختيار الملك، وهكذا فقد اختار الميديون والدايوك (DEIOKES) ملكاً لهم. ما لبث أن باشر عمله بأن أحاط نفسه بفريق من الحراس المخلصين، ثم قرر أن يتخذ عاصمته في همدان[1] (HAMADAN) حيث حكم لمدة ٥٣ سنة.

خلفه في الحكم من بعده ابنه فراورتس (PHRAORTES) وقد نجح في ضم الممالك الصغيرة المجاورة لمملكته أثناء تلك الفترة، وتمكن من هزيمة تايسبس (TEISPES) ملك أنشان (ANSHAN) أو فارس، إلا أنه ما لبث أن أُرغم على التوقف أمام مقاومة الآشوريين تحت قيادة آشوربانيبال (ASSUR BANIPAL) ابن أشرحدون الذي يعتقد بأن قبره كان في كهف (الفتى والعذراء) الأُسطوري (SHKEWT - IKUR - UKEÇ) بالقرب من قرية كورناك - (CHORNAHK) وكان ابنه سياكساروس (CYAXARUS) واحداً من بين الرجال البارزين الذين كان يذكرهم التاريخ بين الحين والآخر بصفتهم من القواد العظام في الحرب ومن رجال الحكم البارعين أثناء السّلم. وعوضاً من أن يجنّد جيوشه من القبائل التي كانت تقاتل بعضها بعضاً، قرر أن ينشئ جيشاً نظامياً شبيهاً بالجيش الآشوري، فزوّد جنوده بالقوس والنبل، والسيف والرمح، وقد اعتنى بصورة خاصة بفرقة الفرسان، وقد كان فرسانه أشبه بفرسان البارثيين (PARTHIANS) خراسان قبل الساسانيين اللاحقين الذين كانوا يُدرّبون بدقة على رماية السهام، حيث كانت تقذف رمية مزيّفة خادعة في الهواء يتبعها وابل من السهام يمطر بها العدو مما كان يوقع حالة من الإرباك والفوضى والذعر بين صفوف الأعداء، هذا الذعر كان يذكيه استعمال (النار الميدية) التي عرفت فيما

(١) همدان حالياً في غرب إيران، شمال نهر نهاوند، شرق كرمنشاه، (النّاشر).

بعد (بالنار الإغريقية) استناداً لقول (أمينوس مارسلينوس AMMIENUS MARCELLINUS) وقد كان الميديون يلطخون سهامهم بخليط من الزيت والنفط فينطلق السهم ليشعل كل شيء يصيبه. شريطة أن لا يطلق بشدة من القوس، ذلك لأن الرمية السريعة تجرده من فعاليته. وقد كانت تستعمل المياه بالمقابل لإطفاء الحرائق، وهكذا فقد لعب نفط كردستان دوراً هاماً في العمليات الحربية في تلك الفترة.

كان الميديون ينتظمون في ثلاث مقاطعات كبيرة.

١ً - الميديون الجبابرة، موقعهم اليوم العراق العجمي.

٢ً - ميديو آتروباتينوس (ATROPATENUS) أذربيجان الحديثة اليوم.

٣ً - ميديوراجس (RHAGES) وهي المنطقة المحيطة بطهران اليوم، حيث أنشئت مستعمرات يهودية وحيث الملاك رافائيل (RAPHAEL) الذي كان يقود توبياس الصغير اليهودي.

حاول سيراكساروس (CYRAXARUS) الاستيلاء على نينوى، وقبر النبي (لاهوم LAHUM) الذي يجلّه أهل الكوش ويبعد ٣٢ ميلاً عن سفوح جبال كردستان الذي كان شاهد عيان لهجوم جيش (سيراكساروس) الذي كان أشبه بسحابةٍ من الجراد ولهيب من النار، إلا أن ما حدث في تلك اللحظة أن التفَّ حشدٌ من الحشاشين حول الميدين وأرغموا سيراكساروس على فك الحصار عن نينوى. فتحول بعدها ليدافع عن منطقة شمالي بحيرة أُورمية[1](OURMIA) فانهزم بها، ومع هذا فقد عمد إلى مسار آخر. فدعا ملك الحشاشين مادييس (MADYES) وقواده إلى وليمة. وجعلهم يشربون حتى الثمالة، وعندما اطمأن إلى سكرهم أجهز عليهم وذبحهم عن آخرهم، وقد كانت حيلة ناجحة جداً.

---

(١) بحيرة أُورمية غرب تبريز، جنوب شرق بحيرة وان، (النّاشر).

وفي نفس الوقت حدث أن مات ملك الآشوريين (آشوربانيبال) فضم سيراكساروس إليه نيبوبولاصَّر (NEBOPOLLASSAR) حاكم بابل وبالفرقة الجبلية الميدية استطاع أن يدمر نينوى. وكان ذلك الوقت هو نهاية إمبراطورية الآشوريين[1]. إذ يعد تاريخ هذه الذكرى أول سنة من تاريخ الأكراد كما يعتبرها القوميون حالياً. وفي الوقت نفسه أيضاً حدث أن هُزم أستياج (ASTYAÇE) وابنه الأكبر هو الذي جعل همدان أو (ACTBATANA أكتباتانا) عاصمة إيران الموحّدة، وبانتصار سيروس يكون «قد انفتح عهد جديد للشعب الفارسي الذي قُدّر له أن يتّحد مع الميديين أو غرشمان (ÇHIRSHMAN)».

دعونا الآن نلخص ما عرفناه عن الميديين الذين ما زالوا يعرفون بـ (الفرشمان)، إذا اعتبرنا أن التنظيم السياسي لمملكة الميديين كان أشبه بالتنظيم الآشوري نرى أن مادة ثقافتهم الفكرية لا تزال مجهولة لدينا عملياً من ناحية أخرى، أما في مجال الفنون والحرف، فإن الميديين كالحشاشين، أبرزوا ذوقهم بزخرفة الأسلحة وعدة الخيل على نحو رائع جداً وكذلك الأواني من المعادن الثمينة، أما الملابس فتطرّز بألوان مزركشة متناسقة. وفيما يتعلق بملامح الشعب عامة فيمكن تحديدها من خلال النقوش ذات الأصل الآشوري التي تظهر الرجال باللحية والشوارب يرتدون الجلود الفضفاضة فوق الألبسة الملتصقة بأجسامهم وينتعلون أحذية طويلة يقودون الخيول لغزاتهم الآشوريين.

ومن المعلومات المستقاة من مراجع ساكز (SAKKEZ) يمكن أن تكوّن فكرة عن فنّهم، وهذه المعلومات يمكن أن تكمّل فيما بعد بأدلة حديثة مزودة بالاقتباسات التي استنبطها الغزاة من شعب متميز بمدنيّة راقية تفوقهم، كما لا تزال هناك بعض الآثار التي تبيّن أعمالهم الفنية الكثيرة مثل التمثال الهائل في

---

(١) بدأ حكم الآشوريّين سنة ١٣٩٢ق.م، وانتهى سنة ٦١٢ق.م، (النّاشر).

همدان الذي يبين ملامح الأسد المشوّه، عدا القبور الصخرية الـتي يوجـد واحـد منها بالقرب من ساري بـول (SARI - POL) غربـي رؤوس سلسـلة زاغـروس وغيرهـا في دوكـان داور، ومثلهـا آثـار فاهريكـا (FAHRIKA) جنوبـي بحـيرة أُورمية حيث تبدو قبور الأمراء قائمة في جوانـب الجبـل. زُيّـن أول واحـد منهـا بنقوش تحكي عن الخلاص بمسحة دينية، وتصور شخصاً يقبض على حزمـة مـن الأغصان وتدعى (البرسوم) تستعمل في الاحتفالات الدينية.

وأخيراً طالما توافرت لدينا تلك التفصيلات عن الميديين والشواهد لا بد أنهـا تعزز الاعتقاد بأن الميديين هم أصدق نسباً ليكونوا أجداد الأكراد الأصليين.

شواهد اللغة:

في سياق البحث عن أصل الأكراد، تعترض سبيلنا نظريتان:

الأولى: نظرية السيد (مينورسكي) الذي يؤكد فارسيتهم أي الأصـل الهنـدو – أوربي (HINDO - EUROPEAN).

ويعتقد بأنهم تحركوا في القرن الســابع عشـر قبـل المسيح مـن منطقـة بحيرة **أُورمية** المجاورة نحو بوطان (KENRITES).

الثانية: رأي الأكـاديمي السـوفييتي (N. J. MARR) الـذي يؤكـد أن طبـائع الكـرد الأصليـة تـأثرت بـالأقوام الآسـيوية الأخـرى كـالكلدانيين والجورجيـين القفقاسيين والأرمن.

إن النظرية التي أقامها السيد مينورسكي عن اللغـة والـبراهين التاريخيـة والـتي بموجبها قرر أن يصنف الأكراد مع الشـعب الإيراني فاتـه أن يـأخذ في حسـابه أصول السلالات المعقدة التي لم يندمجوا بها.

في القرن الخامس عشر قال لنا هيرودوتس: إن المقاطعة الثالثة عشر من إمبراطورية الإخمينيين (ACHEMANIAN) الفارسية ضمّت إلى جانب الأرمن منطقة باتيوكي (PATIUKI) التي تحاكي بوطان اليوم[١]، وتقوم شرقي هذه المنطقة بلاد الكاردوكس أو الكاردوخوي (CARDUKS or CARDUKHOI) التي يشير إليها زنوفون (XENOPHON) في فترة (٤٠٠ - ٤١ ق.م) وهو ((مؤرخ يوناني عاش في (٣٥٥ - ٤٣٠ ق.م) وأحد تلامذة سقراط)) في الوقت نفسه تراجع جيشه عشرة الآلاف، ومنذ ذلك الحين أطلق اسم مشتق من ذلك الأصل على المنطقة الواقعة على يسار ضفة الدجلة بالقرب من جبل الجودي. كما أشار الكتّاب الأوائل إلى المقاطعة نفسها باسم كوردين (ÇORDYENE) وقد دعاها الآراميون بير كاردو (Bêr - QARDU) ومدينة جزينة جازارتاكا كاردو (JEZINEH ÇAZARTA OF QARDU)، بينما يطلق الأرمن على المنطقة نفسها اسم كوردوخ (KORDUKH) وهي ذات امتداد محدود إلى حدّ ما.

يقول زنوفون: إن أولئك الكاردوك لم يعترفوا بسلطة الملك أرتاكسركس (ARTAXERXES) ولا بسلطة ملك أرمينية. وبناء لقول البروفسور لهمان هوبت (C. F. LEHMANN - HAUPT) يمكن أن يكون الكاردوك هم أجداد الجورجيين (ÇEORÇIAN - KARTUELIANS) وليسوا أجداد الأكراد، كما أن الصلة بين الكلدانيين وخالديي أورارتو (KHALDES OF URARTU) من جهة ثانية كانت صحيحة. ولكن أورارتو كان إلهاً وليس شعباً، زد على ذلك أنه لا الجورجيين ولا الخالديين يتكلمون الهندو - أوربية كما يتكلم الأكراد اليوم. إلا أنه لا يجب التركيز على هذا كثيراً، إذ يقول السيد مار (MARR): إن الأكراد كانوا قد غيّروا لغتهم في ذلك الحين.

---

(١) بوطان اليوم: هي جزيرة ابن عمر على الحدود السّورية - التركية - ضمن الحدود التركية - على نهر دجلة، يقابلها شرقاً جبل الجودي، (النّاشر).

وقد نسب أجداد الأكراد أيضاً إلى كيرتوا أو كيرتيان (KYRTOI or KIRTIANS)، بدو منطقة آتروباتنوس (ATROPATENUS) أول ما أتى على ذكرهم بوليبيوس (POLYBIUS) المؤرخ اليوناني في فترة ٢٢٠سنة ق. م، حيث كان جيش ملك الميدين يضم الرماة الذين حاربوا سيلوسد أنتيوكس (SELUCID ANTIOCHUS) وبعد ذلك بثلاثين عاماً عملوا مع أنتيوكس نفسه، وفي عام ١٧١ انقلبوا إلى جنود مرتزقة لدى الملك برجاموس (PERÇAMUS) أعقب ذلك أن قام تيجرانوس (TIÇRANUS) الكبير ملك أرمينية بتسخير ٣٥٠٠٠ سجين من الأكراد وأناط بهم إصلاح الطرق وبناء الجسور وتنظيف الأنهار وقطع أشجار الغابات وتكليفهم بأعمال عسكرية أخرى. وكان سكان جوردينية (ÇORDENIA) يفتخرون بسمعتهم باعتبارهم بنائين ومهندسين عسكريين أكفّاء.

مهما ينتج عن الإيتمولوجيا (تاريخ أصل الكلمات) فإن السيد منورسكي يوافق السيد (مار) تماماً لما وصل إليه من الأدلة المختلفة التي تنسب إلى الميديين مشاركتهم في تكوين الشعب الكردي، وقد عرف الأكراد أيضاً بالكرمانجي (KURMANDJI) وهي كلمة تتألف من ثلاثة أقسام كرد - مان (-KURD MAN) يضاف إليها في نهايتها حرف J. المقطع الأول واضح بحد ذاته بإشارته، والثالث هو لاحقة تشير إلى الأصل، أما المقطع الثاني مان (MAN) يجب أن تكون مرتبطة باسم الميديين (MEDES)، ماتي (MATAI) أو مادا (MADA) زد على ذلك أن الميديين كانوا قد امتزجوا إلى حد بعيد بالمانيين (MANNEANS or MANNAï) أو المانائيين الذين ظهروا بالقرن التاسع قبل الميلاد.

أثناء احتلال نينوى عام ٦١٢ ق.م كان بين جموع الميديين قبائل من الماندين (MANDA) أو (أومان ماندا UMMAN MANDA) كما درج

الآشوريون على تسميتهم بالسومريين والحشاشين. هذا وقد أضاف علماء اللغات احتمال توافق الأسماء التالية: ماندا، ميدز، مانيان، ومانتيان (MANDA, MEDES, MANNEANS, MANTIANES) كما ذكرهم المؤرخ سترابو (STRABO). وماشتز (MATIENES) هرودوتس والمارشيانز أو بالمارجيانز (MARÇIANES) العائدة بتولمي (PTOLEMY) العالم اليوناني. كما أنه بعد المواجهة مع الكنريت أو البوطائيين فإن زمرة عشرة الآلاف مقاتل كانت قد هاجمتهم كتيبة فارسية كان فيها عناصر من الماردين (MARDS) والأرمن. علماً بأن الماردين كانوا جيراناً للكرشيان (KYRTIANS) الذين يمكن أن يكونوا قد انحدروا من المانيين كما يرى السيد منورسكي. استناداً للحقائق الجغرافية والتاريخية التي ترجح كثيراً بأن الأمة الكردية كانت قد تشكلت باندماج قبيلتين متقاربتين هما الماردوي (MARDOI) والكرتوى (KYRTOI) الذين يتكلمون لهجتين ميديتين متقاربتين جداً. زد على ذلك، أنه من واقع توسع الأكراد باتجاه الغرب فقد اندمجوا في عدة سلالات محلية فطرية.

سوف لا نسلم كثيراً بنظرية السيد مار التي تقول بأن أرومة الأكراد تحدرت من المناطق الجبلية في آسيا الصغرى. فطبقاً للمقارنات الحقيقية الدقيقة تبين لنا بأن نظرياته اللغوية استنبطت من الأوضاع الاقتصادية كما أن نتائج جهوده لا تبدو مقنعة وغير دقيقة، وعلى أي حال كل ما نستطيع أن نستخلصه منها أنه أقر بالنهاية بالارتباط الوثيق بين الكرد والميديين الذي يؤكد بالوقت نفسه نظريات السيد مينورسكي.

(إنتروبولوجيا) علم أصل الإنسان

إذا كان أصل الأكراد لا يبدو واضحاً تماماً رغم المناقشات اللغوية والمجادلات التاريخية: فالأبحاث العلمية عن أصل الإنسان لا تأتي بحجج مقنعة

تماماً. فالسيد آرينز كبيرز (ARIENS KAPPERS) الذي درس أكراد دمشق عام ١٩٣١م أخذ في حسابه امتزاجهم بأصول أخرى، أقرّ بأنهم من أصل مميّز، كما أنه يتعذر القول عن ضم النتائج التي حصل عليها السيد هوسي (HOUSSAYE) الفيزيائي الأرجنتيني عام ١٨٨٧م الذي درس أكراد إيران إلى نتائج السيد شانتر (CHANTRE) الذي اعتمد القياسات الفيزيائية لأكراد تركية ومنطقة يريفان (ERIVAN)[1] حيث بدا له أن الكردي الشمالي هو رجل ضخم مخيف (السمنة معدومة تماماً بين الأكراد) أنفه طويل وغالباً معقوف قليلاً، الفم صغير والوجه بيضوي، الرجال يتحلّون بشوارب طويلة والذقن دائماً حليقة، يبدو في سيماهم العزم والتصميم والشخصية خارقة أكثرهم شقر الوجوه بعيون زرقاء، وأولاد الأكراد من هذا النوع يستوون مع أولاد الإنكليز ويصعب تمييزهم بسبب بياض البشرة.. في الجنوب. الوجه أحياناً أعرضٌ قليلاً والجسم أثقل. تلك هي ملاحظة الميجر سوان (MAJOR SOAN'S) عام ١٩١٢م التي تجعل الإنسان يعتقد بأن الأكراد ليسوا من شكل واحد معيّن. فإذا ما أُمعن النظر بين الكردي الجبلي والكردي ساكن السهول، والكردي المقيم أو من الرُّحَّل. وبمقارنة شخص ينحدر من سلالة كردية صافية مع آخر انصهر بأصول مجاورة أخرى تتبيّن اختلافات واضحة تماماً. إذ إن هناك مفارقات بأشكال البشر طبيعية: الشكل العربي، شكل يهودي التوراة، النسطوري[2]، التركماني إلخ...

كما يشير السيد منورسكي والسيد هنري فيلد (HENRY FIELD) ودراساته عام ١٩٥٢م في علم أصل الإنسان التي قام بها على ٥٩٨ من أكراد العراق وخصوصاً على أولئك الذين يقيمون في زاخو، راوندوز، كركوك

(١) يريفان: عاصمة أرمينية حالياً (النّاشر).

(٢) نسطور: من أبطال إلياذة هوميرس، ملك بيلوس الأُسطوري، ونسطور بطريرك القسطنطينية ٤٢٨م، حرمه مجمع إفسس سنة ٤٣١م، أتباعه هم النّساطرة، (النّاشر).

والسليمانية إذ قادته دراساته إلى النتيجة نفسها، إلا أنه بمنهج علمي أعمق، يظهر لنا ما يأتي: متوسط طول الكردي هو ٥ - ٦ أقدام، الجزع طويل نسبياً وبناء لذلك تكون الأرجل قصيرة نوعاً، الجبهة عريضة، والرأس كبير ومستدير، وغالباً ما يكون قصيراً برقبته، طول الوجه معتدل، كما جرى فحص أقل من ربع الأشخاص فكانوا أرورين (EURORRHINE) والنخبة الباقية كانوا ميزورين (MESORRHINE) وليبتورين (LEPTERRINE)، أنف الليبتورين غالباً ما يكون معقوفاً والشعر مموجاً قليلاً وناعماً، وعادة يكون لونه كستنائياً غامقاً والعيون سوداء، أما الشعر الأشقر والعيون الزرقاء فهي كثيرة جداً ولا سيما بالمناطق الغربية، لون البشرة هو أنصع من البشرة العربية، ولكنها ليست بصفاء بشرة الآشوريين، الأسنان عادية ومنتظمة جداً، أمّا عضلات الذين قد جرت دراستهم فهي بشكل عام تتوافق وصحتهم الجيدة... ولدراسة صورهم بعناية فقد اختار السيد هنري فيلد مجموعة من العروق المختلفة: الأرمني، البلقاني، حوض المتوسط، الأناضولي والألبي (نسبة لجبال الألب).ولكن بالرغم من تلك الصفات الفيزيائية المتباينة فقد أثبت الأكراد وجودهم كشعب متميز، ولكنهم كغيرهم من الشعوب لا يتحدرون من أصل واحد صاف جميعاً. على أنهم من غير شك يشكلون مجتمعاً فريداً مميزاً بالشعور والإحساس المرهف الواضح المتأصل في طباعهم.

الفصل الثالث

الحياة بين الأكراد

الحقيقة أن الأكراد بالرغم من الميزات العامة التي يتمتعون بها كشعب جبلي إلا أنها تختلف باختلاف الموارد الاقتصادية المرتبطة بالتنوع من حيث امتلاك الأرض والمسكن، وهذا لا يخرج عن كونهم يتحلّون دائماً بصفات خاصة مميزة من حيث أصلهم وتاريخهم.

الرُّحل والحضر

لا بد من التمييز بين حياة الرّحل وحياة الإقامة الثابتة لدى الشعب الكردي. أما الحضر سكان المدن والقرى فيفضلون الرحَّل عموماً.

الأكراد الرحّل يُدعون (كوشر KOÇER) ويشابهون البدو الرحّل نوعاً ما إلا أنهم من سكان الجبال وليسوا من سكان الصحراء، ووسائل الرزق الرئيسية لديهم هي تربية المواشي التي تقتصر على الماعز والأغنام والجاموس، وفي بعض الأحيان الخيول، ونادراً الجمال، وهم أكثر كثافة في المرتفعات التركية - الأرمينية، وفي أعالي مجرى نهر كورى (KURA) الذي يخترق قفقاسيا، وهو النهر الرئيسي لجورجيا وأرمينيا، وفي مرتفعات نهر أراكس (ARAXE)[1]

---

(١) الحد الفاصل حالياً بين إيران وأذربيجان، (النّاشر).

ومرادسو (MURADSO)(١) وشواطئ الفرات وعلى ضفاف بحيرة وان، وعلى منحدرات سلسلة جبال طوروس.

حياة الرحّل المحضة عند الأكراد تكاد تكون معدومة تقريباً في هذه الأيام. لقد أصبحوا بالواقع نصف رحّل؛ لأن معظمهم أصبح يقيم بصورة ثابتة في السهول والوديان التي يعودون إليها في أثناء الشتاء. هذا كما أن جميع الدول عامة لا تزال تبذل جهدها للقضاء على حياة الرحّل، ولكنها لم تنجح بشكل تام.

ففي العراق مثلاً لا يزال يوجد رحّل من مختلف القبائل. البلباس (BILBAS) في لواء السليمانية والهركي (HERKI) في لواء أربيل والسرشي (SURCHI) في لواء الموصل.

أما في إيران ترى القبائل في أكثر المناطق رحّلاً كانوا أم حضراً يقيمون بشكل أصح. ولكنهم مع هذا وبكل تأكيد لا يزالون يتمسكون بعاداتهم القبلية، ومن حيث هجرة القبائل مع حواشيهم فتختلف بأسلوبها من حيث المساحة والبعد والامتداد، ويشترك فيها جميع أفراد القبيلة بصورة كاملة، وفي معظم الأحيان لا بد أن يبقى من القبيلة بعض أعضائها عادة في أرضها خلال فصل الشتاء ويدعون (QUISHLÂÇ) وعندما تكون الهجرة للمراعي الصيفية يصبحون (YAYLÂK)، وفي بعض الأحيان ترى مقيمين دائمين أو نصف مقيمين خلال فصل الصيف ويدعون لامبتون (LAMBTON). السكان الثابتين دماني (DEMANI) كما يقترح تسميتهم يمكن أن يشكلوا بالرحّل الذين أقاموا في السهول لأسباب اقتصادية أو صحية أو سياسية ويسمّون بامري (BAMIRI) أو جامري (ÇAMIRI) بمعنى الآباء الموتى أو الثيران الميّتة أو الثيران المتعبة.

---

(١) نهر مراد: من روافد الفرات الرئيسية، ينبع فرعه الشمالي من جبال بنغول داغ شمال بحيرة وان، والفرع الجنوبي يمر قرب بتليس.

وهذا يبين لنا أسباب تكاثر أعضاء بعض القبائل في الجبال، وبعضها الآخر في السهول، أضف إلى ذلك بأنه يجب الأخذ بعين الاعتبار سكان البلاد الأصليين ويدعون (رايت RAYET) من مسيحيين وإسلام: الذين يحتمل أن تكون بعض القبائل أو العشائر قد غزتهم في سالف الأزمان وأجبرتهم على دفع الضرائب أو العمل الإجباري. ويقول السيد إدمون (EDMOND) إن هؤلاء يعرفون في العراق باسم مشكين أو غوراني (MISKÊN or ÇORANI) وهذا من أجل عزلتهم عن الأكراد ذوي الأعراق الصحيحة المتحدرة من أصل قبلي معروف. ويجب أن يضاف إلى هذا النوع من القرويين القدامى فئة أخرى، إذا أجيز ذلك، وهي فئة الأكراد المزارعين التعاونيين (KOLKHOSIAO) في الاتحاد السوفييتي، وفئة أخرى من المقيمين الدائمين هم سكان المدن، الذين قضوا بصورة تدريجية على كل ما يربطهم بأصلهم القبلي وأقاموا في مدن صغيرة وقد تفاعل عددهم فيها وتطورهم على مدى ما يزيد عن خمسين عاماً.

الكردي المقيم

المتنقلون يعيشون عادة في خيام (KON or REMAL) تكون منخفضة وقصيرة تُثبت بالأرض بواسطة كثير من الأمراس القصيرة وتختلف عن خيام العرب.

ويتألف نسيجها من جدائل سوداء طويلة من شعر الماعز، وعدد الأعمدة فيها يختلف حسب أهمية سيد البيت، وعموماً فقد كتب فيلبرج (C. Ç. FEILBERÇ) عن الخيمة الكردية بأن لها أشكالها المميزة التالية: سقف فسيح من شعر الماعز الأسود ينحدر على الجوانب وعلى نهايات الجملون، خيوطها المشبّكة ودعائمها تبدو كأنها غير مرئية أبداً. عمود ذروة الخيمة لا وجود له، باستثناء ما لدى بعض القبائل الشرقية. السقف يقسم لعدة مقاطع تتصل ببعضها بواسطة عقد وقضبان قصيرة. الأثاث الداخلي بسيط. تُغطى الأرض بالحصر

والسجاد، ويقام حاجز من القصب يدعى (ÇIT) داخل الخيمة ليفصل المكان الذي تشغله النساء عن قسم الاستقبال الخاص بالرجال. تقام بأوسطه حفرة توقد فيها النار تحضر عليها القهوة. تؤثث بعض خيام رؤساء القبائل تأثيثاً جيداً بالوسائد والسجاجيد الوثيرة وهي مريحة جداً ونفيسة.

بيوت القرويين (XANI) بدائية جداً، أبسطها يتألف من غرفة كبيرة تُجزّأ إلى قسمين، قسم منها يخصص إلى الحيوانات يدعى ياخور (YAXÛR) والقسم الآخر لساكني الدار، ويحيط بالمسكن عادة فناء يُحدّد بجدار وفي إحدى جوانب البناء يقام مستودع يستعمل للحطب والأدوات المنزلية، وزاوية تُستعمل للطبخ، أما مستودعات الحبوب فتكون، على شكل حفرة خارج المنزل تُغطى بالقش ثم بالتراب والأحجار، وفي السهول تبنى البيوت باللبن الترابي غير المشوي الذي يجفف بالشمس وتصنعه النساء بعجن الطين مع التبن. والأرض من التراب المرصوص. الفرن (TENOÛR) ينبى على شكل الأحفورة الكبيرة الإغريقية ويكون عادة في وسط الغرفة وداخلاً في الأرض ويعد رمز العائلة المقدس، في الشتاء يغطى بالـ (KURSI) وهو شكل قالب من الخشب تجتمع حوله العائلة أثناء السهرة، وتنام على طول الجدران من كل جانب من جوانب الباب يوجد مسطبة (مقعد طويل) من التراب المضغوط (DIKAN) تغطى باللّباد، تستعمل للجلوس عليها. عادة لا توجد نوافذ ولا مدافئ إنما توجد فتحات ثلاث أو فتحتان في أعالي الجدران. السقف منخفض وواسع يغطيه سواد الدخان الذي تحدثه النار ويتألف عادة من أعمدة من خشب الحور تغطى بطبقة من الأغصان المقطوعة التي تأوي الأفاعي والعقارب وتكسو الأغصان طبقة سميكة من الطين وعلى تلك الأسطحة الواسعة حجر (مدحلة) يبقى دائماً لحدل السقف بالأيام الرطبة. يعيش الأكراد الجبليون أحياناً، وليس دائماً، في كهوف مجهزة تجهيزاً مريحاً جداً. وفي بعض الأحيان تُبنى المنازل بشكل طوابق يستعمل سقف الطابق

الأول ليكون أرضاً للطابق الذي فوقه وجدران هذا النوع تكون من الحجارة المقطوعة، أحد أشكال البيوت الفردية تحتوي على فرندا (شرفة) تستند إلى أعمدة وتتجه إلى الغرب. يصعب القول إن جريان الهواء في بيوت فقراء الفلاحين ولا سيما الذي يحدثه التيار بفعل فعله الصحي المطلوب.

الأبنية في المدن بالطبع أكثر رحابة وراحة. بعض البيوت تكون غرفة الضيوف فيها بالطابق العلوي. الزعماء الذين عاشوا في الماضي في قصور أشبه بالقلاع بُنيت على رؤوس الجبال حيث يمكن أن تُشاهد منها جميع البلدان المحيطة بها. يعيشون الآن في المدينة بقصور فخمة مجهزة بأثاث حديث وسجّاد فاخر.

أما في القرى، فيقتصر الأثاث على بعض الفرش والوسائد واللبّاد الذي يغطي الأرض، وغالباً يتضمن صندوق خشبي كبير (يزدان) بألوان زاهية يودع فيه جهاز العروس وغيارات الألبسة. يملك الأغنياء لا سيما في المدن كلا النوعين. السجاجيد والأثاث ويتألف من أسرِّة حديدية (صوفايات) طاولات وكراسي وخزائن للملابس وخزائن ذات مرايا. أما الأدوات المنزلية فمحدودة تقريباً: صينية كبيرة من النحاس وسلّة لحمل الطعام، وطنجرة أو طنجرتان ومقلاة، مغرفة وكفكير (مقشدة) وزبادي من النحاس وبعض الصحون والأطباق وبعض المرطبات والجرار وملاعق وسكاكين، وبجانب النار يكون الملقط والمنفاخ وفي بعض الأحيان السماور (لتحضير الشاي) وعلى مقربة ترتكز أكياس المؤونة المصنوعة من جلد الماعز وكذلك المناخل والمصافي، الإنارة تكون بواسطة مصباح يُغذى بزيت البارافين. وغالباً مصباح العاصفة (الفانوس) وفي بعض الأحيان لمبة لضغط (اللوكس) وفي الزاوية توضع مكنسة من الأغصان الصغيرة وفي بعض المدن القليلة يستنيرون بالكهرباء.

الوظائف اليومية

يُعنى الرُحّل بتربية الماشية، وحياة الرعاة هي أحد الأعمال المفضلة لدى الأكراد، لأنك ترى الراعي وهو يتحرر من جميع القيود، ويشعر أنه سيد الطبيعة وسيّد أرضه التي يملكها، ومن البديهي أن هذه الحياة المطلقة بين أحضان الطبيعة التي تحيطه بالأخطار من كل جانب لا بد أنها تخلق لديه الشجاعة، وإن كانت من ناحية أخرى لا تسهم بتنمية فكره، فالمثل يقول: ((إذا أردت أن تصنع من ابنك رجلاً فاجعله راعياً، ولكن احترس لإعادته إلى البيت بالوقت المناسب قبل أن يصبح حيواناً)) إنها بلا ريب نتيجة حتمية.

السعادة التي ينعم بها الكردي تنبع من حبه الخالص للحرية، حيث يعلم بأنه لا يوجد هناك قانون ولا شريعة سوى سعادته المحضة الخالصة. لذلك يجب ألاّ نندهش من كرهه الفطري للنظام ولكل ما ينال من حرِّيته.

بينما يملك الرجال بطبيعتهم الخبرات بكل ما يتعلق بتربية المواشي ومواسمها وتضارعهم النسوة من ناحية أخرى بخبرتهن في حلب الأغنام والأبقار وإنتاج الزبدة والجبن. ولصنع الزبدة يعمدون أولاً لغلي الحليب في مراجل (KAZAN) يضيفون إليه ملعقة من اللبن الرائب ويتركونه ليروب حتى اليوم التالي. يُصب اللبن الرائب ثانية بقربة من جلد الماعز (MESK)، ثم تُعلق على دعامة ثلاثية. حيث تقوم امرأتان بمخض اللبن وذلك بهزّ القربة لمدة معينة، ومن ثم تستخرج الزبدة وتملّح وتحفظ. ويُستعمل القسم الباقي بعد استخراج الزّبدة (DEW) لصنع الجبنة البيضاء التي تملّح، وتطعّم ببعض الأعشاب العطرية المختلفة، وعندما تجمد تماماً توضع في أكياس من القماش وتكبس ببعض الأثقال، أما مصل اللبن فتغذّى به العجول. وعندما تصبح الجبنة جيدة حسب الطلب تحفظ في قرب من الجلد أيضاً. فالجبنة البيضاء هي الغذاء الرئيسي عند الأكراد. وتُصنع أيضاً بطريقة أخرى أقل بدائية كالتالي: تصب النساء الحليب الطازج غير المقشود

المجموع بيوم واحد في مراجل ثم يُغلى ويروّب ثم تُوضع بـه الملفحة (المشيمة) التي تجمدّه بصورة كاملة، بعدها تقطع بقطع معينة مستديرة، وعملية التخثير تتبع بسرعة حيث يتخثر الحليب خلال ١٥ - ٢٠ دقيقة، ثم يُصب في أكياس من القماش تربط فوهاتها ثم توضع على بلاط حجري ناعم وتُضغط بوضع حجر كبير وثقيل عليها. وعندما تتم العملية، تنزع الجبنة المكبوسة من الأكياس على شكل أقراص مسطّحة تجفف بعدئذ بالهواء الطلق. هذا عن صنع الجبنة.

أما فيما يتعلق بالزراعة، فهي كما يلي: في الريف. يحرث الفلاحون الحقول ويبذرون الحبوب. الحنطة، الشعير، الأرز. تمارس الحراثة بمحراث بدائي يتألف من شفرة المحراث (السكّة) وطوالة مؤلفة من ركيزتين خشبيتين تصنعان من غصن شجرة وتخترق الشفرة الأرض بصعوبة. وهذه الآلة يمكن فكّها وحملها على الكتف عند الحاجة، يتم البذار بنثر الحب حسب العادة، ويشارك الجميع في عملية الحصاد: حيث ينتظمون في خطوط مستقيمة وينطلقون في الغناء وهم يعملون، يستعمل المنجل في الحصاد ويحمي الحاصد أصابعه بأصابع معدنية واقية، وعندما يتم حصاد كمية ما، تنشر على أرض صلبة تعين عادة عند مداخل القرية للدراس فتدرس بوساطة لوح خشبي سميك تُثبّت في أسفله أحجار صغيرة أو قطع دقيقة من الحديد ويُجر اللوح بواسطة ثور أو حمار، ومن مدعاة سرور الأولاد أن يلعبوا حول اللوح لمدة ساعات متعرضين للغبار وأشعة الشمس على هذه المركبة البدائية، ثم يذرى الحب بتفريقه عن التبن بالشوكة. وهي شوكة كبيرة من الخشب، وأخيراً تجمع الحنطة في البيت وتحفظ ضمن كوارات من التراب المضغوط طولها (٢ يارد[1] و ٨ إنش وقطرها يارد واحد و ٤ إنش). وتزيّن هذه الأوعية الكبيرة بدمغات الأيدي وتصمم بتلافيف من الطين المشوي يقولون: إنها تقي من عين الشيطان.

---

(١) اليارد: ٩١,٥سم، (النّاشر).

القش (KA) الناتج عن عملية الفرز يفرم ويخزن بكميات كبيرة في التبّان (KADIN) ويستعمل علفاً للماشية وفي صنع اللّبن (الآجر).

للأكراد خبرة متميّزة في رعاية الحدائق والبساتين يضارعون فيها سكان الجبال في لبنان، (إذ يقومون ببراعة فائقة بصنع المدارج (جلول) بجدران صغيرة حيث يزرعون الذرة والدخن والقنب، هذا عندما تكون الأرض الصالحة للزراعة غير كافية. الخضار متنوعة وكثيرة جداً والفاكهة تنمو أشجارها طبيعية (وحشية) أما التفاح والإجاص والدراق والتين والمشمش والتوت والرمان فتزرع بعناية كبيرة في حدائق وبساتين رائعة.

كما أن لدى الكردي خبرة فريدة بتنمية الكرمة والعناية بثمر العنب؛ لأنه المفضل إذ ينتج محصولاً من العنب الممتاز الذي تعددت أنواعه إلى ما يزيد عن عشرين نوعاً ممتازاً تؤكل جميعها بالطبع طازجة. غير أنهم يجففون بعضها لصنع الزبيب الذي يستهلك في فصل الشتاء، كما يصنع منه المربّى والكعك، أما النبيذ فيصنعه المسيحيون فقط كما يصنعون العرق من الزبيب، ويشكل الدخان محصولاً مفيداً لديهم فالسجائر التي تصنع في السليمانية خصوصاً متميزة دائماً ورائجة جداً. تروى البساتين بشكل عام والحقول من بئر القرية مباشرة بواسطة أقنية صغيرة. وفي أماكن أخرى تغذّى بماء الأنهار بواسطة نواعير وتجدر الإشارة هنا بأن الأكراد هم الذين أدخلوا زراعة القطن إلى سورية في القرن العاشر.

يجمع الكردي ثمرة العفص التي تنمو في الجبال وتصدر لاستعمالات الدباغة كما يجني صمغ الكثيراء والمن (ÇEZO) وهو نوع من (**النّوكا**) الطبيعية. حيث تنمو الغابات الكثيفة تُشكل فرق خاصة تقوم بقطع الأشجار، تكوم بعدها قطع الأخشاب الناتجة عنها في إيتونات لصنع الفحم الذي لا يستغنى عنه للتدفئة بالمناقل (MANQAL) التي تكون دائماً جاهزة للاستعمال.

هناك بعض من الأكراد يؤمُّون المدن البعيدة عن كردستان بحثاً عن العمل فلا يجدون سوى الأعمال المرهقة والشاقة في أغلب الأحيان كبناء الآجر في مدينة إستنبول مثلاً. ومن خلال تجربة أخلاقياتهم واستقامتهم وكسبهم ثقة الناس أصبحوا يعملون في حراسة الأبنية في المدن الصغيرة، هذا وقد أصبح في كردستان ذاتها تجاراً من بين المواطنين عدا صغار التجار الذين تخصصوا بتزويد الرحّل والفلاحين بالمواد العامة ومستلزماتهم، هناك أيضاً تجار جملة. تجار أغنام، تجار سمن وتجار الجبن، تجار الجلود والصوف والعفص ويعدون الممونيين للمدن الكبيرة والبلاد المجاورة من هذه المواد، وفي مدينة إستنبول نفسها يحتكر الأكراد تجارة الماشية وتجارة اللحوم. في بيروت يوجد عدد لا يستهان به من الأكراد يعملون في تجارة الخضار، وفي سوق اللحوم يمكن تمييزهم بقبعاتهم الصوفية، وترى منهم الخضري والفاكهاني متجولاً مثلاً يدفع عربته في أحياء المدينة. وهناك أيضاً أصحاب دكاكين: هذا عدا الحمالين الأقوياء، الذين يحملون على ظهورهم ما لا يستطيعه غيرهم كالخزائن المختلفة والبرادات إلخ... المثل السائر هناك يقول (قوي كالرجل التركي) والحقيقة المقصود هو الرجل الكردي الذي يعيش في تركيا.

ويقوم الأكراد بأعمال هامة جداً اليوم في سد دوكان في العراق وفي منشآت شركة نفط كركوك، وفي المدن الكردية يشكل الأطباء والمحامون الأكراد حشداً كبيراً يزيد عن الحاجة بشكل عام، كما أن الضباط ذوي الكفاءات والرتب العالية قدموا من السليمانية ومن مناطق أخرى في كردستان. وبهذا يكونون قد احتلوا المراكز العالية في الجيش العراقي وفي الإدارات الحكومية ولا سيما من شغلوا مناصب وزارية كانوا دائماً يتميزون بذكائهم وكفاءاتهم وشرفهم واستقامتهم، وتجدر الإشارة إلى أن رجال الصحافة البارزين في تركيا هم من الأكراد.

أما حياة الأكراد في أرمينية فيجب أن تبحث على حده. فغالبيتهم من اليزيديين(١)، وقد توقفوا عن حياة الرعاة فيها منذ قبل حرب ١٩١٤م، وأصبحوا من الطبقة العاملة الدنيا التي يقتصر عملها على الأعمال اليدوية والعتالة والكناسة إلخ.. وذلك في مدينتي تفليس وبريفان أما اليوم فقد تغير الحال وأصبحوا أعضاء بالمزارع التعاونية (KOLKHOZ). يبدو في بيان العمل ١٩٥٧م أن الذي كان يعمل عتالاً أصبح يسير قُدماً في طرق الحياة الجديدة. إذ يجب ألا ننكر التطور الذي طرأ في شتى المجالات سواءً كان بالمنزل أو بطريقة العيش والحياة اليومية. إذ لم يعد هناك إقامة تحت الأرض مثلاً، إنما منازل من الحجر المنحوت تضاء بمصابيح الليتش (LLITCH) وكذلك الأثاث أصبح معروفاً، والفلاح لم يعد ينام على البسط أو اللّباد بل على السجاد ذي الزئبر الصوفي الوثير والأغطية الصوفية (الحرامات) والفرش التي تغطيها الشول والشراشف.

ويمكن أن تشاهد في بيت الكردي العصري (المذياع) وأسرّة مطعّمة بالنكل، خزائن وجوارير وساعة حائط. إلا أن الملكية تظل تخص الجمعية التعاونية. ومن حيث الزراعة، تفلح مزارع الجمعية التعاونية بالجرار والآلات الحديثة عوضاً عن المحراث وعربة المزرعة فيما مضى، وهكذا تكون جميع أشكال الحياة الاجتماعية قد تغيرت تماماً بالتنظيم الجماعي للزراعة وتربية المواشي، ونأخذ مثالاً على ذلك قرية رالكيس (RALKIS) بأرمينيا السوفيتية حيث أُنشئت مزرعة كيروف (KIROV) التعاونية عام ١٩٢٩م، وهي تتألف من عدة مئات من المنازل يسكنها ٣٥٠ نسمة ثلاثون منهم أعضاء في الحزب. يوجد في القرية مقشدة لتصنيع الحليب واللبن المصفّى. نادي ومدرسة ثانوية وأربع مكتبات عامة، ومستشفى مؤلف من ١٥ سريراً وطبيبين واحد منهما كردي. المزرعة تملك

---

(١) اليزيديَّة: عقيدة تقوم في الأساس على الغلو في يزيد بن معاوية، وعلى تقديس الشَّيطان وتحريم التعليم، يقدِّسون في العراق مقاماً باسم الشيخ عدي، ولهم كتاب ديني يسمى الجلوة، (النَّاشر).

١٥٠٠ رأس غنم، ٤٠٠ بقرة، وتغطي أرضاً مساحتها ٦٠٠ هكتار منها ٥٠٠ هكتار للمحاصيل الزراعية و ١٠٠ هكتار الباقية للمراعي، ولها ٣ جرارات وحصادتان و٣ شاحنات للنقل. وهكذا يتبين لنا مدى ما وصلت إليه الظروف الاجتماعية التي أصبح الأكراد يعيشونها هناك.

يمكن القول: إن المرأة الكردية تعمل على قدمها من الساعة الخامسة صباحاً حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً، فجميع شغل البيت المرهق يقع على عاتقها وحدها بالإضافة إلى حلب الأغنام وصنع الزبدة والجبنة (كما أشرنا سابقاً) وهي مسؤولة عن تحضير الخبز، العجين يصنع من الطحين يضاف إليه الماء والملح ولكن من دون خميرة، يعجن على حجر مسطح ويدرج بالشوبك الخشبي، ثم يوضع على ما يشبه الوسادة ويلطخ داخل الفرن الذي يشبه الجرة أو على صفيحة محدبة من الحديد (صاج) (SAC) إذا كانت الرغبة في تحضير الخبز الرقيق المشروح وبعد إنجاز العملية تحفظ في سلّة كبيرة، وكذلك من مسؤولية المرأة نقل الماء من بئر القرية الذي يبعد أحياناً مسافة نصف ساعة سيراً على الأقدام، وعليها أيضاً تأمين المحروقات التي تتألف من جمع الأغصان اليابسة أو من روث البقر على شكل أقراص تلطخ على جدران المنازل لتجفّفها الشمس. ومن البديهي أن يكون الطبخ من اختصاص المرأة أيضاً.

الصحن الرئيسي هو الرز عند الغني، والبرغل (SAVAR) لدى الآخرين، وهناك أيضاً الخضار، باذنجان، بندورة إلخ. حسب الموسم، وأحياناً ومن أجل الضيوف يقدم لحم الضأن المشوي بالأسياخ، وكذلك الفواكه ولا سيما العنب والبطيخ الأصفر، ويقدم قطعاً صغيرة. أما للشراب فهناك الماء، ولكن غالباً وبكثرة الشاي المحلّى، واللبن الرائب وخصوصاً الحاصل بعد استخراج الزبدة وهو (الشنينة DEW) المنعشة جداً.

الفنون والحرف

في معظم المناطق الكردية ينتشر مغزل المرأة في كل مكان تقريباً. فبمجرد إنجاز جميع الأعمال الأخرى، يأخذ المغزل دوره بالدوران في أيدي النسوة الماهرات، كما يتقن بعضهن الحياكة على النّول. وهناك نوعان من الأنوال، الأول عمودي يشبه الشكل الأسطوري، ومكانه في بيت المؤونة ويتألف من عمودين (KELEKE) طول كل منهما $1\frac{3}{4}$ يرد وقضيبين مستعرضين مثبّتين بالعمودين، أو أسطوانتين. إحداهن تسمى (سردار SERDAR) وهي في الأعلى والأخرى (جردار JERDAR) وهي في الأسفل السّداة (PO) تثبت إلى ذينك القضيبين بمسافة ٣ يردات فيما بينهما. وسداة الخيط تكون قد صُنعت من قبل النسوة في فناء الدار.. وبهذه الطريقة لا يستلزم وجود المكوك لحبك الخيوط باللُّحمه إنما هناك إبرة طويلة بسيطة. أما اللُّحمه فتمشط بمشط حديدي لإحداث الزئبر ويسمى (KELKIT) يربط برأس مقبض خشبي، وهذا النوع يستعمل لصنع أغطية الفراش التي تكون سداتها من الصوف واللحمة من شعر الماعز.

النّول الأفقي هو ذو الدوسات المختلفة ويقوم على الأرض حيث تتدلى رجلي الحائك في فجوة محفورة في الأرض، وهذا النوع يبدو أكثر تعقيداً من النوع الآخر، وتستعمل الأمشاط (SENE) على اختلاف أنواعها من أدق الأنواع وأجودها. تشتبك اللُحمة بالسّداة بواسطة المكوك (MEKO) وهو عبارة عن بكرة حديدية (LÛLE) يمر عليه خيط الصوف إذ يمكن حياكة أكياس الخيش (KERARA) على هذا النول تماماً كما تحاك أغلظ أنواع الألبسة. وفي هذه الحالة ينفث الخيط بمحلول الكلس. والرسومات تكون متنوعة والألوان بمجموعها تكون زاهية وبرّاقة، ويتخلل مواضع التزيين الحيوانات والأشجار بأساليب كثيرة تارة وقليلة تارة أخرى وبأشكال مجسمة. وغالباً ما

تظهر الأشجار والعناكب فيها. وسجاجيد الصلاة (SECADE) التي تصنع في سنّا (SINNA) بفارس وهي شهيرة جداً.

بعض الاختصاصيون يصنع مزهريات من الفخار غير المصقول من أجل البيع. فتُهيأ على شكل الجرار بهيئة الزجاجة حيث يمزج التراب الناعم بلوالب فخارية ومن دون استعمال دولاب الخزف. ثم تجفف بالشمس وتُحضر بعدئذ دزينة (١٢ وحدة) بشكل دائرة وتغطى بأقراص من (الجلّة) روث البقر المجفف وتشوى لمدة ٣ ساعات.

إذا كانت ظروف الماضي قد جعلت الحِرف اليدوية تقتصر على أيدي اليهود والأرمن. فهي لم تستمر طويلاً وذلك منذ أن اختفت آثار الأرمن من كردستان التركية. وبعد مغادرة اليهود العراق عام ١٩٤٨م، أصبح الأكراد منذ ذلك الوقت يصنعون اللّباد الذي لم يكن من أجل تغطية أرض الغرف فحسب بل في صناعة الصداري والقبعات (طواقي الرأس) أيضاً التي تلبس تحت العمامة، وكذلك لم يكن الأكراد يجهلون فنون صناعة الجلد، المعادن، والأخشاب. فقد كانوا بارعين في صناعة السروج وصياغة الذهب والفضة، ومهرة في تزيين المعادن كمقابض الخناجر وبكلات الأحزمة، ويصنعون أيضاً الأقداح والنّراجيل، كما يجب أن نذكر بأن تطعيم النحاس هو من اختصاص الأكراد منذ القدم، وقد نقل هذا الفن إلى أوربا عن طريق حرفيين من الشرق. وفي فينيسيا كانت توجد مخازن خاصة لهذه الصناعة وقد ظهر على بعض القطع التي صنعت هناك في القرن الخامس عشر توقيع يشير إلى صانعها (محمد الكردي)، ومن زمن ليس ببعيد كان في السليمانية وحدها أكثر من ١٥٠ خبيراً من خبراء الأسلحة الذين كانوا يزودون القبائل على كلا جانبي الحدود ببنادق المارتيني، وكان بعضهم يستغلون أوقات الشتاء البطيئة بصنع الغلايين مشارب السكائر من نوع خاص من الفخار. بينما يقوم بعضهم الآخر بتشذيب سوق أشجار الكرز البرية ويستخرجون منها قطعاً تتلاءم وصنع بعض المواد منها الملاعق الخشبية المنقوشة مثلاً.

الفصل الرابع

النظام الاجتماعي

الأكراد الذين يحترفون تربية الماشية ورعيها في المراعي الجبلية. الفلاحون القائمون على أعمالهم بكل جدّ ونشاط، رجال الأعمال المهرة في المدن؛ أي: الراعي والفلاح والتاجر، تراهم جميعاً لديهم نزعة الارتباط بعضهم ببعض، من خلال المصاهرة والقربى التي تبدو بوضوح، إذ إن معظمهم يرجع لأصل قبلي مشترك. هذا الشكل القديم من التنظيم الاجتماعي للرحّل ونصف الحضر يسير اليوم نحو العدم والاضمحلال: وذلك إما بسبب الضغط الذي تمارسه الحكومات عليهم كما هي الحال في تركية والاتحاد السوفييتي، أو بسبب التطورات الحاصلة من تأثير ظروف الحياة المدنية الحديثة التي لا يمكن تجنبها. فكثير من التطورات يمكن فهمها اليوم من خلال البيئة. وعصيان الأكراد المسلح حديثاً هو خير دليل على ذلك.

القبيلة الكردية

من الصعب جداً ذكر وتعداد جميع القبائل الكردية. إنما علينا أن نشير على الأقل إلى أولئك الذين لعبوا دوراً هاماً ولا يزالون يحتفظون بشهرة واسعة. في

العـراق تقيـم القبـائل التاليـة: بيجـدن (PIJDEN) أكـو (AKO)، خوشـنا (KHOSHNAW) وهمـاوند (HAMAWEND) وهـيركي (HERKI) وليبـاني (LIBANI) إلخ..

في إيران: شيكاك (SHIKAK) والبلبـاس (BILBAS) وموكـري (MUKRI) وأردلان (ARDALAN) والجـاف (JAF) والكيلهـور (KILHUR) (عـدا عـن قبـائل اللـور (LUR) والباختيـاني (BAKATIYANI) الذيـن لا يعـدّون أكـراداً أصليين)..

في تركيـة: هكـاري (HAKKARI) ومـارتوش (MARTUSHE) والزركـان (ZIRIKAN) والجابالي (JABALI) والحيدران (HEYDERAN) إلخ..

في سـورية: الـبرازي (BARAZI) والمللـي (MILLI) ومـيران (MIRAN) ودقـوري (DAKURI) وهفيركـان (HAVERKAN) ومرسـيني (MERSINI) والكيكان (KIKAN).

وبابان (BABAN) في العـراق وبدرخـان (BEDIR - KHAN) في تركيـة لا يعدّان في الحقيقة من القبائل. إنما هما عائلتـا أمـراء تحكـم عـدداً مـن القبـائل في المنطقة نفسها. البرزاني المعروف كان قد شكل قبيلة منذ عهد قريب تتألف مـن عناصر مختلفة من القبائل التي تعترف بالسلطة الدينيـة والسياسـية لمشـايخ بـرزان المقيمين على نهر الزاب الكبير.

تختلف القبائل الجبلية بصورة عامة بعضها عن بعض، وتختلف القبائل الكردية بصورة خاصة بعضها عن بعض بثلاث ميزات رئيسية: فعالمهم الصغير ذو نزعـة شرقية بجوهره وبذلك فقد تأسست أشكاله على نحـو دفـاعي بسـبب الظـروف القائمة، وقد بُني قانون القبيلة على أسـاس الأعـراف والتقـاليد بشـكل واضـح، لذلك فهو وطيد ومحترم، وبالاختصار فإن جماعة كهذه الجماعة لا بـد أن يتولـد

عندها شعور قوي بتفوقها وشموخها على جميع القبائل المحيطة بها. هذه العصبية والتفاخر بالقبيلة، هو بلا شك مصدر القوة. وهي أيضاً كما يمكن تصورها، من الأسباب الإيجابية لتجنّب سوء التفاهم والتصادم مع الشعوب المجاورة. أو مع سلطات الدولة الرئيسية. يحاول بعضهم تصوير القبيلة الكردية بأنها اتساع بالعائلة وأشبه ما تكون بما تحدثت عنه مراجع التوراة عن القبائل الإسرائيلية، أو ربما هي الحالة نفسها عادة عند العرب حيث تترابط القرابة (بالنسب NASEB) الذي يشكل العمود الفقري للقبيلة. بينما لدى الأكراد يبقى الارتباط بالأرض، زد على ذلك أنه في كردستان وبين المواطنين الريفيين يمكن التمييز بين ثلاثة نماذج مختلفة من التنظيم الاقتصادي والاجتماعي:

١ – أن تكون القبيلة اعتيادياً وعرفاً تحت إمرة آغا يقرُّ أعضاؤها بأنهم من أصل مشترك واحد وتقسم ضمن شرائح تيرا (TIRA).

٢ – قبيلة يحكمها زعيم إقطاعي من أنساب مختلفة، كما هي الحال في قبائل ديزاي (DIZAÏ) وخوشناو (KHOSHNOW) والجاف (JAF).

٣ – الزعماء الدينيون الذين تتآلف قواهم المدنية بالسلطة الدينية كما هو لدى شيوخ بارزنجا (BARZINJA)، بالسليمانية ومشايخ برزان (BARZAN) أو شمس الدين (SHEMSDIN).

ثم إن هناك العشيرة (ASÎRET) وتتألف من عدة فئات (BIR)، تتكوّن من جماعات مختلفة تدعى بافيك (BAVIK) وتقيم في المكان نفسه حيث يشكل عدد من البيوت أو الأسر (MAL) كل عشيرة يرأسها كبيرها (MEZIN) أو حكيمها (MAKÛL) يرجع في أموره إلى شيخ أو اثنين من ذوي اللّحى البيضاء (RêSPÎ). وقديماً كان زعيم القبيلة يحمل لقب بك (BEG) أو (KHAN) أصبح اليوم يسمى آغا (AÇHA) وهو لقب يعود إلى أواخر القرن السابع عشر، وقد كان معروفاً بشكل ما، بأن مثل هذه القبيلة يمكن أن تتفرّق من جرّاء مصيبة

حلّت بها، كمعركة أو وباء إلخ.. بينما تنمو قبائل أخرى وتقوى وتتطور بفضل بأس وهيبة زعيمها الذي يحكمها، كما يشاهد حالياً، وهامٌّ جداً أن نشير إلى أنه باعتبار أن عناصر القبيلة مقيمة وثابتة كان لا بد وأن يظهر فيها في أحوال كثيرة عدد من المنحرفين الخارجين عن القانون جاؤوا ليلجؤوا إلى جماعة تساعدهم على تعويض ما فقدوه من ارتباطهم القبلي. مثل هذه الحالة يمكن أن تكون بسبب اقتراف جريمة أدّت إلى طرد مقترفها من قبيلة وطورد للثأر منه، فأصبح معزولاً يعاني خطر فقد حياته فلم يعد يجد من يحميه. وقد أشير في الفصول السابقة إلى أنه ليس هناك من تساوٍ بين أفراد القبيلة بالمنزلة، تماماً كما هي الحال لدى الآشوريين. كل رجال القبيلة الذين يُعدون من صلب العشيرة (ASHÎRET) هم المتميزون بينما يُعَدّ الآخرون دونهم مستوى ويدعون العوام (RAYET)، وهم يشبهون لحد ما الأرقاء والعبيد في القرون الوسطى. مثل هؤلاء لا يشتركون بالحروب القبلية بل يقتصر عملهم على خدمة أسيادهم فقط. هناك تقسيمات صغيرة أيضاً في القبيلة حسبما جاء عن بعض المراقبين.

١ - النبلاء (TORIN) وهم عائلات الزعماء أو الأغوات.

٢ - العوام أو الرعية (RAYET) وهم الذين يقومون بالخدمة والعمل.

٣ - حرس الزعيم وهم مسلحون دائماً ويكلفون بأعمال قاسية خصوصية.

٤ - وأخيراً الزعماء الدينيون، المشايخ أو الملالي الذين يرد ذكرهم فيما بعد. يشكلون عنصراً مألوفاً في التنازع على السلطة في القبيلة.

زعيم القبيلة، امتيازاته ومنافسوه

سواء كان السؤال عن اتحاد القبائل كما يتبيّن للمرء بسبب تاريخي أو استغلال قبيلة بذاتها فرضاً، وفي جميع الأحوال لا بد من وجود زعيم ذي سلطة مطلقة على رأس كل من هذه المجموعات لا يُرّد أمره ولا يُنقض.

١ً - أرومات الزعيم:

إن الوسائل التي يكتسب الزعيم بوساطتها القوة تختلف حسب الظروف، إذ يختلف الأمر من قبيلة لأخرى ومواكبته لفترة معيّنة. الخلافة يمكن أن تُحدّد بالوراثة، بالانتخاب من القبيلة أو من النبلاء المقربين من الزعيم، بتعيين من الحكومة أو غالباً جداً تكون من مصدر القوة، إلا أن الخلافة بالبكورة (الولد البكر) تلعب الدور الرئيسي. أي في حال موت الأب الابن الأكبر يخلفه. أما إذا ظهر بأن ذلك الابن غير كفوء أو من دون سطوة في هذه الحالة يفترض اعتبار الوريث غير صالح لهذا المركز. عندها تنعقد جماعة من الرجال البارزين في القبيلة ويبدأ التداول والتشاور بشأن الزعيم المذكور، وفي حال الوصول إلى قرار عزله، يوضع أمامه زوج من الأحذية، وتنتظر الجماعة حتى ينتعلها ويترك الغرفة. وهذا يكون بمثابة العلامة التي قبل بها انتقال الخلافة لمرشح آخر، أما أرضه وأملاكه فتبقى له. ويمكن أن يطرأ أيضاً بأن الابن الأكبر لا يرغب بأن يخلف أباه في مركزه، ويفضل الحياة الدينية على مسؤوليات حكم القبيلة. كما أنه ليس من الغريب تماماً أن نرى أن الابن الأصغر يسعى ليحل محل أخيه، وهذا ما حدث لبدرخان الكبير الذي وجد أخاه الأكبر رجل دين وتقوى فحلّ محلّه، أما إذا رفض الآخر أن يتخلى عن حقّه، فيعمد لإيجاد وسيلة تخفيه وتزيله بكل سهولة، وهذا ما كان يدفع الزعيم الجديد ليكون بحالة استنفار دائم محيطاً نفسه بالحرس المسلّح اليقظ خوفاً من أن يغتاله أخوه الأكبر المخلوع.

((الاغتيال السياسي للخلف شائع بين اليزيديين)) أما إذا تمكن الزعيم الجديد من كسب محبة واحترام الآخرين، فيصفح عنه وعن الوسائل التي اتبعها للفوز بالسلطة، وقد يحدث أن يعتقد الولد بأنه قد سُلب حقه بالإرث. فيغادر القبيلة مع أنصاره ليجد لنفسه قبيلة أخرى في مكان آخر. كما أن المرأة لها دور في هذا المضمار فعند موت زوجها أو فقده تأخذ مكانه في إمرة القبيلة وحتى في ساحة المعارك أيضاً.

الاختيار الذي يقوم به عدد من زعماء قبائل مختلفة كان معروفاً في أحوال كثيرة حينما لا ينال الوريث تعاطف ورغبة الأكثرية، حينئذ يُنتخب المرشح الأكثر شعبية وتقديراً وتبصّراً وحكمة، ويمكن أن يحصل الاختيار بدافع الصدفة والحظ العجيب، فمثلاً: إذا حط طائر على رأس مرشح ما عرَضاً. يعدُّ حينئذ اختياراً من الله سبحانه وتعالى. وأمثال هذه الحوادث تتناولها بعض الحكايات الشعبية المأثورة في أمثلة وشواهد كثيرة بأكثر أو أقل دقة. عندما يستمد الزعيم سلطته من الحكومة التي عيّنته، كما كان يحدث أحياناً لدى الأتراك والإيرانيين يكون اختيار الزعيم الجديد من بين عائلة الزعيم الموروث الذي عليه أن يحيط نفسه برجال الدرك لفرض هيبته وطاعته وتنفيذ أوامره.

٢ً - امتيازات وحقوق الزعيم:

في أزمنة الإقطاع كانت صلاحيات الزعيم تعتمد على كونه تابعاً للحكومة أو ممثلاً للقبيلة وتقاليدها. فإذا كان تابعاً عليه أن يجنّد الجند ويجهز بعضهم على نفقته الخاصة. هذا إذا كان إقطاعه فقيراً (TIMER) أما إذا كان إقطاعه غنياً (ZIAMET) وفي أيام الحرب خاصة ويزيد ريعه عن (٢٠,٠٠٠ أسبر (ASPRES) وهي عملة تركية قديمة = $\frac{١}{١٢٠}$ من القرش) عندها يترتب عليه عبء أكبر، فإذا عين السلطان (أي الحكومة) جابي للضرائب (TAHSILDAR) يعين الخان (KHAN) عندئذ محصل للرسوم الجمركية والضرائب (BACDAR). من أولويات رئيس القبيلة أن يوطّد العدل ويقيم الخدمات الأساسية في القبيلة من حماية ومساعدة، وعلى عاتقه تقع مهمة الضيافة كالطعام والمأوى للضيوف، وتحمّل المصاريف والنفقات الباهظة حتى ينال السمعة الطيبة والشرف والأصالة.

أما الآن بما أن الحكومات الحديثة قد بسطت سلطاتها في كل مكان فقد تقلصت معها صلاحيات الزعيم وسلطاته بشكل ملحوظ، الآن ومن وجه آخر، بما أن الخدمة العسكرية أصبحت إلزامية. توجب على الزعيم جمع المجندين، تلك العملية البغيضة التي يمقتها الجميع ذلك لأن الفرد الكردي بطبعه محباً للقتال ولكنه بالوقت نفسه نراه يكره الخدمة العسكرية بشدة، وإذا كان لا بد منها فيجب أن يكون حرّاً ومتطوعاً بإرادته دون أي إكراه، لذلك كانت تتواتر حالات كثيرة من التمرد والعصيان والفرار من الجندية، يقابلها أعمال انتزاع واغتصاب وتعسّف مرهقة وجائرة كثيرة من الحكومة التركية حتى عهد قريب، كما جاء في أخبار الكاتب الكردي السوفيتي أرب شامو (EREB-CHAMO) وهو يسترجع أيام شبابه حينما كان راعياً للأغنام قبل حرب ١٩١٤م العالمية حيث كانت تفرض الضرائب خرج (XERC) التي يسميها، الأتراك بالضرائب الأميرية (PEPÇÛR) كضريبة المواشي (OLAM) العمل الإجباري لدى الحكومة (BÊÇAR) وضرائب إجبارية أخرى (SERÊ PEZ) و (SERÊ DÊWÊRÊ) وهي رسم على كل رأس ماشية كبيراً كان أم صغيراً، ثم إن هناك (DISKÎRASI) تكاليف استضافة الموظفين أو الجنود المارين بالقرية، إذ يتوجب إيواؤهم وإطعامهم على حساب القرية. هذه الطريقة التركية الوضيعة بالعيش على حساب الأهالي بالإكراه لا تزال قائمة في كثير من المناطق بالعراق أيضاً حيث تتفاقم الاضطرابات باستمرار.

ولكن من حيث المبدأ لم يطل الأمر كثيراً فقد أُلزم زعماء القبائل بجمع الضرائب. وهذا لا يعني بأن رجال القبائل والقرويين معفون من الضرائب المفروضة التي لا يزالون يدفعونها حتى يومنا هذا إلى أغواتهم أو مالكي الأراضي الذين لم يتوقفوا عن ابتزاز الأموال من شعبهم بحجة الخدمات المبذولة في سبيل نفعهم. هذه الضرائب كانت تحمل اسم الـ (EXATÎ) إخاتي أو

ضرائب الآغا. الضريبة الرئيسية كانت تأتي من الزكاة (ZEKAT) وهي جباية العشر على الحنطة والشعير، ومبلغ آخر يُجبى من الـ (MERAN) وتعني رأساً واحداً عن كل ٥٠ خروف أو ما يعادل قيمته نقداً. ثم هناك البوشان (PÛSAN) أو ضريبة المراعي، هذا عدا عن المدفوعات الكثيرة التي تتوجب على محصول المزرعة. مثل الـ (RÛNAN) على الزبدة والـ (HELKAN) على البيض والـ (HIRMEYAN) على الكمثرى إلخ...

هذا بصرف النظر عن (MECÊWER) الميجور وهي ضريبة أجور خدم الآغا. يضاف إلى هذه الضريبة ضريبة أخرى تسمى (SÛRAN شوران) ضريبة الزواج والـ (PÎTEK) وهي ضريبة مصاريف عرس أحد أقرباء الآغا أو تكاليف احتفالات المراسم والطقوس، ويتوج هذا كلّه خدمات إجبارية أخرى مختلفة تسمى (BÊÇAR) أو (HEREWEZ) يعني يوم أو يومين من الشغل الإلزامي بالحراثة (HEREWEZÊ LOT) أو بالحصاد وبالبذار (HERWEZÊ DÊRÛ ÛÇÊRE) وكذلك إطعام الماشية والتحطيب الإجباري (HEREWEZÊ ÇILA ÛDAR).

لا تزال مثل هذه الضرائب سارية في الجنوب أو في كردستان العراقية إلى الآن كما يشير إليها س. ج. إدمون (C. J. EDMONDS). كما كانت مفروضة في تركية حتى الإلغاء المتطرف لنظام العشائر. مثالٌ على ذلك آغا منطقة (JELIAN) تراه يحصل على المال من كل صوب. فعندما يحل الربيع تصبح كل قرية تابعة له مدينة لتقدم إليه (ANI) أي رأس أو رأسين من الغنم حسب وضعها المادي، وفي الخريف (KÊSIM) أي حمل أو حملين من مربّى العنب، وكذلك من الرز والحنطة. وتتوجب الهدايا في مناسبات الأعياد أيضاً (ÊDANI) حيث تُقتطع من المحاصيل الزراعية والحيوانية. ويحتفظ الآغا لنفسه أيضاً بحق تأجير الأراضي قسراً فيستوفي عن كل كمية (TOF) من المزارع

المشجرة التي تتألف من (٣٠٠ إلى ٥٠٠ شجرة جوز مبلغاً (SPINDARÎ) يصل إلى الخمس مجيديات. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تقوم أعباء مرهقة إضافية يجبيها مندوبو الدولة كضريبة المواشي التي يساعدهم الآغا في تحصيلها وذلك بالإحصاء الدقيق في عدد الحيوانات. إزاء هذا يستوفي الآغا من الفلاحين مبالغ معينة تسمى دوفيكي جمجوري (DÛVIKÊ ÇEMCÛRÊ) وذلك لحسن إدارته. تجار الترانزيت هم أيضاً ملزمين بدفع ضريبة عن كل رأس غنم وكل ضرف سمن وكل جزّة صوف مباعة.

وكذلك الرحّل المارة يتوجب عليهم أن يدفعوا ضريبة الحظيرة. كان محمود بك بن إبراهيم باشا المللي المشهور لا يزال يستوفي من رعيته ضريبة عن بيع المنتجات والمحاصيل حتى عام ١٩٣٤م وتتمثل بـ ١٠ قروش عن كل خروف يباع و ٥ قروش عن كل جزّة صوف و ٥ قروش عن كل أوقة من السمن و ٧ مجيديات عن كل جمل. تصبّ هذه الضرائب بمجموعها في جيب الزعيم: لذلك كان دائماً وقعها ثقيل ومرهق جداً. ومنها ما كان يُؤدى بشكل مستور أحياناً إذ لم تكن حسب العرف دائماً مكشوفة. وإلى تلك الرسوم والضرائب غير المباشرة التي تدفع للآغا يجب أن تضاف ضرائب الزعماء الدينيين. فقد كان شيخ القرية (الملاّ) يضن بحقه أن يضيع من المحاصيل الزراعية ومناسبات الأعياد. أضف إلى هذا كله الدراويش الجوالين موفتخوار (MUFTXWAR) أو الطفيليين يسعون وراء حصتهم من الكعك مثلاً. لا يلتزم أحد من القبيلة أن يدفع للآغا ضريبة احتفال بزواج أو زيارته وإذا حدثت فتسمى حينئذ (هدية BAHSIS, PÊSHÊS) إذ لا يجوز مطلقاً زيارة الآغا بيد فارغة.

المهمة الوحيدة التي لا تزال ترتبط بالرئيس هي (فض الخلاف بالطريقة العشائرية)، وهي إن لم تكنِ رسمية فهي على الأقل من الأعراف والتقاليد، أو بتكليف من القضاء إذا جاز التعبير، فعوضاً عن المثول أمام القضاء وقضاة الدولة

(الحاكم HAKIM) أو حتى قضاة الشرع الدينيين (QAZI, QADI) يستحسن أن يحسم الأمر ودياً أمام زعيم القبيلة وفقاً لشريعة العرف والتقليد (IRF). ومن الطبيعي ألاّ تكون تلك الخدمة مجانية، فقد أوجب لكل (جلسة DAWA) ثمن يدفع (HAGÊ QAZILÎYÊ) بالإضافة إلى الرسوم (CERIME أو DIRAW) تتراوح بين الدرهم والعشرة دنانير لغسل الإهانات المرتكبة وحسم المخاصمات. من أجل السرقة (DIZI) تفرض الغرامات كما تفرض في جرائم القتل (KUTSI) وفي حوادث الاعتداء والضرب (BRINDAR) وتجدر الإشارة إلى أنه لدى محمود بك تعرفة كاملة شاملة بهذا الصدد منها ما يلي: ١٠ ليرات ذهبية لجزية القتل تصل إلى ٥٠ ليرة في القضية الخطيرة و ١٠ ليرات ذهبية من أجل خطيفة امرأة يدفعها الخاطف ومثلها من والد الفتاة، وفي حال سرقة الماشية يجب أن تعاد كمية معادلة للماشية المسروقة لصاحبها يضاف إليها ٤ رؤوس ماشية حصة الزعيم ويكتفى باثنتين فقط إذا كانت السرقة من الطيور والدواجن. قام بعض الزعماء في القرن التاسع عشر بإشاعة القسوة والحزم لقمع أعمال اللصوصية في منطقته والقضاء على الجريمة أينما كانت. وقد تمثلت تلك المبادرة بميركور (MIRKOR) زعيم راوندوز والأمير بدرخان (BEDIR KHAN) في الجزيرة.

يمارس الحكم في جريمة القتل وفقاً لقاعدة الأخذ بالثأر (TOLA) إذ يحق لأقرباء الضحية أن ينتقموا لأنفسهم من القاتل الذي يجب أن يطرد بالوقت نفسه عن قبيلته لمدة خمس سنوات أو أكثر، فإذا قتله طالبوه خلال تلك المدة، تطوى القضية. وإذا لم يقتل فباستطاعته العودة إلى قبيلته بعد انتهاء مدة طرده وعليه أن يتبع تعليمات كبار القبيلة الحكيمة التي يؤيدها الرئيس، ولكن حق الانتقام يبقى ساري المفعول. كما أنه يمكن اللجوء إلى اتفاق بدفع دية الدم، الدفع الذي له مزية توقف إسالة الدماء، إذ إن الاعتقاد السائد بأن الدم لا

يتوقف عن النزف حتى يثأر له، إلا أن مثل هذه المصالحات الودية لا تلقى القبول كثيراً لدى الأكراد، الذين يفضلون طعنة خنجر أو إصابة عيار ناري، وبالرغم من ذلك إذا تقدم الجاني بنفسه من أخصامه ومعه كفنه وسيفه، هذا يعني أنه رمى نفسه تحت رحمة أصحاب الثأر، وهذه تسوية لا يمكن رفضها.

٣ً - منافسو الزعيم وأنصاره:

بدأت فعالية قوة الزعيم وسطوته تتقلص باستمرار في هذه الأيام، فقد أصبحت سلطته عرضة للمناقشة والجدل، حتى أنها في بعض الأحيان تقاوم بصورة مكشوفة، وغالباً من قبل منافسيه الذين لا يتحلّون بالمشاعر القبلية. مثل هؤلاء المنافسين. هم بطبيعة الحال من الأشخاص البارزين المقيمين على أرضهم وأملاكهم يمتلكون القرى والمزارع، يحق لهم أن يقوموا مقام القضاة في القبائل ومحكّمين ووسطاء لدى الدولة بقدر ما هم مستثمرون ومرابون ويقطنون عادة في المدن، يقصدهم ذوو الحاجة في طلب المساعدات والقروض ويسعون إليهم أكثر من زعيم القبيلة الذي يكون غالباً أقل مالاً وربما أقل ثقافة. في العراق نجح بعض زعماء القبائل بمحاولتهم لدى الدولة تثبيت أملاك العائلة ومراعي القبيلة الموروثة حيث أصبحوا مالكيها حكماً، كما لجأ رؤساء القبائل في إيران إلى الأسلوب نفسه تماماً وخاصة أُسر الأمراء فأصبحوا من كبار الملاّكين وارتبطوا بالبورجوازية المتطرفة وانخرطوا بالأعمال التجارية والمشاريع الكبيرة.

ومهما يكن من أمر إذا كان أصحاب الأراضي يوازون بثقلهم السلطة المعنوية لزعيم القبيلة. فهم بدورهم لم يكونوا يبادروا حتى إلى معالجة حالة الفقر التي يعانيها الفلاح الذي أرهق من شراسة طغيان الآغا وجوره، فقد كتب عليه أن يعاني ما يعانيه أولئك الذين يعملون عند بعض الإقطاعيين، فالآغا مُستعبِد ومتسلّط في جميع الأحوال سواءً تولى أمر الأرض المزروعة أو الأرض المعدة

للرعي، ومهما كانت النتيجة فالمزارع الصغير يجد نفسه صفر اليدين عند نهاية الموسم ومثقلاً بالديون، على أية حال فإن صاحب الأرض يأخذ من الفلاح الكردي (الذي يتميز وضعه في هذه الحالة عن وضع الفلاح العربي بشكل عام) نصف المحصول الصيفي للتبغ والقطن وعشر المحاصيل الشتوية من الحنطة والشعير عدا عن الضرائب التي تدفع كالتالي: ٧,٥٪ للوكيل (SERKAL) و١٠٪ للدولة، ومبالغ أخرى متفرقة تدفع من وقت لآخر إلى حاشية وأتباع مالك الأرض، ومن الطبيعي أنه تحت وطأة مثل هذا الجور أن تتكرر ثورات الفلاحين أضف إلى ذلك هجرة العمال على نطاق واسع الذين كان دخلهم الزهيد لا يزيد عمّا يعادل ١ - ٢دولار شهرياً.

في المناطق الكردية بتركية ترى مساحات واسعة من الأراضي المملوكة لا تزال تحت سيطرة أصحابها. وفي إيران في كردستان كان الشاه قد عمد إلى توزيع أملاكه الخاصة من الأراضي والأراضي العائدة للتاج الإيراني على الفلاحين. وفي العراق أعلن قاسم[1] عن قانون الإصلاح الزراعي الذي واجه صعوبة فائقة بتنفيذه بسبب الوضعية الإقطاعية الصعبة المعقدة لأصحاب الأراضي حتى أنه حاول إعادة ما اقتطعه لصالح أصحابها. وحدث في أيام عصيان الأكراد المسلّح في العراق خلال ١٩٦١ - ١٩٦٤م أن أراد الحزب الديمقراطي الكردي أن يهدد بمصادرة الأراضي وإعادة توزيعها، إلا أنه كان من الصعب شنّ حرب مواجهة مع الدولة لذلك هدد بتنظيم اشتراكي أيّده بعضهم وعارضه الآخرون. وفيما يتعلق بإبراز القضية الكردية فإنه لم ينجز شيء منها وبقي مصيرها معلقاً، وكذلك كان الأكثر إثارة هو أن نلاحظ أن الخطوة الأولى الأساسية لأكراد سورية: هي كما يلي. فمثلاً وقبل أن تطرأ أية فكرة عن الإصلاح الزراعي لدى الحكومات عمد الملاّك الكبير حسن إيبش بعد الحرب

(١) عبد الكريم قاسم: ١٩١٤ - ١٩٦٣م، وُلِدَ ببغداد، شارك في ثورة ١٩٥٨م التي أطاحت بالبيت المالك بالعراق، قُتل بانقلاب قاده عبد السّلام عارف، (النّاشر).

العالمية الثانية إلى تجفيف ونضح ٢٤٠٠هكتار من مستنقعات وادي الأعوج التي كان قد اشتراها بثمن زهيد في قرية الهيجانة التي تبعد حوالي ١٩ ميلاً[1] عن دمشق. لقد خطط لهذه الأملاك بنفسه لكلا النوعين من الأراضي البور والمروية وأسكن فيها ٦٠٠٠عائلة من الفلاحين وأعطاهم ما يقارب ثلثي الأرض بعد إصلاحها من قبله وكانت جميع الأرباح توظف بالمشروع، وهكذا...

المنافس الآخر للزعيم ولا سيما بين الرحّل هو الـ (أوباباشي OBA - BASI) الذي يعمد إلى جمع جمهور صغير يتراوح بين ٢٠ - ٢٥ خيمة ويجتهد في تنظيمهم على ألاّ يقلّ الرحّل عن بضعة آلاف رأس من الماشية، وعلى الأوباباشي أن يستأجر الرعاة بالمال ويختار المراعي وينظم الهجرة الموسمية ويلزم كل مالك أن يدفع حسب حجم قطيعه، أما ما يخصه فلا يدفع عنه شيئاً. وفضلاً عن ذلك فهو يتمتع ببعض الخدمات التي هي من حقه، إذ ينقل متاعه وتنصب خيمته وتدق أوتادها من قبل الآخرين. هذا النوع من الاستثمار الاقتصادي استرعى انتباهاً خاصاً من قبل المؤلفين السوفييت ذوي الأصل التركي الذين لاحظوا أن هذه البادرة قد نالت من سلطة زعماء القبائل السياسية إلى حدٍ بعيد.

وأخيراً فإن الرؤساء الدينيين ولا سيما أولئك الذين ينتمون إلى جمعية دينية. فهم غالباً ما ينجحون في شل سلطة زعيم القبيلة الذي يزعجه جداً إبصار واحد منهم، وهو يراه يقيم في قبيلته أو قريته ويكون بمثابة مصدر إرباك وإزعاج دائم، لأن ذلك الشيخ لا يلبث تحت ستار الدين أن ينتحل لنفسه دوراً سياسياً حتى ولو لم يكن ذلك دائماً، من أجل المصلحة العامة. ((سوف تكون لدينا فسحة لاحقة لهذا الموضوع وإعطاء صورة عن أهمية أولئك الزعماء الدينيين بين الأكراد)).

---

(١) الميل = ١٦٠٨م، أو ١,٦كم، (الناشر).

دور الانحطاط القبلي

إذا كان لا يزال هناك قبائل باقية بزعمائها معترف بها رسمياً وإلى درجة أنها تستأثر برعاية الحكومتين العراقية والإيرانية، فهي على عكس ذلك في تركيا وأرمينيا السوفيتية حيث قُمعت جميع السلطات القبلية بشكل وحشي في أكثر الأماكن ولا شك بأن إجراءات مماثلة حدثت لدى السوفييت. وقد ذكر أفدال (AVDAL) تلك الأعمال الهمجية بتأثر بالغ ووضوح، فقد أشار إلى إلغاء أشياء كثيرة من الماضي، إذ لم يعد هناك خدم للشيوخ والكبار (PÎR) مثلاً، ولا خدم للأغوات والبكاوات، فهل انقلبت المفاهيم واتخذت العبودية والرق أشكالاً أخرى متباينة لدى تلك الحكومات؟ فإذا كان قد جرى شنق وقتل أكثر الزعماء والتخلص منهم ومن امتيازاتهم فيجب ألاّ يغرب عن البال أن أولادهم وأحفادهم ما زالوا يرفلون وينبضون بالحياة، كما أنه لا تزال عائلات النبلاء القديمة تتمتع باحترام حقيقي من قبل أهالي بعض المناطق، ولا تزال قيمهم الاجتماعية، معترف بها حتى من قبل الكتاب السوفييت، مثل كوتلوف وفيلشيفسكي (MR. VILTCHEVSKY, MR. KOTLON) ولكن لا بدّ من التساؤل فيما إذا كان لا يزال هناك شعور باللوعة والأسى من ضياع ذلك السلطان القديم الهيمنة؟

الجواب: لم يكن كذلك بكل معنى الكلمة، وإذا كان عليّ أن أصدق ما قاله لي أحد الفتيان الأكراد الناشئين في صيف ١٩٥٨م فالحصيلة تكون بأن القبائل قد فقدت ترابطها وتماسكها الداخلي، مع أن الزعماء ما زالوا يحاولون استعادة نفوذهم وسيطرتهم، ليس على أراضي الإقطاع وأعرافه، بل من خلال خدمات جديدة تشمل الجميع ضمن إطار الاشتراكية. فقد تغيرت الأوضاع وأصبح أبناء الزعماء السابقين محامين وأطباء، وهكذا فقد نذروا أنفسهم لخدمة أتباعهم الأقدمين الذين لا ينسونهم حينما تحين الانتخابات النيابية، وبهذا يظهر نوع من

الأرستقراطية الجديدة التي تبدي تجانساً مع الأفكار الحديثة في سبيل التكوين الاجتماعي، ومن وجهة أخرى، فقد أدركت بوضوح من قبل أحد أكراد بيروت القدامى بأن جميع التزامات القبيلة نحو الآغا جاءت من العصور القديمة التي كان الزعيم أثناءها إذا أراد شيئاً فعليه أن يعمل من أجله كأي شخص آخر، وهكذا فقد تطورت هذه العادات تدريجياً حتى أصبحت على ما هي عليه الآن. و لم يعد بالإمكان حصرها.

كان القصد من ممارسة التمركز في البلاد العربية ولا سيما في العراق وسورية، إضعاف نفوذ وسلطة الزعيم، فقد كان هناك موظفون مدنيّون مسؤولون كانوا من خلال تحقيق العدالة وجمع الضرائب يعملون على مكافحة ذلك التراث. عدا عن برنامج تخطيط وإعلان قانون الإصلاح الزراعي الذي عجل بالتحويل الاشتراكي. أما في إيران، فالارتباطات القبلية كانت لا تزال قائمة ومتينة، إلى جانب هذا كان يبرز أيضاً مشروع استقرار الرحّل وتمركز الإدارة، الذي يشير بكل وضوح إلى انحسار النظام القبلي بالتدريج وقد أصبح مرهوناً بالزمن فقط.

الفصل الخامس

العائلـة

سواءً كان الفرد يعيش مع قبيلته أم منبوذاً منها تماماً، وسواءً كان من الرعـاة الرحّل ويعيش في خيمة في الجبـال أم مقيمـاً في مكـان معيّـن. سـواءً كـان ثابتـاً كبائع في دكّان أم مزارعاً في قرية. حرفي في المدينة أم عاملاً في سد أو في حقـل نفط مثلاً فإنه لا يعيش مطلقاً بمفرده، بل دائماً لديه زوجة وأولاد. وهنـا يتبـادر السؤال التالي: هل هناك أي تشابه بين عائلة الكردي الجبلي وعائلـة البـدوي في السهل؟

هل يمكن مقارنتها من حيث تكوينها بعائلة الفلاح، أو المسـيحي المدنـي، أو الآشوري المجاور، أو الأرمني؟

إذن دعونا ندخل بيت أحد الأكراد حيث ستأخذنا الدهشة والاستحسان.

لا عبث في الحب في كردستان

العائلة الكردية غالباً ما تسلك المنهج الديني الذي يسمو على مجتمعها وعلـى جميع المصادر الاقتصادية. وهذا العامل دون أدنى شـك لـه تأثـيره علـى الشـبان اليافعين حتى قبل الزواج.

قبل كل شيء الأكـراد معظمهـم متزوج ومن الصعب وجـود العـازب في كردستان، ليس فقط تيمّنـاً بـالمثل القـائل لديهـم: ((الرجـل العـازب يظـل نموه ضعيفاً، والفتاة العازبة ترنو دائماً، نحو الزواج)).

لذلك وبسبب تكوين المجتمع بهذا الشكل، الذي ليـس فيـه مكـان للعـانس. والعازب لا يحظى بالاعتبار، لذلك فالأكراد يتزوجون في سن مبكرة، فـترى أن معظم الشبان لا ينتظرون بلوغ سن العشرين، وزوجته بالثانية عشرة مـن العمـر ليست غير مألوفة إذ إنها بذلك السن تكون قد أتقنت إدارة شؤون المنزل وألمّت تماماً بجميع الواجبات التي ستلقى على عاتقها مستقبلاً.

أما في أيامنا هذه فقد تغير الحال ونشأ الميل نحو التأخير في سـن الـزواج. ولا سيما في المدن، وبصورة خاصة أكـثر، في حـال كـون أولئـك الفتيـان مرتبطـين بالدراسة مثلاً. كما أنه أحدث قانون مدني وضع حدوداً لسن الزواج.

الزواج المبكر هو بلا شك أحد الأسباب التي جعلت البغاء غير معروف بـين الأكراد، حتى أنهم ليعجـزون عـن ذكـره إذا مـا تناولـه الحديـث دون اسـتعارة تسميته باللغـة التركيـة. ومـن البديهـي عـدم وجـود مواخـير في المـدن الكرديـة الصغيرة مطلقاً لا في إيران ولا في العراق. إنني أذكر منذ عشرين سنة مضـت في قرية كردية في سورية عندما جاءت كتيبة من الشرق بأسلحتها الخفيفة لتعسكر في تلك المنطقة التي يقابلها مركـز مراقبـة عسـكري تركـي علـى الحـدود، وقـد تبيّنت أثناءها بأن السحاقة واللواطة لم تكن معروفـة أبـداً بشـكل عـام، بيـد أن كلمة هتوباز (HETWOBAZ) الـتي تسـتعمل لتلـك التسـمية لم تكـن مجهولـة في السليمانية وكانت تتداول كتعبير ازدراء واحتقار ليس إلاّ.

الأكراد في غالبيتهم من الإسلام الذي يجيز تعدد الزوجات. في المـاضي ومـن زاوية اعتبارات سياسية، كان الزعماء يعمدون إلى الزواج من عدة نسـاء حيـث

يصبح لديهم عدداً وافراً من الأولاد. أما اليوم فقد تغيرت الأحوال وتراجعت عادة تعدد الزوجات تدريجياً حتى كادت تتلاشى، إلا أنها ما زالت متفشية بين مجموعات من غير المثقفين من سكان المدن، ولكن بشكل لا تزيد معه أبداً عن الزوجتين. الزواج الأحادي (مرة في العمر) يسود المجتمعات الريفية. ومعدل الزواج المضار (الزواج على ضرة) لا يزيد عن ٢٪ وبهذه الطريقة فقد تجنب المجتمع الاضطراب والتعقيد، وأصبح الجميع يتحلى بالمثل القائل: ((من يتزوج امرأتين يصبح بواباً)).

وتتمسك طبقة المثقفين من سكان المدينة بقاعدة الزواج الأحادي، إذ إن الحضارة الغربية لعبت دوراً هاماً بتأثيرها على هذه القاعدة بين الشباب الناشئ. ومن ناحية أخرى. يبقى الزواج ثانية إثر إطلاق الزوجة الأولى شائعاً بين طبقة الأرستقراطيين في القرية، وهناك أنموذج يستشهد به بهذا الصدد عن شيخ عشيرة سادالا (SAĐALA) في العراق الذي كان قد تزوج خلال حياته الطويلة ١٩مرة. الطلاق نادر نسبياً وأسبابه تكون عادة: عقم الزوجة أو عدم قابليتها لإنجاب أولاد ذكور. وبصورة عامة الرجل الذي يبغي طلاق زوجه عادة ما يكون عرضة للسخرية والتهكم، وإذا نبذها إثر لفظة الطلاق ثلاثاً (TELAq) يتوجب عليه أن يدفع متأخر المهر الذي يبلغ معدل النصف أو الثلث من المتقدم. ويدفع مبلغاً زهيداً لدى أكراد الكرداغ (KURD DAÇH). أما الأولاد فيبقون في رعاية الأب في جميع الأحوال. والفراق بالموافقة المتبادلة هو أيضاً غير شائع. الزوجة المنبوذة نادراً ما تتزوج من رجل آخر، ولا سيما إذا كانت أسباب طلاقها خطيرة. إلى جانب أنها تتأسّى بالأغنية التالية:

نساء جميلات من رجال أشرار

لا يهجرن بل يذبحن بالأشفار

غني عن البيان بأن (الحب المباح) بعيد عن الفكر في كردستان، إذ لم يسمع قط بأن كردياً اتخذ خليلة، ويكون ذلك ممكناً عندما يكون في الخارج. في أوربة أو أمريكة ليتابع دراسته. ولكنه لم يحدث مطلقاً أن اصطحب أحد هؤلاء الفتيان امراة أجنبية معه إلى بلاده. وتفضل الأكثرية المطلقة الزواج الطاهر الشريف، أما الزنا فيمكن القول: إنه معدوم تماماً، إذ إن المرأة تعرف جيداً القدر الذي ينتظرها إذا اكتُشفت جريمتها؛ لأنها سوف تموت على يد أخيها أو يد قريب آخر، وذلك حفاظاً على شرف العائلة، والمصير نفسه يكون نصيب الفتاة العزباء إذا انزلقت في جريمة الزنا، وفي مثل هذه الظروف تتساهل المحاكم غالباً مع القتلة. إلا أن هذه القيود المفروضة بحكم العادة والعرف تكاد لا تكون كافية لتوجيه الشباب إلى الطريق الصحيح إذا لم تكن مدعومة بمستوى خلقي متين أيضاً.

استعدادات الزواج والخطوبة:

الكردي عادة هو زوج وأب مثالي، ولكن سعادة العائلة المنشودة تتطلب حُسن الاختيار الأوّلي من قريب معتبر إذ إن العملية جديّة. وهذه الاعتبارات هي أهم من اختيار الجاذبية والجمال، لذلك يجب أن يؤخذ بالحسبان قبل كل شيء ما يلي: ((لا تنظر إلى شكل الفتاة وانظر إلى أهلها، ابحث عن أخ الأم (الخال) وبعد أن تطمئن اصطحب الفتاة إلى بيتك)). وفي الواقع، أن ابنة العم غالباً ما تكون موضع الاختيار الأمثل، نظراً لأن ابن عم الفتاة له حق الأفضلية بالزواج منها حسب العرف حتى ولو كان المهر المفروض من قبله أقل من المهر المعروض من خاطب آخر. ويبقى حق ابن العم المرتبط بصلة الدم بالجد الأكبر قائماً. أما إذا كان هناك خاطب ذو مكانة وثري فعليه أن يرضي ابن العم بالمال كتعويض عن تخليه عن حقه، وفيما عدا ذلك. فاختطاف العروس يكون متوقعاً ولا سيما إذا كانت راغبة في ذلك، عندها يضع الخاطفين نفسيهما في حماية

زعيم له من القوة ما يكفي لتهدئة الأهل وتصفية القضية، إلا أنه ما دامت القضية معلقة و لم يبت في أمرها يبقى الفتى منعزلاً عن البنت يحترمها ولا يقربها. فهي قضية شرف.

وإذا صدف بأن فتاة وفي ظرف ما اختارت الزواج من شاب غريب. عند ذلك يلجأ ابن عمها المنبوذ لمطاردة خصمه، ولا يتردد في قتله حتى وقتل العروس إن استطاع، وإذا كان الأمر كذلك، وفي النهاية، لا بد من التأسي بالمثل القائل: ((من يقترن بامرأة فسوف يحصل إما على صندوق من الذهب أو على كيس من الكذب. لا يمكنك الزواج من أميرة بمهر راعي بقر)).

في الريف يلتقي الفتيان غالباً عند بئر القرية أو في الحقول بحكم عملهم. وبين الرحّل في مناسبات الاحتفالات الموسمية في الرقصات الجماعية (الدبكة) ودائماً تسود الغايات الشريفة. الفضيلة يجب ألا تُفسد بالاحتشام المصطنع. وهذا شيء لا يخفى عن البنات الكرديات ويعرفنه حق المعرفة، وفي ظروف ومناسبات أخرى تراهن لا يترددن بالغناء الغزلي حسب الظرف والمناسبة. أثناء الغزل بالمغزل مثلاً أثناء اجتيازهم المنحدرات الجبلية نحو المواقع الصيفية، أثناء حلب الأغنام، أثناء حياكة السجاجيد المزركشة إلخ...

فأغانيهن تشترك بأنها تعبر دائماً عن المشاعر المرهفة والمفعمة بالشعور الذي يبقى حيثما تكون القلوب، وهي تنبض بالحب والعطاء، ثم تأتيك الصور الحالمة والمقارنات الرائعة التي يعبّرن بها عن مشاعرهن التي تتسم بطابعها الجمالي الفتّان، وإحساس مرهف فياض نابع من بيئتهن. أولئك الفاتنات يدركن تماماً مدى سحرهن وفتنتهن، ولا يترددن عن التحدث والبوح بها وعن التباهي بمحاسنهن، بغدائرهن ولونها الأشقر الساحر، بسحر عيونهن التي تحاكي عيون الغزلان، في اختيالهن بمشيتهن كما تختال حمامة بريّة أو إحدى حجلات القفر. وفي مثل وزن الشعر إيقاعاً تحب الفتاة اللّعوب أن تزركش سرج حصان ابن

عمها. وهنّ في هذا المضمار تراهُنّ يضحّين بأغلى ما لديهن حتى بالمجوهرات في سبيل الحبيب والحب الطاهر العفيف ونفحات منه تتمثل بما يلي:

سأضع من أقراطي أديماً لحذائه
سأحول أساوري قطعاً من أجل أظافره
ومن غدائري أجعل أربطة لحزام سرجه
ومن خصلات شعري أعنّة لجواده

علماً بأن المداهنة والتملّق والاحتيال بهذا الصدد يكون أحياناً بدافع الضغينة إذ إن الفتاة الكردية تملك جميع وسائل السحر والإغراء التي تدير رأس الرجل والمثل يقول: ((وراء كل رأس أشقر هناك شارب أحمر)) وإلى جانب هذا، وكما هو في أي مكان آخر فالفتيات يحججن إلى الأماكن المقدسة عادة ودور العبادة أيضاً.

المقابلات والاجتماعات في المدينة بين الشبان والشابات لدى الأغنياء ليست بالأمر السهل، فهناك قيود حازمة يحترمها الجميع تمنع الشاب من إظهار رغبته بأحد البيوت إذا بلغ سنّ الزواج و لم يستطع أن يكاشف الفتاة التي اختارها بنفسه عن مشاعره وعواطفه مع علم العائلة بذلك. في هذه الحالة تذهب الأم ذاتها لتبحث عن كنّة (زوجة الابن) المستقبل. لذلك تراها تبدأ سلسلة زيارات إلى كثير من المنازل لتحظى بالفتاة المناسبة فإذا وجدت الأم أو سواها من الأقرباء المرشحة التي تحوز على الموافقة والإعجاب. عندها لن تتلكأ، بل تبدأ بوصف شكل الفتاة التي وقع عليها الاختيار إلى الخاطب وقسماتها ومناقبها وأخلاقها بما أوتيت من البيان والإطناب، في هذه الحالة إذا لم يكن هناك اعتراض من الفتى، وإذا تأكد لدى الأكثرية الرغبة والاستحسان بالقربى من أهل الفتاة.

عندئذ تقوم أم الخاطب أو عمته بالتقرب والاختيار التجريبي أو يعمد صديق الخاطب الحميم لزيارة بيت الخطيبة بعد أن يعرّف عن نفسه ويقدم لها هدية، فإذا اقترنت النتيجة بالقبول فمعنى هذا الموافقة، وهذا يعني الخطوبة (HERÊ KIRIN) ومن حيث الفكرة فإن الفتاة تستطيع أن ترفض الزواج، ولكن مثل هذا الرفض يعدّ إهانة للطرف الآخر. (ومن ناحية ثانية ليس من حق الوالد أن يجبر ابنته على الزواج الذي ترفضه) ثم بعد ذلك بوقت قصير، يقوم الأب أو العم أو الأخ بالشكليات التقليدية من أجل طلب يد الفتاة (XWEZÇIN) المخطوبة ويتم هذا الإجراء عادة في يوم ملائم. وتقدم الحلوى أثناء تلك المناسبة. ويطلق على هذا الاحتفال اسم (SÎRÎNÎ) وتحدّد أثناء الاحتفال قيمة المهر ((القراني (MEHR) الذي يسمّونه (QELEN أو KELÎM) وذلك حسب الإقليم)) ويكون قد بُحث به مسبقاً عن طريق الوسطاء، وذلك تجنباً للمشاحنات العائلية. التي تصل في كثير من الأحيان لحد المساومة وقيمة المهر تختلف بين إقليم وآخر وحسب وضعية الأهل المالية، وقد أثيرت حملة ضد هذه العادة بين أكراد أرمينيا السوفيتية الذين يعدونها بمثابة بيع للفتاة بالدراهم كما يباع القطيع إلا أنهم بالواقع ما زالوا يصرّون بشدة على التمسك بهذه العادة باعتبار أنها عادة قديمة متأصلة، ولكن هذا النوع من الصفقات يناقض تماماً العقلية الغربية.

وقد أخبرتنا السيدة هنسن (Mm. HENSEN) بأن هذا التقليد يعده أصحاب العلاقة أنه توطيد للقيم الأخلاقية الحقة، وهذه وجهة نظر لا يمكن تجاهلها، وإن كانت غير متطورة، وهناك ما يشير إلى أن بعض الأهل يغالون في المهر، ويرهقون الخاطب بما يفوق طاقته ولا سيما لدى القرويين، مما يجعل الزواج شبه مستحيل، ولتكوين فكرة عن هذا الموضوع نلجأ إلى شواهد جديدة أوردتها

مدام هنسن عام ١٩٥٧م عن المهور كما يلي: في بلخا (BALKHA) ٢٠ديناراً من أجل بنت ١٢عاماً، وفي توبزاوا (TOPZAVA) ٢٠٠دينار من أجل فتاة متعلمة من السليمانية وفي السليمانية نفسها بلغ أعلى مهر لفتاة ١٥٠٠دينار بالإضافة إلى ٧٥٠ديناراً متأخراً تدفع في حال الطلاق، أما لدى اليزيديين فمعدل المهر هو ٤٠ديناراً، أما لدى الأكراد المسيحيين والكلدانيين في العراق. يقوم الأسقف بتثبيت المهر بحد أقصى اجتناباً لإساءة الاستعمال والانتقاد. وهناك حالات أخرى يتم فيها الزواج بطريق تبادل أختين (BELDI) وهذا يقوم مقام المهر.

تبعاً للإجراءات التقليدية للخطوبة، يصبح كلٌّ من الفتى والفتاة مخطوبين لبعضهما عرفاً وتقليداً (XWESTÊ) وبعد انقضاء بضعة أشهر أو فترة ربما تمتد لغاية سنة يعلن عن احتفال الخطوبة (DESTGÎRAN) بين أصحاب العلاقة (DAZURÂNI, AHL - é - Hagg) التي هي مناسبة لإقامة مأدبة عائلية فخمة، يقدّم في نهايتها كل مدعو هدية مالية، ويهدي الفتى بدوره خطيبته قطعة مجوهرات (NÎSANI أو DIARI) عادة تكون خاتماً ذهبياً، وحينئذ يعدّ الطرفان مخطوبين رسمياً (DISÇIRTÎ) ووفقاً للعرف يستطيع الخاطب زيارة خطيبته في بيتها متى شاء وعندما يتم دفع المهر يصبح الخطيبان زوجين حكماً (DELENDA)، بالإضافة إلى ذلك يأتي عبء آخر وهو قضية الحليب الهامة أي (تربية الفتاة) (SIRBEHA) إذ يتوجب دفع تكاليف ثياب العرس وتقديم هدايا أخرى (PIST - AGD) التي يمكن أن تكون قطعة أرض، طاحون أو حلي ومجوهرات إلخ...

الزفاف

الآن بما أن كل شيء أصبح جاهزاً، إذن لا بد من انتظار فصل الربيع أو الخريف لإقامة الاحتفال بعقد القران. وهنا تجب الروية والفهم، فالزفاف يتطلب نوعين من المراسيم التي لا يفترض تنفيذهما باليوم ذاته أحدها ديني (MARA - BRÎN) ويتم إجراؤه وفقاً للشريعة الإسلامية التي تتضمن إبرام وثيقة الزواج، ولا ضير في عدم حضور الطرفين لتوقيعها.

يقوم القاضي أو الملاّ بتنظيم صك الزواج بحضور شهود أربعة من طرف العروسين بمن فيهم ولي أمر العروس (WALI)، ولا يشترط أن يكون الأب هو الولي دائماً، عندها يُدفع المهر المتفق عليه أمام الشهود. وكتأمين للعروس في أحوال الطلاق أو احتمال الترمل (فقد الزوج) يجري الاتفاق على مبلغ معيّن وهو عادة يعادل نصف أو ثلث المهر المقدم ويسمى (المهر المؤخر)، حينئذ يطلب الملاّ موافقة الأطراف المعنية ويشير إلى عرّاب العروس بترديد الجملة التالية: «لقد زوجنا ابنتنا لفلان واستلمنا المهر نقداً مبلغ... » وفي هذه الأثناء يتوجب على الجميع وضع أيديهم على ركبهم مفتوحة، وذلك حتى لا يتمكن أحد من عمل السحر للخطيبة. وهكذا يتم التصديق على العقد وفي أكثر الأحيان يتبعه تلاوة الفاتحة، واعتباراً من تلك اللحظة يعدّ الطرفان متزوجين رسمياً، هذا وبما أن الزواج لم يكن قد أخذ شكله النهائي بعد فإن الزوج لا يمكنه نقض العقد إلا في حال الفراق بشكله القانوني ودفع المهر المتأخر.

يبقى الآن الجزء الثاني من مراسم الزفاف وهو دنيوي صرف، بيد أنه من المهم جداً أن نُمعن النظر بكثير من الطقوس الفولكلورية الشعبية الجذابة بجميع جوانبها، وخلال هذا الاحتفال تجري مواكبة العروس إلى بيت عريسها، وفي مساء ذلك اليوم المشهود يتولى أصدقاء الطرفين أمر العناية بإعداد زوجي

المستقبل، الحمام أولاً، ثم الحنّاء وتستعمل بصورة مطلقة في راحتي اليد ورؤوس الأصابع، الأيدي والأرجل، ويحلق شعر الشاب على مراحل قصيرة بقصد المرح. أما من جهة العروس فيزال جميع شعر جسمها بمعجون مستحضر مزيل الشعر وهو مركّب من محلول الزّنك والزرنيخ، وتكحل عيناها بكحل لزيادة تألّقها وإشراقها، ومن طقوس العرس، أن تغطى العروس بخمار طويل معصفر بلون المُغْرة[1]، يستعيض بعض سكان المدن عنه بالخمار الأبيض كما هي الحال في أوربة ثم إن هناك كثيراً من الحلي الضرورية وهي عادة تحترمها جداً المجتمعات الكردية، وأكثر النماذج الشائعة لديهم هي سلسلة ذهبية تعلق من قمة الإكليل حتى الذقن، وعقد يتدلّى على طول المعطف (الجاكيت)، وهناك بعض العقود التي تشتمل على أحجار كريمة صغيرة أو تزيينات من الفضة التي يعتقد أنها تدفع أذى الشيطان، ثم الأساور وحزام عريض ذو بكلات من الفضة. ويثبت في فتحة الأنف اليسرى زر ذهبي أو زر أزرق على شكل زهرة صغيرة، ويتدلى على الجبهة هلال صغير وثلاثة قطع صغيرة على شكل ثلاثة قلوب.

عندما تتم زينة العروس وشكليات العرس تماماً. يمتطي كل شخص جواده، أما في المدن فبالسيارات طبعاً، بحيث يكون جهاز العروس في المقدمة ومجموعة أدوات المطبخ. المراد من ذلك إظهار مدى جود وغنى العريس، وفي بعض الأماكن، في كرداخ مثلاً لإبراز الثروة يعمد إلى الاستعارة من الأقرباء على أن تعاد الأدوات لأصحابها عند نهاية الاحتفال فهو نمط جيد يفي بالغرض، وفي لحظة مغادرة العروس لبيت أهلها، لا بد لها من أن تذرف العبرات أو تتظاهر بها، وفي سبيل الترويح عنها ومؤاساتها يذهب صحبها بالغناء والأهازيج لها بإحدى ترنيمات الأعراس (HEVALÊ) التي يشترك بها الجميع على شكل كورس تماماً كما كنّ يفعلن أثناء زينتها وتلبيسها فينطلقن بالغناء والأهازيج

---

[1] المُغْرة: طين أحمر يصبغُ به.

والموسيقى والرقص طيلة الطريق، وحتى وصول الموكب إلى بيت العريس، وهو بدوره لا يظهر على الفور. حيث يتوجب أن يمضي إليه من يوصيه بالعناية والمحافظة على عروسه، تلك الفتاة الصغيرة وألا يتخلى عنها والتي بدورها تتظاهر بأنها لا تبغي النزول من على حصانها بالطبع في النهاية يتم كل شيء في نطاق الفرحة والسرور.

دخول العروس لبيت المستقبل يرافقه شعار تقليدي يختلف حسب الإقليم عادة قبل اجتياز عتبة الدار، يجب أن تخطو العروس فوق أجزاء جرّة فخارية مليئة بالنقود والسكاكر كانت قد كسرت أمام قدميها.

في أذربيجان يقوم أقرباء العريس بنثر بعض الكعك بين عتبة الدار وقدمي العروس. حينئذ عليها أن تلتقط الكعك وتقبل عتبة الدار.

عند أهل الحق (AHL - é - Hagg) في إيران، حين اجتياز العتبة تمسك العروس بيديها شمعتين مضيئتين بينما يكون العريس واقفاً على السطح ليرمي لها قطعاً نقدية صغيرة، وشيئاً من القمح والأرز الملوّن.

بينما اليزيديون عند وصول العروس ترمي حماتها لها من على السطح السكاكر والزهور، ثم تنزل وتعطي كنّتها جرّة مليئة بالحلوى تكسرها العروس عند العتبة قبل أن تتخطاها، بعد ذلك يهرع الجميع من أجل الحلوى المبعثرة. وهذا بمفهومهم مجلبة للحظ. حينئذٍ تدخل العروس بيتها الجديد وهي تخطو فوق قطع الجرّة ودم الخروف الذي كان قد ذبح فور دخولها على قدميها.

في كرداغ تكسر ملعقة خشبية كبيرة بين قدمي العروس قبل أن تدخل بيت الزوجية.

في توبزاوا (TOPZAVA) بالعراق يطلق طير في الجو أثناء اجتياز العروس عتبة الدار، بينما يقوم العريس بلمس رأس عروسه بلطف من على السطح بسارية خفيفة يمسكها بكلتا يديه. وهذه الإيماءة شائعة أيضاً بين أكراد أرمينيا السوفييتية.

ما إن تصل العروس حتى تبدأ الإجراءات الدينية المذكورة آنفاً إذا لم تكن قد أُجريت، وبينما ينهمك الأصحاب المرافقون بالمرح والتسلية تتخذ العروس مكانها على عرشها الذي أقيم خصّيصاً لذلك في إحدى زوايا الغرفة وتبقى صامتة تحت الوشاح الطويل الذي اشتمل عليها تماماً كأنها الوثن، وبينما ينغمس الجميع بالفرح واللهو، وينطلقون بالغناء والأهازيج والرقص ما شاء الله لهم أن يفعلوا، وعندما يشعر الفرسان بالتعب والعناء من العدو والسباق وألعاب الفروسية المختلفة. يكون الاحتفال قد أشرف على النهاية. فيترك العروسان وحدهما (BÛK Û ZAVA) حيث يدخلان مخدع الزوجية. ويبقى الباب محروساً من قبل وصيف الشرف (BRAVAZA أو KARDAS) وقبل أن يتم الدخول على المرأة يقدم العريس لعروسه هدية ترمز لطاعتها واحتشامها (SERMSÊNA) تليها هدية أخرى تتمثل بإطلاق عيار ناري (تقليدي) من العريس ذاته أو من قبل وصيف الشرف معلناً بذلك أن كل شيء قد تم على أحسن ما يرام. فينصرف بعدها جميع المدعوين إلى منازلهم. على فراش الزوجية ترى أغطية وأثواباً كثيرة أو محبّاً شاحباً ينطق بالشهادة على طهارة وعفة صاحبته العروس العذراء (Pâ - KHSÛ أو BERBÛRI أو PÎREK).

تقوم القيّمة على الدار بمرافقة العروس الصغيرة وتلقينها واجباتها الجديدة. وفي اليوم التالي تُعرض علامات البكورة على أهل العروس وأصدقائها بواسطة قطع من القماش يحتفظ بها أهل العروس حتى ولادة المولود الأول.

المنزل الكردي

هناك إذن يقيم الزوجان اليافعان داخل منزلهما، وعادة في منزل يملكانه خاص بهما، وفي بعض الأحيان يتخذان شقة من منزل والد العريس أو جناحاً

منه يكون مستقلاً عن الدار، ومن ثم تستأنف الحياة اليومية بشكلها الناعم المنتظر لا يشوبها أي إزعاج، وفي هذا تُستوحى الأمثال التالية:

المرأة هي دعامة المنزل.

المرأة قلعة والرجل هو السجين.

المرأة الفاضلة تسمو بقيمتها وقدرها.

المرأة الرديئة تتحول إلى غلّ وقيد.

الرجل نهر والمرأة بحيرة.

تعودت أن تتفوه بالقليل وأن تكون أكثر صوناً ومحافظة من الرجل.

إنهما متحدان حتى الموت.

(JIN Û MÊR, TEVIR Û BêR) وهي تعني: ((زوج وزوجة، معول ورفش)).

وبنحو أوضح ((إن المعول والرفش اللذين يحفران قبريهما هما القادران فقط على تفريقهما)).

هكذا يحيا الزوجان بانسجام وتوافق تام يقتنصان كثيراً من لحظات المتعة والبهجة. نظرة واحدة من العيون تحكي لك عن بهجة القلب المترعة وأفراحه، ولا يتوانى الزوج عن بث عواطفه لزوجه يترجم بعضها ويتمثل بما يلي: ((من أجل الربيع عشقت الأرض الجبلية)). وغير ذلك من الأمثال.. ومع هذا كله فهو لا يدع مجالاً لزوجه أن تقوده أبداً، فكلّ يعرف مكانه في المجتمع ويلتزم به: ((امرأة متواضعة تساوي مدينة. ورجل متواضع يساوي طفلاً)) كما أنه ليس على المرأة أن تستجيب لذراعي زوجها عندما يكون في القبو مثلاً، ولا أن يكون الرجل ديكاً ليوم واحد ودجاجة على طول أيام السنة، الرجل الذي يخضع لزوجه هو أشبه ما يكون بقطعة خشب معزولة، المرأة لا تقاد بالضراعة والرجاء إلخ...

لا نغالي أبداً إذا قلنا: إن المرأة الكردية تتمتع بالحرية أكثر بكثير من أخواتها في البلاد الإسلامية الأخرى، إنها لا تحتجب عادة، أما رأسها فمغطى دائماً، تدير أعمال المنزل، وغالباً ما تشرف على الإنفاق، وتتصرف بشؤون البيت ونفقاته كما تشتهي. وهناك في كتاب ممتع جداً عن حياة المرأة الكردية للسيدة الدانمركية مدام هنسن حيث سلّطت الأضواء على الدور المتبادل الذي يلعبه الزوج والزوجة في البيت الكردي وقالت عن الحياة اليومية وبيّنت أنه بقدر ما يتمتع به الزوج من السلطة والامتياز فدوره بالبيت محدود جداً لا يتجاوز أن تكون له علاّقة ثياب أو مسمار في حائط يعلّق عليه ثيابه، ومكان على الأرض يجلس عليه للأكل، وفراش أو سرير حديدي ينام عليه، هذا هو كل شيء كما أخبرتنا السيدة هنسن بروح من الفكاهة. حتى لدى الأرستقراطيين لا يكون الرجل متحرراً أكثر من المرأة في اختيار الشريك. وعلى عاتقه دائماً تقع مهمة إقامة الألفة والمحبة بين نسوة البيت جميعهن، أمه، زوجاته، أخواته، بناته على مختلف أعمارهن درءاً للمشاكل.

إلا أن النسوة القرويات نراهن يتمتعن بحرّيّة أكثر في الحركة. وعدم التكافؤ مع المدنيات هنا مرجعه إلى أن جميع الأعمال المرهقة تقع على عاتقهن، تلك الأعمال المعدومة لدى سكان المدن المثقفين. وفي مجتمع غير المثقفين في المدينة ترى الزوج المتعدد الزوجات مرهقاً باستمرار. هناك حياة بسيطة يتقاسمها الأزواج عموماً بصرف النظر عن عزل الجنسين بعضهما عن بعض في عالم يفصل النساء عن الرجال حسبما يمتاز به الدين الإسلامي، ومع ذلك ترى الرجل يعشق زوجه ويملك قلبها في الوقت ذاته أيضاً، وهذه حقيقة واقعة ومؤكدة جداً، وهو إذ يثق بزوجته ينظر إلى باقي النساء نظرة سامية جداً، ولذلك ترى وضع المرأة في البيت متيناً جداً، وليس من المستغرب أن ترى من يحرز السلطة المطلقة في القبيلة أو في المدينة وشائع أيضاً بين الأكراد أن من يستجير بامرأة فهو آمن جداً.

حول المهد

مهما كانت منزلة المرأة بنظر الآخرين، فهي في بيتها ملكة بكل معنى الكلمة ((إن ا لله أوجد المرأة، والمرأة أوجدت البيت)) كما يقول المثل الكردي و((عندما تعطي المرأة، يكون ا لله سبحانه وتعالى قد أعطى)) ولا تكون سعادتها كاملة إلا عندما تنجب طفلاً، وهذا طبعاً يكون نتيجة الزواج المبكر غالباً ((تزوج صغيراً حتى يمكنك أن تتمتع بالوقت الثمين لمصاحبة أولادك)) و((إذا أراد ا لله في نهاية تسعة الأشهر وتسعة الأيام وتسع الدقائق سوف تخصب الأرض وتثمر بإذن ا لله)) و ((سوف تنجب المرأة ولداً بقدرة ا لله وسينثر على محياه ثلاث نقط من النور)) و ((الولد هو ثمرة المنزل حقيقة)) و ((البيت الذي يتوفر فيه الذهب بغية الغنى سوف يتداعى بلا شك أما البيت الذي فيه أبناء يسعون للغنى لا يمكن أن يتداعى مطلقاً)) وهذا قول رائع مأثور يبطل كل معاني الأنانية ((لا يدخل الشيطان إلى بيت فيه طفل)).

مما يفعم قلب الأبوين بالفرحة والغبطة الحقيقية البسمة الأولى التي يختلسانها من طفلهما الذي يرفل في المهد، القبلة الأولى واللفظة الأولى، فالوالد ذاته إذا كان يتصف بالقسوة في بعض الأحيان، نراه يصبح عطوفاً رقيقاً لأبعد حد، ويصغي بشغف ونهم إلى أغنية المهد التي ترنمها الأم الفتيّة وتهدهد طفلها حتى ينام. وهناك كثير من أغاني المهد الكردية الرائعة، التي كانت تؤلفها الجدّات المسنّات. وهي على كثرتها لم تكن ليعنى بها الآباء، وهذا حسب اعتقادي مما يشير إلى الحب الأبوي الغامر. هناك أنشودة ألّفها أحد الأكراد السوفييت التي تمتزج فيها مشاعر الحنان الفياضة مع سمو الإحساس الروحي:

لـوري، لـوري، أيهــا الولـد الوسـيم
بعيني سواد الكهرمان وقوس الحــاجبين
عندمـــــا أرنـــــو إليـــــك
يفعـــم قلـــبي ويمتلـــئ بـــالحب
نـــم هنيئـــاً، نـــم بهـــدوء

لـوري، لـوري، يـا ولـدي الوسـيم
أي بـــني اللطيـــف، انمُ ســـريعاً
كـــن عضـــد أبيـــك المتـــين
انمُ سريعاً، كـن شـجاعاً، كـن قويـاً
صـن لنـا عالمنـا المنبعـث مـن جديـد
نـــم هنيئـــاً، نـــم بهـــدوء
لـوري، لـوري، يـا ولـدي الوسـيم

هـا هـو الليـل قـد أقبـل، ونـام أهلـك
ونـــامت الظبيـــة بجـــانب خشـــفها
النجـــوم منتشـــرة، والقمـــر يتـــلألأ
وبسكون تام نامت الهضاب والجـداول
نـــم هنيئـــاً، نـــم بهـــدوء
لـوري، لـوري، يـــا بـــني الوســـيم

للمرأة الحامل في السليمانية حرزاً مـن الأحـداث المشـؤومة المفاجئـة المحتملـة تُحمل تسمى (دوابند DUABEND) وهو نوع من الحجب كُتبت عليه آيات من القرآن الكريم ومن المعلوم عرفاً أن زوجة الذي يقوم بنسخ مثل هذه الحجب لا تنجب أولاداً للحياة..

ومن أجل التحضير للولادة، القاعدة السارية هو أن يجهز مكانٌ في المنزل بمساعدة الأهل والجيران الأكثر خبرة في هذا المجال. إذ إن القابلات القانونيات نادرات تقريباً، وفي حالات التعسر، يلجأ إلى الدجالين والمشعوذين. وهذا ببعضه أو بمجمله قائم على الخرافة والوهم، وفي السليمانية أيضاً يستعمل (الدوا DUA) وهو عبارة عن حجر معيّن يجلب من المسجد، وقد نقشت عليه أدعية وابتهالات معينة. ويوضع على ظهر المرأة أثناء المخاض فيصبح كل شيء ميسراً بعد ذلك وعلى ما يرام، في قبيلة شمس الدين يستعمل في بعض الحالات سيف خانو ليبزيرين (KHAN - LEP - ZERIN)، أي الخان صاحب الذراع الذهبية بطل ملحمة ديمدين (DEMDIN) بحيث يوضع على فراش المرأة.

بين مسيحيي دهوك (DUHOK) يسود الاعتقاد بمدحلة الكنيسة التي تنطوي على قوة سحرية نافذة. يقطع حبل السرَّة بمقص وفي بعض الأماكن بواسطة حجر مشحوذ، ويجب اتخاذ الحيطة والانتباه لتحديد مكان وقوع الحبل المذكور، فإذا وقع على قطعة سلاح يصبح الولد محارباً عظيماً، وإذا وقع على صفيحة ما (طبق) يصبح ولداً أكولاً، وفي جميع الحالات يجب الاحتراس من الأرواح الشريرة. في أرمينية السوفييتية وفي إيران مثلاً يعتقدون بأن الروح التي تدعى (آل ÂL) أو (هلاناسي HALLANASSI) تسعى لتمزيق كبد ورئتي المرأة وهي في حالة المخاض، وبين اليزيديين (ري. آي. سفي Re, ê, Sévê) ((أي عتمة الليل)) الذي يمكن أن يخنق الطفل أو يؤذي الطرفين، الطفل وأمه، وعند الموكريين (MOUKRIES) الروح المسماة شيشي (CHECHÉ) وفي السليمانية غول شيفا (SHAIVA) المولع في خنق الأطفال، وحالما تضع المرأة مولودها يوضع فوق فراشها نسخة من القرآن الكريم، سيف وقطعة حديد، وتعويذات أخرى تدفع أذى الأرواح والسحر.

إذا كان المولود ذكراً يقيم رجال الأسرة حرساً في الليل والنهار لمدة أسبوع. داخل الغرفة التي تقيم فيها المرأة، وكذلك خلال المدة ذاتها يتوجب على القابلة وعلى جميع النسوة اللواتي كنّ حاضرات أثناء الولادة عدم الخروج حتى ولا أخذ أي شيء من الأدوات التي استعملت في عملية الولادة، ومن البديهي أيضاً أن يحظر على المرأة الحائض أن تدخل الغرفة، إذ إنها تجلب الحظ السيء، يوضع المولود الجديد على منخل مغطّى بوسادة، ويصبح بمثابة فراش للأيام الستة أو السبع الأول، وبعدئذٍ يلف الطفل باللفافة بشكل كامل ثم يوضع في المهد، وهناك ثلاثة أشكال من الأسرّة يستعملها الأكراد، والأكثر شيوعاً هو السرير الخشبي، النوع الثاني هو الأرجوحة الشبكية التي تعلّق بين عمودين، والأخير هو سرير ثابت، ويخصص للأطفال الأكبر سنّاً. في الأسرّة الفرش لها فتحة بأنبوب خشبي مجوف (بلوار BÎLWAR) لنقل البول بعيداً، وقد أشار العالم الإنتروبولوجي (البشري) هـ: فيلد (H. FIELD) عن سبب تشويه قحف الجمجمة وبصورة خاصة تسطّح القذال (مؤخرة الرأس) كانت نتيجة لاستعمال أشكال معيّنة سيّئة من الأسرّة، ولا سيما الأكراد الذين لهم صلة بالأرمن.

يقدم كثير من الهدايا إلى الأم، ولا سيما إذا كان المولود ذكراً، وتختلف قيمة الهدايا حسب عادات القبيلة ووضع العائلة الاجتماعي، وإلى الأم شخصياً يمكن إهداء الذهب أو كبش للتضحية، أما الطفل فيُهدى فرساً، مسدساً صغيراً أو خنجراً. وولادة الذكر تحتّم الاحتفال بعيد ميلاده دورياً.

جرت العادة أن تعطي الأم طفلها اسمه، والملاّ أيضاً له الكلمة في هذا الصدد، وأكثر الأكراد يطلقون أسماء إسلامية على أطفالهم مثل محمد، أحمد، محمود إلخ... وهي الأكثر شيوعاً وكذلك علي، حسن، حسين إلى جانب هذا هناك أسماء كردية صرفة مثل كولو (COLO)، جندو (CINDO)، مند (MEND) أو خوديدا (XODÊDA) أو أسماء اتخذت القالب الكردي لأسماء إسلامية، مثلاً

محو (MEHO) رشو (RESO) (رشيد) حمو (HEMO) (حميد) إلخ... كما أنه لا تهمل أبداً الأسماء التاريخية وأسماء أبطال الأساطير والملاحم الوطنية مثل خسرو (XOSREW)، كوباد (KUBAD). جمشيد (CEMSÎD) فريدون (FÊRIDÛN)، جه درز (CUHDERZ)، بهرام (BEHRAM). وفي بعض الأحيان تفضّل الأسماء التي ترمز إلى الفضيلة للمولود الجديد، أو أسماء أخرى كأسماء الأزهار والأثمار، وحتى أسماء الحيوانات يجري اختيار بعضها في أكثر الأماكن، أما أسماء الأزهار فهناك جله (CULÊ) (زهرة) نرزج (NERZÎÇ) (نرجس) بنفش (BENEFS) (بنفسج) ريحان (RIHAN) (حبق) سوسن (SOSIN) الزنبق ياسمين (YASMÎNE) ومن أسماء الحيوانات: غزال (XEZAL)، قمري (QUMRI) إلخ.. وهذا ما يستعمل غالباً للبنات، أما للأولاد فهناك شير (SêR) أسد، بليخ (PILINÇ) (نمر) شاهين (SAHÎN) (صقر).

الختان إجباري ويجري في اليوم الخامس أو السابع من الولادة، والملاّ هو من ينجز العملية عادة. منذ خمسة وعشرين عاماً خلت كانت العادة في السليمانية مثلاً بأن تنفّذ عملية الختان للولد بين سن السابعة والعاشرة، كما هي العادة اليوم في إستنبول، وهي مناسبة يحتفل بها الأهل والأقارب، إذ يرتدي الأولاد البنطلونات القصيرة. وبلوزة بيضاء صغيرة مع نطاق جلدي على الكتف مرصّع بالفضة وقبعة مفضضة أيضاً. وليس من الضروري أن يكون العرّاب من بين أفراد العائلة، بل يستحسن أن يكون من ذوي السمعة الحسنة، والرجل المفضل والمطلوب دائماً هو (من شرب من ماء سبعة ينابيع) وهو رمز المعرفة والحكمة. يقبل اليزيديون أن يكون العرّاب مسلماً ولا يقبلونه مسيحياً أو يهودياً مطلقاً، أما بقية الأكراد فلا يتقيدون بهذه الناحية فلا يترددون عن تكليف أحد أصدقائهم من المسيحيين الذين يثقون بهم لهذه المهمة التي تصبح بها صلة الدم قائمة بينهم.. أما ختان الإناث فهي عادة همجية أخذت النسوة المسلمات

بالثورة ضدها ولا سيما في مصر، علماً أنها كانت تمارس في السليمانية قديماً ولكن ليس قبل أن تبلغ البنت سن الثامنة أو العاشرة على أنها لم تكن منتشرة لدى العموم، وفي حال تنفيذها فالقابلة (الماما) هي التي تقوم بالعملية على أن تكون ماهرة جداً.

أما الفطام فيتخذ زمناً متأخراً عرفاً، فالطفل لاينفك عن الرضاعة لغاية السنتين أو ربما أكثر من ذلك، إذ يعتقد النسوة أنه طالما هن مسترسلات في الرضاعة فهن في أمان من الحمل من جديد، فالولادات متعاقبة غالباً. الواحد تلو الآخر على الرغم من كل شيء، لأن ممارسة منع الحمل لايلجأ إليها أحد، وتشجبها غالبية الشعب الكردي. الأولاد الذين يرضعون من مرضعة واحدة هم إخوة وأخوات بالرضاع، وهذه الحالة تعد قرابة حقيقية، وتعدُّ عائقاً في المستقبل يقف في وجه الزواج.

الأولاد ونشأتهم

يمتاز الفرد الكردي بحبه للأسرة الكبيرة، ويجزع كثيراً لفقد الطفل من ناحية أخرى، مما حدا بالأم للحذر ومراقبة طفلها لتراه محصّناً ضد قوى الشر وأرواح الشياطين طيلة أيام طفولته، لذلك تراه محاطاً بأنواع التعاويذ والحجب على كتفيه وطاقيته وذلك من أجل إبعاد عين الشر والأذى عن ابنها. أما التعويذات التي تجلب الحظ فمتنوعة، وتربط إلى طاقية الطفل الحمراء، وهي: أسنان الذئب، كبش قرنفل، عقيق يماني، جذور اللفّاح، وقطع أخرى مختلفة من الأخشاب والأحجار، وعلى الذراعين يحمل أنواع مختلفة موشورية صغيرة جداً نقش عليها آيات من القرآن الكريم، أما مخلب جراد البحر فيلف بخرقة تخاط إلى الملابس، وهذه لا تزال تعد أكثر فعالية ضد عين الأذى.

ورغم هذا فقد أثبتت الوقائع أن الولد الذي يفتقر إلى العناية والاهتمام نادراً ما يصاب بأذى أو مكروه، وفيما يتعلق بألعاب الأطفال تكاد تكون غير معروفة، لذلك يلجأ الولد لصنع عربته الصغيرة بواسطة قطع من الخشب والأسلاك، كما تعمد الطفلة لصنع لعبتها من الخرق القديمة، الطفل يقضي سنواته الأولى مع النّساء، ولكنه ما إن يصبح قادراً على العدو يذهب ليقضي معظم وقته يلعب مع رفاقه.

المدارس: معظم القرى الصغيرة خالية من المدرسة، سوى أنه غالباً ما يقوم الملاّ الأكثر علماً ومعرفة أو الشيخ بتدريس الأولاد الصغار وتعليمهم قراءة القرآن الكريم، أما القرى التي لديها مدرسة، ترى أن نمط الحياة في المنزل لا يساعد كثيراً على الدراسة إذ لا يتوافر مكانٌ مخصصٌ لوضع الكتب والدفاتر، حتى ولا مكان يمكّن التلميذ من القراءة والكتابة لفروضه المنزلية بصفو وأناة، وغالباً ما يكلف الولد الذهاب من البيت ليسهر على قطيع من الماعز أو الغنم، ثم يقضي باقي وقته بين الكبار ينصت إلى أحاديثهم ويستفيد مما يسمع على الرغم من أنه لا يزال في سن الحداثة، لهذا ترى أن صغار الأكراد لا يجهلون أبداً أسرار الحياة ومصاعبها فيطلعون عليها في سنٍّ مبكرة، وهذا ما يجعله مسلحاً جداً ضد معركة الحياة التي تمرّسها وعانى قسوتها عندما يحين الوقت ويدعو الداعي.

الفصل السادس

ساعات الفراغ

لقد منح مناخ كردستان سكانه الصحة والقوة لدرجة أنها أكسبتهم مظهر الخشونة والقسوة. مع أن الكردي مرح في مزاجه، مرح في سلوكه، ذكي في سرعة أجوبته. ومرهف الحسّ لدرجة فائقة، هذه المظاهر المتباينة في شخصية تظهر واضحة أثناء مناسبات الأفراح المتكررة. متكررة على الرغم من قساوة حياته اليومية التي لا تشتمل إلا على فرص قليلة للراحة.

الإيقاع والغناء

جميع الاحتفالات العائلية، الولادة، الختان، وبصورة خاصة الزواج جميعها يرافقها الغناء والرقص. إذ إنه من المتعذّر أن يتصور المرء أن يتم زواج بين الأكراد أو فرح من دون رقص وغناء. إذن فهو سلوى حقيقية يتمتع بها الأكراد ويسعدون بها في جميع مناسبات الأفراح. على أن رقصهم بالطبع لا يتجانس مع الرقص الغربي من حيث الهز والارتجاف، فهناك أنواع عديدة معروفة من قبل الجميع تسمى الرقص (REGS) وهي عربية والديلاني (DILANI) أي التعبير الكردي.

أنواع الرقص لا حصر لها، وغالباً ما يتخذون أسماءها من أماكنها الأصلية فمثلاً: عمودي (AMÛDI) من عامودا بوتاني (BOTANÎ) من بوطان، روهايي (ROHAYI) من روها، شيخاني (SÊXANI) من شيخان إلخ... وهذه الرقصة الأخيرة هي أشبه ما تكون بالدبكة اللبنانية، وكذلك تكتسب الرقصات تسمياتها من أشكال تأديتها. مثل الكوفند (ÇOVEND) وهي نوع من رقصة الدائرة تتشابك بها الأيدي أو الأذرع لتأدية الخطوة. ورقصة أخرى تتضمن تمايلاً إيقاعياً شديداً جيئة وذهاباً بمصاحبة خمسة أشخاص وطبل، ورقصات أخرى مثل: سوجافي (SÛÇAVÎ) أو سي بيي (SÊPEYÎ) أي ثلاث خطوات جاريان (ÇARPANÎ) أربع خطوات، جيراني (ÇIRANÎ) الرقص البطيء، خرفاني (XIRFANÎ) الرقص المتراخي، تشيكوك (TESÎÇOK)، ميلاني (MILANÎ) ويرقص بها المشتركون كتفاً إلى كتف، آشي يوك (ASIYOK) أو عائشة الصغيرة، حيث يشكل بها الراقصون دائرة كاملة. أما الطلاب فلهم رقصة خاصة، وهي نوع من الرقصات التي تتألف من أربعة أزواج من الراقصين تسمى بيليت (BÊLÎTE) أو بيلوت (BÊLÛTE) التي كانت فيما مضى تمتاز بالأسلوب الديني على أنها لا تعني ذلك حالياً، رقصة تشوبي (ÇOPÎ) الواسعة الانتشار، وتتضمن حركات قفز قصيرة. والراقص الذي يقود هذه الرقصة يدعى سرتشوبيكي (SERÇOPIKES) يمسك بإحدى يديه منديلاً يلوح بيد وباليد الأخرى يقود باقي الحلقة في خط إلى الأمام أو إلى الوراء. فيندفع الجميع جيئة وذهاباً من جانب لآخر، وهناك حركة متموجة لطيفة لكامل الحلقة مع مرافقة الموسيقى. شبيهة تماماً بحقل الحنطة الذي تحركه النّسمات اللطيفة، وتسمى الميلتجن (MILLINÇEN) وعندما تنضم النسوة إلى رقصة (ÇOPÎ) التي لم تكن نادرة في القرى يصبح اسم الرقصة رش بلك (RESBELEK) أي المؤلف من عناصر مختلفة. بعض من هذه الرقصات بما فيها البيريو (BÊRIYO) أي الحلاّبات، والتمزارا (TEMZARA) والشيخاني (SÊXANI) المذكورة آنفاً

يرقصها الآشوريون أيضاً، رقصة السيف. ديلاناشور ومرتال (DILAN - SÛR-Û - MERTAL) التي تفتن وتسحر ناظرها وتتطلب مهارة فائقة ورشاقة في الحركة.

الأغاني أيضاً كثيرة ومتنوعة ومتباينة، فالأغنية نفسها عندما تغنى ليلاً تختلف عند غنائها نهاراً، غناء الصبي شيء وغناء المرأة آخر. فالأغنية تختلف تبعاً لما إذا تغنّى بها الكثير أو أنشدها الصغير، كما أنها ليست في الجبل كما هي في السهل، فهي دائماً متلونة. هكذا بشرح المواطن الكردي يشار كمال (YACHAR KAMAL) معنى تنوع الأغاني الكردية التي لا تحصى: مواضيع الملاحم الحربية وتسمّى شر (SER) تعرف باسم دلال (DELAL) في السهول ولاوكي سواران (SUWARAN LAWIQÊ) في الجبال وهي في أكثر الأحيان طويلة جداً في قصصها. وهناك نوع يعدُّ عادياً مألوفاً، يحكي عن الحبيبة وهي تغنّي في البيت عن الأخطار، وأهوال الحرب المتقلبة، وعن مجازفات حبيبها البطولية الخارقة التي أبلى بها في ساحة المعركة. حيث تكلّل بالفخر والمجد. ويمكن القول: إن كل قبيلة لها ملحمتها الخاصة (دلال DELAL). الأشعار الدينية الطويلة تراها منفصلة ولا تختلط بالأغاني الملحمية، فهي نابعة من القرآن الكريم تماماً، وتنشد بخشوع ديني ولحن رزين.

كما أنه توجد مجموعة ضخمة جداً من الأغاني الصغيرة التي تضفي البهجة والسرور أثناء ممارسة أعباء ألف وظيفة ووظيفة عمل يومية. البندولافي (BENDOLAVÊ) أغاني المغزل (أثناء غزل الصوف) التي تدندن بها الفتيات وهن يغزلن، وأغاني الحصادين البيهيزوك (PEHÎZOK) أغاني الخريف، وتنشد بالتناوب من قبل الشبان والشابات في أثناء قدومهم منحدرين من الجبال إلى حيث يقضون فصل الصيف الـ (سريلا SERÊLE) أي أغاني الربيع التي لا تستطيع حصر أغانيه الراقصة لكثرتها. ديلوك (DÊLOK) الأهازيج التي يرافقها

المزمار والرق، ويجدر بنا أن نعود إلى أغاني الأعراس هفالي (HEVALÊ) أو شريزا فانو (SERÊZAVANO) التي ترافق دخول العروس الفتيّة لبيتها الجديد. أما لوري (LORI) أو أغاني المهد، فلها مكانتها وهي تنطق بالعذوبة والسهولة.

الموسيقى الكردية تشكل بالطبع حسب إجماع الآراء جزءاً من نمط الموسيقى الشرقية، إلا أنها في بعض الأحيان تتأثر بأغاني الشعوب المجاورة، ولا يمكن أن تنسجم مع الموسيقى العربية أو الأرمينية أو التركية. إذ إن الثقافة الموسيقية كانت قد أسست بمستوى رفيع جداً في الإمبراطورية الساسانية[١]، وقد سار الأكراد على خطاهم في هذا التقليد، وقد كان هناك مواطن كردي برز من الموصل وأصبح موسيقاراً شهيراً وحكماً فيها. ذا ذوق رفيع جداً يدعى زرياب (ZIRIYAB) خلال فترة (٧٨٩ - ٨٥٧م) الذي وطّد نجاحه بسرعة في بغداد في فن الموسيقى، ثم ما لبث أن رحل إلى الأندلس وتابع نجاحه ونبوغه بألمعية وإشراق في قرطبة في بلاط عبد الرحمن[٢] حيث أسّس معهداً للموسيقى. تلك الموسيقى الشرقية التي أدخلها اتخذت طابعاً أصيلاً ونوعاً يتردّد في أجواء الأندلس، ما زال الغجر يتعلقون به حتى يومنا هذا، وإضافة الوتر الخامس لآلة العود هي من إبداع زرياب وندين له بذلك، والتاريخ لا يزال يحتفظ في بطون كتب القرن التاسع الشيء الكثير عن السلالة المسيطرة للموسيقيين الأكراد. إبراهيم بن المهدي، وابنه إسحاق الموصلّلي وابنه الأكبر حماد[٣].

---

(١) السّاسانيُّون: سلالة فارسية ساسانيَّة ملكت ما بين ٢٢٦ - ٦٥١م، أسَّسها أردشير الأوَّل، أشهر ملوكها: شابور الأوَّل، وشابور الثّاني، وكسرى أنوشروان، (النّاشر).

(٢) عبد الرحمن الثّاني بن الحكم الأُموي: ١٧٦ - ٢٣٨هـ/٧٩٢ - ٨٥٢م ولد في طليطلة، وتوفي بقرطبة، رابع أمراء بني أميَّة في الأندلس، نظَّم الإدارة، ووسَّع الجامع الكبير في قرطبة، أدخل زرياب إلى قصره وشجَّع الآداب والفنون، (النّاشر).

(٣) إسحاق بن إبراهيم (ابن النديم الموصلي (٧٦٧ - ٨٥٠م). من مغنّي العصر العباسي الأوَّل، ولد في الرَّي وتوفي في بغداد، تعلَّم الحديث والقرآن والأدب والغناء، وكان منقطعاً إلى الرشيد والبرامكة. وتوفي حمَّاد نحو (٨٨٧م)، وهو من المغنِّين المشهورين، أخذ الغناء عن والده إبراهيم، ودخل بعده على الخلفاء، كان عالماً بأخبار العرب، (النّاشر).

مهما كان أصل الموسيقى الكردية ومهما كان مدى شهرتها ومجدها الماضي فهي اليوم لا تبدو متكلّفة ولا معقدة مطلقاً، بل تنبعث من طبيعة شعبية صافية الإيقاع والتنسيق. وترى ألحانها العديدة المتنوعة تتسم غالباً بطابع الحزن وتصوره بشكل أخّاذ مدهش. والحقيقة أنّ الألحان الكردية تمتاز دائماً بترانيم منتظمة تماماً، وفي الوقت نفسه تراها تنطق بالحزن والأسى المنبثق من طبيعة لا يمكن أن يتصور المرء مدى قدرتها على التعبير عن أحاسيسها ومشاعرها، وكيف أنها برزت في قبائل معروفة لدينا بنزعتها الطبيعية المحضة إلى العنف والقسوة والسلب والنهب.. هكذا كان على الأقل رأي (إدوار دي لورييه EDOUARD DULAURIER) في القرن الماضي. بينما لم يخفق الرحّالة الغربيون في بيان وإبراز أصالة هذه الموسيقى حتى أن بعضهم افتتن بسحر ألحانها الفريدة المميزة. وكان بعضهم الآخر على النقيض. فقد وجد تلك الموسيقى بأنغامها السبعة عشر تفتقر إلى تعدد الأصوات وتآلف الألحان.

وهنا تجدر بنا الإشارة إلى أن القس الأرمني قرتابد كوميتس (VARTABED COMITS) في فترة (١٨٦٩ - ١٩٣٥م) صاحب الذوق الغني الرفيع المعروف أول من جمع ودرس بعض الأغاني الكردية الشعبية وأشاد بها، بالإضافة إلى أنه منذ عهد قريب جداً في عام ١٩٦٣م كان الدكتور د. كريستنسن (Dr. D. CHRISTENSEN) قد أتحفنا بدراسة علمية رائعة شائقة جداً عن موسيقى الرقص الهكاري (HAKKARI) أداءً وصوتاً، محللاً ألحانها وأسلوبها، وقد أخذ الأكراد ذاتهم اليوم يهتمون بموسيقاهم الوطنية بشكل خاص، وهم قلقون جداً ومتلهّفون إلى أن هذا الكنز يجب ألا يضيع كما هي الحال في العراق حيث شكّل الطلاب مجموعات غايتها الاحتفاظ والتوحيد والتنمية والتطوير للموسيقى الكردية، بينما نرى أن في أرمينية السوفيتية فتاة تدعى جميلة جميل (JAMILé JAMIL) كانت قد نشرت مجموعة رائعة من الأغاني الكردية عام ١٩٦٠م.

الأدوات الموسيقية التي يستعملها الأكراد هي من صنع ريفي في أكثر الأحيان فكل راع يحمل مزماره (بلور BILÛR) أو مزماراً ريفياً في جعبة ظهره. أثناء الرقص يصاحب الزرن (ZIRNE) المزمار القصير الرق اربان (ERBANE) والدهول (DEHOL) الطبل الكبير.

المزمار المزدوج (JUZALE) طوله ١٠ إنش تقريباً يتألف من قصبتين مجوفتين شدّتا معاً، وكل أنبوب منها يحتوي على فتحات ثقبت على طوله من أجل الأصابع والمزامير الأحسن نوعاً والصوت الأعمق تصنع من عظام الطيور المجوّفة. القسم الذي يوضع بين الشفتين يتألف من قصبتين صغيرتين أدخلتا بالقصبتين الطويلتين، في كل قصبة من قصبتي الفم توجد قناة طويلة ضيقة مرنة تشكل تقنية الاهتزازات، وعندما تعمل هذه الآلة تدخل القصبتان الصغيرتان بكاملهما إلى الفم، وعندما ينفخ بهما ينتفخ خدا العازف كالبالون، وصوتها يشبه موسيقى القرب السكوتلاندية.

الرباب المصنوعة من الحبل المشدود (RIBAB)، الكمان (KEMAN) أو كمنجة، العود أو البزق (تنبور TANBÛR) يعزف عليه في رقصات القرويين. واليزيديون يهتمون في بعض الأحيان بإيقاع أغانيهم الدينية على الصّنج (خليل XELÎLE) الذي يستعمل أيضاً في احتفالات بعض طوائف المسيحيين الشرقيين. الكيثار (ساز SAZ) يستعمل أيضاً، مع أنه ليس آلة كردية على وجه الخصوص، البوق (بوري BORÎ) هو آلة عسكرية محضة.

شعراء الغناء والموسيقى (تروبادور)

((كل مواطن كردي شاعر رجل كان أم امرأة)) هكذا قال كاتب القرن السالف الأرمني الشهير (آبوفيان ABOVIAN ١٨٠٤ - ١٨٤٨م) كما يفترض بأنه صرَّح مؤكداً أن كل كردي موسيقي ويعشق الموسيقى. إلا أنه يوجد أيضاً

اختصاصيون بالفن يسمون (سترانفان STRANNAN) المنشدون ولا سيما الـ (دنج بيجي DENÇBÊJ) شعراء الغناء تروبادور. والـ (جروك بيج ÇIROKBÊJ) رواة القصص يتمتعون بمنزلة رفيعة جداً.. ويجب ألا نخلط بين هؤلاء وبين الـ (مطرب MITRIB) وهو نوع من الغجر الذي لا يربطه رباط بالقبائل حيث يطوف ويتجول من مكان لآخر يستجدي الطعام والضيافة. المغنون المحترفون والتروبادور شعراء الغناء والموسيقى اختفُوا مع مرور الزمن بسرعة لسوء الحظ، وذلك بسبب انتشار راديو الترانزستور حتى في القرى النائية. وهذا ما مكنهم من سماع الأغاني الكردية من راديو بغداد مثلاً ومن محطات ما وراء الستار الحديدي، ولا ضير أياً كان مصدر أصوات المغنّين فهناك رجال ونساء يستمعون لأغانيهم المفضلة.

وفي أمسيات الشتاء الطويلة يجلس رواة القصص (القصاصون) الذين يسحرون جمهور السامعين والمشاهدين بما لديهم من ذخيرة واسعة وبراعة في تصوير المغامرات الخيالية المدهشة تمتد ساعات وساعات وحتى يغط الأطفال في النوم على ركب أمهاتهم. وتكون القصص غالباً بالشعر والقوافي تساعد القصاص في سرد القصة، إذ يستخدمها دليلاً لما يليها حيث يمكن أن يقع في خطر ضياع طريقه في الرواية، ويمكن أن يلحق خللاً كبيراً بالقصة إذ إنها تحتوي على أعاجيب ومعجزات، حوريات جميلات، وأبطال أشدّاء تمكنوا بشجاعتهم وسيوفهم المرهفة أن يظفروا بقلب الحبيبة، وهنا تغمر السعادة الجميع، ومهما كانت القصة طويلة فلا يضجر مستمعوها مطلقاً.

هناك أسطورتان من نوع القصيدة القصصية الرومانتيكية الدراماتيكية الصافية:

١ً - كان يعيش بين حريم فَتُول (FATOUL) خان إيران فتاتان رائعتا الحسن والجمال وكانت أحبهما إليه وأفضلهما زليخة، معبودة فتول وفاتنته وقد دفعه غرامه بها أن يقول لها مرة: «اطلبي ما تشتهي حتى ولو كان القمر مبتغاك

فسيكون ملكاً لك وبين يديك)). وقد سرّ زليخا أن تطلب شاعراً من شعراء الغناء لكي يحضر ويغني لها عن جمال القمر والطبيعة وقد كان في مدينة أصفهان[١] شاعر من هذا النوع يدعى تاري (TARI) صادف أن مرّ بالقصر حيث تقيم زليخا، وقد كان الرقص والغناء قائماً فدخل القصر واختلط ليشارك في أفراحه، وقد لاحت له زليخا بأبهى حللها تجلس على عرش أقيم في ركن خاص بها يحيط بها حشد من الخدم والأتباع عرباً وفرساً يقيمون على خدمة الأميرة. فوقعت في قلبه من ساعتها.

استعد تاري للعزف على قيثارته و لم يكد يلمس قيثارته ويسترسل في عزفه حتى أفاض البهجة بأقصى حدودها على الجميع فقد فتنهم بسحر موسيقاه وغنائه. وكانت زليخا قد انتحت ناحية قريبة منه فتبادلا النظرات، فاستجابت له بحرارة. واستفاض الموسيقي الشاعر في مغناه العذب الذي أثر في زليخا ففاضت عبراتها على وجنتيها سخيّة ولا سيما عند ما راح يردد ((أنا العاشق المتيم تاري أبحث عن عمل. أريد أن أغني عن الحرية وعن مآسي هذه الحياة وأحزانها)).

وقد مسّت هذه الكلمات قلب الأميرة وفعلت فيه فعلها وخانتها جوارحها فقد أصبح قلبها أسيراً لدى الموسيقار الفتى. لقد أقبل الليل، وخيّم الصمت والسكون على القصر، إلا زليخا التي عصاها النوم فبقيت مستيقظة ترسل نظراتها الملتاعة من النافذة تبحث عن تاري وتتساءل عن مكان وجوده، وبينما هي كذلك إذ سمعت جلبة حقيقية، فتح على إثرها الباب وظهر تاري على عتبته، وأقبل الحبيبان يتبادلان الضمّ والعناق، إلا أن إحدى الخادمات الغادرات شعرت بالأمر وشاهدت الواقعة. فأسرعت إلى فتول لتخبره بما رأت، فأقبل مذعوراً وهاله ما رأى من تبادل القبل بين الحبيبين اللذين صعقا من الخوف والمفاجأة.

---

(١) أصفهان (أو أصبهان) مدينة بين شيراز وطهران، أعطت عدداً كبيراً من الأدباء، اتخذها عباس الأول الصّفوي عاصمة له، وهي اليوم مدينة تجارية وصناعية هامّة، (الناشر).

أقيمت مشنقة فوراً بالساحة العامة، وسيق تاري إليها أمام النظّارة وشنق تاري الغريب الذي لا يعرفه أحد وقد أودع نظرته الأخيرة قبل أن يلفظ أنفاسه لتبقى لدى حبيبته زليخا التي تراقب ذلك المنظر التعس عن كثب بالقرب من النهر. بكت النساء وناحت ما استطاعت.. التف الخادمات حول الأميرة وأخذن بيدها عائدات إلى القصر بينما كنّ يحاولن تخفيف أحزانها، وأثناء الطريق لاحت للأميرة الخادمة التي وشت بها فاستلّت خنجرها وأغمدته في قلبها الغادر.

إثر ذلك الحادث المفجع، لم تقدر زليخا أن تنسى حبيبها المغدور. فراحت تزور قبره وتغمره بالأزهار والورود وهي في نوبة من البكاء والنحيب واللوعة. وهكذا فقد لبثت في القصر في جو من الصّمت والأسى لا تنبس بكلمة، وعبثاً حاول فتول آغا استرضاءها وملاطفتها وتسليتها والتقرب إليها. وفي ذات يوم اكتشف فتول بأن زليخا تخطط لمغادرة القصر. فأراد أن ينتقم منها ويعذبها، ولكنّها هربت منه ولم يستطع أن ينال منها، عندها أمر بإخراج جثة حبيبها تاري من القبر ورميها في العراء انتقاماً منها.

بدت الحبيبة الباكية المحرومة من حبيبها شاحبة ملتاعة، فانبعثت في إحدى الليالي المزدانة بالنجوم والكواكب، تبحث في سهل أصفهان عن جثة الحبيب التي رماها فتول والذي أحبته بكل جوارحها، مع أنه كان مجرد حب طارئ، فطافت في أرجائه تفتش حتى أوكار الثعالب والذئاب والوحوش المفترسة لتحصل على بقايا منها، غير آبهة لما قد ينالها من أخطار، وهي تبكي وتتنهد وتغص في آهاتها الآسية الحزينة، وتتوسل إلى الذئاب، إلى الجبال، وإلى الأشجار ليرشدوها إلى حيث يرقد حبيبها تاري، ولكن ما من مجيب.

وهكذا فقد بدا لها أنها أصبحت على وشك مسٌ من الجنون حينما خرقت سكون الليل ضجة صاخبة انبعثت من مكان بعيد من السهل وهاجت مياه

النهر، ولكنها لم تنفرج إلا عن أرنبة برية تسارعت في عدوها بعيداً. وما هي إلا لحظة حتى أبصرت زليخا في ضوء القمر على جذوع أحد الأشجار بعض عظام بشرية، لقد كان الهيكل العظمي سليماً وقد عملت فيه الأمطار والرياح وتركته مجرداً، فجلست زليخا في ظلال القمر بجانب الجسم البالي تبكي وتنتحب بمرارة، وما لبث أن تبدل الجو فهبت الريح وهطلت الأمطار مما اضطرها إلى ترك المكان تحت تأثير تلك الظروف القاسية سالكة طريق أصفهان، وبعد ذلك بثلاثة أيام من الحسرة والألم رأت أنه لم يعد أمامها سوى أن تعود إلى قصرها تاركة وراءها حياتها وأفراحها وأحلامها...

٢ً - وقصة سيابند (SIYABEND) وخدجة (KHADJE) لم تكن أقل شعبية وانتشاراً منها ومن كثير من الروايات الأخرى.. وفيما يلي بعضٌ منها.

فيما مضى من الأزمنة كان يعيش على شواطئ سيبان داغ (SIPAN -DAÇH) فتى وسيم بهي الطلعة يدعى سيابند (SIYABEND) وهو صياد قبيلة الزيلي (ZILLI) وقد قدِّر لسيابند هذا أن يقع في غرام فتاة رائعة الجمال تدعى خدجة (KHADJE) وبما أنه كان فقيراً و لم يتمكن من دفع المهر المطلوب لزواجها. رأى أنه لا سبيل إليها سوى اختطافها بعد أن اتفق معها، وهكذا نفذا الخطة بإحكام وتمت عملية الاختطاف واتجها نحو الجبال حيث السعادة وخلو البال، فقضيا هناك ثلاثة أيام وثلاث ليال وفي اليوم الرابع بينما كان سيابند مستغرقاً في نومه ورأسه على ركبة حبيبته خدجة مرّ بالقرب منهما قطيع من الوعول، عمد واحد منها وهو الأكبر والأجمل إلى خطف أيلة من بين القطيع وفرّ بها بعيداً، وقد رأت خدجة الحادثة فاستعبرت وقد سقطت إحدى عبراتها على خد سيابند فاستيقظ وراى خدجة وهي تبكي بمرارة فقال لها: ((إذا كنت قد اقترنت بي ضد إرادتك و لم تفصحي عن ذلك من قبل فسأعاملك كما يعامل الأخ أخته وسأعيدك فوراً إلى بيت أبيك)) فأجابته خدجة بلهفة وهيام:

((كلا يا حبيبي سيابند إنني أحبُك وأعشقُك وسوف أكون لك الزوجة المخلصة الوفية ما دام الزمن، إلا أنه ما أبكاني ما رأيته منذ لحظة، وكيف أن أيلاً رائعاً تمكن من خطف أيلةً جميلةً من القطيع دون أن يجرؤ أي أيل آخر على معارضته أو مقارعته، وقد بدا لي بأن هذا الأيل يبدو بأنه يماثلك في شجاعته وإقدامه، وقد أثار بي ذكر ما عرض لي من إقدامك وشجاعتك الفائقة التي جعلتني أذرف دموع الغبطة والفرحة)) فسألها سيابند عن الوجهة التي سلكها الأيل وأنثاه، فأطلعته خدجة على الطريق التي فرّا منها. فانتفض سيابند وصاح مزهواً، أنا صياد هذا الجبل وما من أحد يفوقني قدرة بين مخلوقاته ويجرؤ على أن يتحداني. يا للهول.. تحت سمعي وبصري يخطف أيل أيلة من القطيع ويفرّ بها، يا لها من إهانة ألحقها بي هذا الغرّ الأحمق، ثم نهض وانطلق مسرعاً في إثر الأيل حتى وصل إلى مكان مشرف عليه.

فسارع سيابند لتسديد سهمه نحوه ويبدو أن الأيل قد انتبه في تلك اللحظة إلى خصمه فلم يتح له فرصة النيل منه فانقض عليه بأسرع من الرمية، وعاجله بطعنة من قرنيه العظيمتين أردته على صخور وهدة ضيّقة ذات منحدر شديد، ما لبثت خدجة أن وجدته فيها مثخناً في جراحه المميتة، لقد كان قابعاً في قاع تلك الهاوية السحيقة جثة هامدة، فانحنت فوقه تبكي بمرارة ولوعة وانهالت تشتم كل ما حولها وتنفث من أوارها على الغابة وفتنتها وعلى الأزهار والرياحين وعلى جميع عناصر الطبيعة، وما أوتيت من جمال وسحر، فبرمت بكل ما حولها، وراحت تكيل اللّعنات على مياه الينابيع والأجمات والهضاب والآكام وتلك الأرض المخضلة الخضراء التي أفعمت الأيل ومنحته تلك القوة التي جعلته يتغلب على سيابند، وفي نوبة عاتية من اليأس والأسى وهي تنفث ما في صدرها من آلام وحقد على تلك المراعي الخصبة الخضراء والنسيم المترع بعبق الزهور الفواحة الجبلية. وأشعة الشمس التي تسطع على سيبان داغ الذي

آوى إليه ذلك الأيل الشرير. و لم تترك شيئاً مما حولها إلا وأوسعته شتماً وقذفاً وتجريحاً إلا أن ذلك لم يدم طويلاً، فقد تهاوت بالنهاية وسقطت فوق جسد حبيبها وقد فارقتها الحياة..

ومنذ ذلك اليوم لا يزال المارة بذلك المكان يشاهدون شجرة من الزهر الدائم نبتت على قبر الحبيبين لا ينضب ولا ينقطع زهرها إلى الأبد ليكون رمزاً فريداً يبوح بأسرار تلك القصة الفريدة ويذكر بروعة الحب وجبروته وعنفوانه على مر الزمن...

الأعياد والمواسم

بالإضافة إلى الأعياد والاحتفالات العائلية المحضة توجد أعياد موسمية يحتفل بها الرعاة، هذه الأعياد الريفية كانت متنوعة منها: سري بز (SERE PÊZ) وقت ولادة الأغنام، بارودان (BARODAN) وقت الرحيل إلى زوزان (ZOZAN) أو مراعي الصيف برخ بر (BERXBIR) أي تربية المواشي. وأهم هذه الأعياد هو بران بردان (BERAN - BERDAN) الذي يسمونه الأتراك قاسم (KASIM).. وذلك عندما ينتهي موسم الاصطياف وتُترك الأكباش طليقة بين النعاج. وقد ذكر هذا العيد في (الآفستا AVESTA كتاب الزرادشتين المقدس) وفي جميع الأحوال تبقى تلك المناسبات لتكرس هذه الأعياد بأفراحها ومسرّاتها وما تضفيه من السعادة والبهجة بجميع ألوانها. والتي تؤدي غالباً إلى زواج مقبل حيث تلجأ الفتيات لعقد مناديلها الحريرية حول أعناق الخراف المفضلة لديها، والفتى الذي يفك منديلاً ما من رقبة الخروف يكشف عن نفسه كخطيب للفتاة التي ربطت منديلها، فإذا وافق الأهل الذين يكونون على اطلاع تام بالموضوع، يُحتفل بالخطوبة دون أي تلكؤ ثم يعقبها الزواج بالوقت المناسب.

مناسبات احتفالات الرعاة مرتبطة بعملهم، وهناك احتفالات أخرى يشترك فيها الجميع، يتنافس خلالها الواحد الآخر في سبيل من سيشرِّف المناسبة، عيد النوروز (NEWRÛZ) أو نوروج (NÛROJ) وهو عيد كان قائماً في الإسلام سابقاً ولا تزال أهميته كبيرة لدى الإيرانيين، ويحظى بمكانة سامية جداً وخاصة لدى اليزيديين، إذ يعدونه بمثابة صون لدينهم القومي ويحرصون عليه باعتباره عيد رأس السنة الجديدة لديهم (سري صال SERÊSAL) وهو بالحقيقة عيد الربيع، وعيد التجديد. حيث يوافق في يوم أول أربعاء من شهر نيسان أبريل من كل عام[1]، وقد أهمله أكراد العراق وهجروه أو بالأحرى كانوا قد منعوا الاحتفال به، ثم عادوا إليه مرة أخرى بعد مرور عدة سنوات، حتى أنه أصبح العيد القومي الحقيقي الذي يحتفل به الأكراد في السليمانية بالألعاب والأسهم النارية. وفي بغداد بندوات تعمر بالشعر والغناء والرواية، تعلن عنها الصحافة الكردية مسبقاً بإعلانات فخمة وطباعة مزينة خاصة، ويغتنم الطلاب الأكراد الفرصة السانحة دائماً لإقامة مثل هذه الندوات أينما كانوا في سبيل الدعاية والتعريف عن بلادهم من خلال الحفلات التي تهيء لأصدقائهم فرصة الغناء والرقص حسب طابعهم القومي، ففي آخر يوم أربعاء من نهاية السنة في إيران التي تسبق النيروز يرافق الأفراح والابتهاج بالمناسبة طقوس سحرية لها فعالية طرد الأرواح الشريرة، يصبح بعدها اليوم بأكمله سعيداً يبشر بالخير إذ تبدأ السنة بصفحة بيضاء ناصعة نظيفة لا تشوبها شائبة. المدفع (توب أمورفاريد TOP - EMORVA - RID مدفع اللؤلؤ) القائم في قوس ميدان مدينة طهران. ويعتقد بأنه يجلب الحظ لكل من يمرّ من تحته. وتقام الألعاب النارية في الأرض الزرادشتية إذ إن النور هو رمز الإله والصلاح والصدق حسب اعتقادهم، وعادة كسر الأباريق بقدر ما تكون كثيرة تكون بمثابة رقية ضد عين الشر والأذية. رمي الحصى داخل جرة هو من ضروب الكهانة إذ تحدث كلمات

(١) عيد النيروز يحتفل به حالياً في ٢٣ آذار من كل عام، (النّاشر).

تسمع إتفاقاً وبالصدفة. وعائدات دخل مجموعة النذر والقرابين (كاشوك زاني Qashoq - ZANI) تخصص لتحضير نوع من الحساء الذي يضمن الصحة الجيدة طوال أيام السنة القادمة. وهذه العادات القديمة على كل حال أخذت طريقها نحو الزوال.

يشترك الجميع في عيد رأس السنة بتحضير خبز السماني بازان (SAMANI - PAZAN) ويعدّ رمزاً يستعيدون به ذكرى حدائق آدونيس الشهيرة. عندما تظهر أوراق حبوب القمح وتبدو على شكل سلة منبسطة، وعندما يبلغ الزرع مستواه وتظهر سنابله يجري قصّه في تاريخ معيّن بعد نيروز. أي في اليوم الذي يلي دخول الشمس برج الحمل، تهرس الحبوب في هاون لاستخراج عصارته وتبقى الحثالة لتلقى في المياه الجارية. في مساء ذات اليوم تستعمل عصارة القمح المستخرجة في تحضير نوع من الكعك (الكاتو) وكل عائلة تقوم بدعوة الأصدقاء والجيران للاحتفال بذكرى المولد (MEWLÛD) وفي المساء أيضاً يقوم الرقص حول النار التي يُحضّر عليها الكعك، وعندما يتم نضج الكعك توضع الكعكة على صينية ذات مرآة، يوضع عليها أيضاً الكحل والحناء تترك كلها في غرفة مقفلة، يقوم الأشخاص الذين أدُّوا صلواتهم بإضاءة الشموع المنتظمة حول الصينية، وعند الفجر تفتح الغرفة ويرفع الغطاء عن صينية الكعك ثم يجري البحث والتدقيق عن آثار بصمة يدٍ على الكعكة فإذا ما عثر عليها تعم الفرحة والبهجة اعتقاداً بأن روح السيدة عائشة أو فاطمة قد زارت المكان وباركت الاحتفال بترك آثار بصمتها على الكعكة، بعدها توزع الكعكة فيأكل منها الأصدقاء والجيران.. يقول توفيق وهبي: إن هذه العادة أخذت عن الفرس القدامى حيث كان الزائر للكعكة هي الملكة أناهيتا (ANAHITA) ملكة الفرس القدامى أو عشتار (ISHTAR) آلهة الخصب لدى السومريين والبابليين (SUMERO - BABYLONINS) وهذه العادة جذورها بعيدة جداً. وإذا حدث

أن نمت بعض حبات عن غيرها بتأثير رمز النماء والقوة يصبح الطقس الديني حينذاك بحاجة إلى تدخل آلهة الخصب ليصبح المحصول جيداً وفيراً. أما اليوم فتمارس وسائل علمية عملية للحصول على إنتاج وفير جيد، أو الدعاء والابتهال لله العزيز القدير.

في نهاية القرن التاسع عشر، أشار بعض الرحّالة منهم مورجان (MORÇAN) إلى عيد الربيع لدى قبيلة الموكري في سوجي بولاك (SAOUJI - BOULAK) كان يتضمن جميع عناصر الكرنفال بما في ذلك نُصُب الأمير المزيف، وقد أشار توفيق وهبي أنه لا تزال هناك طقوس مشابهة تمارس في فصل الربيع في السليمانية والتحضيرات لهذه المناسبة يعهد بها إلى لجنة خاصة.وفي اليوم المحدد يغادر أهل السليمانية المدينة إلى المكان الذي خصص لإقامة الاحتفال التقليدي، وهناك يختارون واحداً منهم فينصَّب ملكاً ويشكل الآخرون البَلاط، ويعيّن الحرس للملك الذي يمتطي ثوراً يحيط به الحراس والبلاط وحشد كبير من الناس، ويتجه الموكب إلى حيث أقيم المخيّم وما فيه من الخيام والدواوين. ووضعت المراجل والقدور على النار ويتنكر بعضهم بأشكال مختلفة من الغنم والماعز، وهم يمثلون بعضاً من أدوارها طيلة مدة الاحتفال الذي يستمر مدة ثلاثة أيام. الملك أمره مطاع دون أي اعتراض حتى أنه يفرض الضرائب على الشعب وعلى من كان حاضراً أو غائباً ويحتفظ بلقبه حتى السنة التالية عندما يسمى خلفاً له.

لقد أعطانا (أرب شامو EREB CHMO) فكرة عن أعياد شعبية أخرى كان قد شهدها أيام حداثته منها عيد (كوزجلدي KOSE..ÇELDI) وهو نوع آخر من الكرنفال، حيث يتنكر أحد الفتيان بشكل شيخ أو ملاّ بينما يتنكر شاب آخر بشكل امرأة ويتنقل الاثنان من بيت إلى بيت يجمعان الزبدة والجبن والدراهم وما شابه. ومن أجل جمع مزيد من المال، تذهب المرأة المزيفة بالادعاء

بأنها قد أهينت وطعنت في شرفها. وفي مجال التعويض عمّا أصابها والتخلص منها تمنح إما جدياً أو بعض الدراهم، وفي نهاية المطاف يوزع كل ما جمعه الشابان في تنكرهما على العائلات المعوزة الفقيرة.

اللهو والتسلية

في مناسبات هذه الأعياد، الموسمية منها وغير الموسمية حسبما أشار الرحّالة: رتش (RICH)، ميلنجن (MILLINÇ)، ده مولتك (DE MOLTKE) وغيرهم إلى أنه يوجد لدى الأكراد بعض الألعاب الرياضية الشعبية التي لا زالت تمارس إلى الآن:

تأتي في المقام الأول لعبة الـ (حربة CERID) عرض الفروسية أو مباريات عرض البراعة بين الرعاة التي تهيمن على مناسبات الأعراس وعلى أفراح شعبية أخرى.

تاغاله (TAÇHALEH) وهي لعبة أخرى بالفروسية وهي شعبية جداً. ينتظم بها الفرسان متفرقين ثم ينطلقون بجيادهم بأقصى سرعتها وعند وصولهم نقطة معينة يندفع كل منهم إلى مسافة قريبة من الأرض أمام الجواد قليلاً ويغرس عصاً متينة بطول ياردة تقريباً في الأرض، وإذا رميت بشكل صحيح، تقذف حينئذٍ في الهواء، والمهارة هنا تنحصر بأن الفارس عليه أن يجعل العصا ترتد إلى علوٍ يمكنه معه إما من امتطاء الجواد تحتها أو تلقّيها بيده.

الـ (تشوجان CHOÇAN) اليويو وهي لعبة رياضية شبيهة بالهوكي تمارس على ظهور الخيل بمضارب طويلة وكرة خشبية وتعد لعبة قديمة كان السلطان صلاح الدين (الأيوبي) مغرماً بها جداً، وقد لعبها بحماسة كبيرة ومهارة فائقة على العشب بضربات هائلة على ضفاف بردى[1]، إذ كان يخطط لهدفٍ في دمشق.

---

(١) على ضفّة نهر بردى الجنوبيّة حيث مرجة الحشيش التي أوقفت لرعاية الخيل التي أسنّت أو أصيبت أثناء قتال الصّليبيين في بلاد الشّام، (النّاشر).

المصارعة، وهي كما تمارس في تركيا وإيران. ومفضلة لدى الأكراد، وقد زاولها الفتية في الأكراد في بيروت، وتمرنوا عليها جيداً وعلى غيرها من الألعاب الرياضية مثل: الكرات الحديدية، الأثقال، والملاكمة، عدا كرة القدم وكرة السلة. وأكثر الألعاب شعبية هي الـ (هول أو كوك HOL, ÇOK) التي تشابه الهوكي. قتال الديكة، وكذلك لعبة المعارك بين طيور الحجل لا تزال متبعة، إلا أن قتال الجواميس أكثر إثارة من غيرها، كما أن صراع الأكباش له روعة خاصة، الرعاة الصغار لهم أيضاً تسليتهم الخاصة. أشار أرب شامو أيضاً إلى لعبة زي زي (Zé Zé) (أطراف النهر)، السباق، ألعاب الطابة، ورمي الحجر، زيادة على ذلك، هناك كثير من الألعاب التي تشبه ألعاب أولاد الأوربيين كقفزة الضفدع، الغميضة، لعبة السجناء، إلخ.. لعبة البيلية الرخامية كاك (Qaq) هي أيضاً معروفة كلعبة أطراف النهر، تالول (TALÛL) وألعاب المطاردة، بينما يسلّي الأطفال أنفسهم ولا سيما في فصل الشتاء مثل باقي الأطفال في أنحاء العالم بألعاب (طيران الطيور جوك فري ÇÛKFIRÎ)، وفي المدرسة (DIBISTAN) نوع من (الكوكل الحار) وهو من الصدفيات، الحجْلة ((قفزة الصبي على رجل واحدة)) برداك (Berdaq) ولا سيما بالبرجمة (أكعاب العظم، السلامي) أما الكبار فينغمسون بالألعاب التي تعتبر أكثر جدية كلعب الورق اسكنبيل (ISKENBIL) ولعبة النرد (الزهر) (ZAR) لها كثير من المتحمسين بين الشباب المتأنقين من العائلات الغنية، بناء لقول السيد فيلتشيفسكي (VILTCHEVSKY) فإن لعبة ترك تراك (TRIC - TRAC) طاولة الزهر (النرد NARD) متواترة دائمة طوال أيام السنة في دور المقاهي (CHAIKHANA)، تبقى اللعبة البارزة الراقية التي تسود جمهور المثقفين وتشكل رمزاً للمستويات الراقية وكل آغا مرموق ألا وهي الشطرنج (SETRENÇ) تلك اللعبة التي كان صلاح الدين مولعاً بها، وكان يقضي بها معظم أوقات فراغه.

واستمراراً للحديث عن تلك التسليات التي تتسم بطابع خاص، نجد هناك تسليات أخرى عامة يستمتع الناس بها بشكل كبير. ففي مناسبة عاشوراء مثلاً يقوم الشيعة الإيرانيون بتنظيم مشاهد مسرحية ذات طقوس دينية يسمونها التعزية (TAZIYA) وهي تتوافق مع تمثيليات القرون الوسطى عن آلام السيد المسيح بين ليلة العشاء الأخير (وسوقه للصَّلب) [كما يعتقد المسيحيون] والأكراد بصرف النظر عن تحدّرهم من مجتمع فريد، فهم ليسوا من الشيعة أبداً وهم يأنفون من هذه التمثيلية.. الكركوز (KARAÇÔZ) أو الشيخ الصيني، فهو مسرح يلاقي الاستحسان والرواج في كردستان، إلى جانب أن المسرح اليوم الذي يكاد يكون ضعيفاً لدى الشعوب العربية. ليس موجوداً فعلياً بين الأكراد ولا غرابة في ذلك، غير أننا نرى من وجهة ثانية أن بعض كتاب المسرحيات العربية مثل جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ - ١٩٣٦م) وهو كردي صرف، وكثيراً من المسرحيات التراجيدية الممتازة التي كتبت من قبل أمير الشعراء أحمد شوقي (١٨٦٨ - ١٩٣٢م) وهو أيضاً كردي الأصل، وكانت في السليمانية بعض محاولات جامعية درامية، وخلال فترة دولة مهاباد في إيران (١٩٤٥ - ١٩٤٦م) أيضاً، كما أنه كان في يريفان في أرمينية السوفيتية أول مسرح كردي أنشأ في عام (١٩٣٤م). وأقيم أيضاً في بلدة علي كوتشك فرقة من الممثلين المسرحيين، ولكن الكاتب لم يكن يعرف شيئاً عن خصائصها الفنية ولا مدى النجاح الذي أحرزته بالمجتمع الكردي. بين أكراد أرمينية يسمع المرء عن الأفلام الكردية بما في ذلك التأليف والإخراج والتمثيل بالمواضع التقليدية الكردية، وهناك كثير من الفتيان أيضاً عرفوا في إذاعة راديو يريفان وأصبحوا يذيعون تمثيليات كردية من خلال (المذياع)، أما الدراما الكردية فلا تزال في مستهلها ويخشى أن تكون الرغبة الزائدة في السينما هي التي يمكن أن تقضي عليها قبل أن تصل إلى طور النضوج. ولكن بعد هذا يجب ألا نغفل الإنجازات الداخلية في المنزل الذي يصرف فيه المواطن الكردي الجزء الأكبر من فراغه للراحة والاسترخاء.

الصيد والقنص

يمكن التصور بسهولة بأن هذا النوع من اللهو يستهويه الكردي الذي هو قبل كل شيء ابن الطبيعة والهواء الطلق، لذلك تراه يفتش عن لهوه خارج المنزل. وفي رأس القائمة يأتي الصيد والبحث عن اللهو واللعب. الإنسان الكردي هو بالواقع رجل رياضي بالغ الحماسة ورام رائع، والصيد هو رياضته المفضلة، ولا يتردد في دعوة ضيوفه بحسٍّ مرهف وسرور ولا سيما إذا كان من أسرة مرموقة إلى حفلة عامرة من حفلات الصيد فالبلاد زاخرة بجميع أصناف الصيد من ذوات الريش، وممارسة هذه الرياضة هو اتباع لما يعرف بالرياضة الملكية المفضلة. حيث يجري اصطياد أنواع كثيرة من الحيوانات المفترسة مثل الدب، الضبع، الثعلب، الخنزير البري (لا يؤكل لدى الأكراد) كان حتى نهاية القرن الماضي إذا تناول الأسد الذي اختفى تماماً كان لا يزال يطلبه الصيادون، أما الأرنب البري فيصيدونه من أجل لحمه وكذلك الوعل. وهناك مثل يجدر ذكره هنا «إذا أراد المرء اصطياد النسر فعليه أن يواجه بشجاعة أخطار الصعود إلى أعالي القمم الشاهقة حيث النسر».

وينطبق هذا على المفلون (أوربة، كورسيكا، وسردينيا)، وفي كردستان العراقية على شواطئ سروان (SIRWAN) يتوافر كثيراً صيد جميع أنواع الطيور. الحجل صيده يستأثر بمكانة خاصة وتستعمل طرق كثيرة في صيده وهنا تعتمد الرغبة فيما إذا كانت بقتله أو إمساكه حياً لتأهيله، لذلك تستخدم البندقية أو الشبكة والشرك، وفي أيام الثلج يمكن إمساك الحجل باليد المجردة، وفي فصل الربيع يطلقون عليها الذّخيرة من كمائن ومخابئ، والأماكن المغطاة جيداً من أجل الكمين تكلف كثيراً، ويمكن أن تكلف في بعض الأحيان ما يعادل مهر فتاة. كلاب الصيد السلوقية الكردية شهيرة وكبيرة تعادل بحجمها كلاب الرعاة، ويدرب بعض الصقور في هواية الصيد بالباز. الصقر الملكي شاهين

(SAHIN) الذي تساوي قيمته ما يعادل ٣٠ليرة ذهبية أو أكثر ويستعمل لمطاردة طيور اللقلق، الـ (سيبير SIPIR) الذي يساوي ٢٠ليرة والدوكسان (DOXAN) قيمته أخفض من ذلك ويستعمل لمطاردة الحجل والحمام البري.

هناك أشهر صياد في الشرق الأوسط إلى اليوم بلا منازع يقيم في إحدى ضواحي دمشق وهو مواطن كردي يدعى حسين إيبش وقد نوه آنفاً بمشاريعه في التطور الاجتماعي، وقد مارس هواية الصيد منذ عام ١٩٠٠م في اصطياد الغزلان والوعول في منطقة تدمر في [البادية السورية]، وبعد ذلك بعشر سنوات راح يصطاد الجاموس البري في السودان ووحيد القرن والفهد ثم تابع هوايته فاصطاد في يوغندة وفي الكونجو البلجيكية، وفي الهند اصطاد النمور والأفيال، وفي إفريقية الغربية بالمستعمرات البرتغالية اصطاد البقر الوحشي والنعام. وقصره في دمشق مزدان بأعداد كثيرة من تذكارات الصيد المحنّطة التي شكلت متحفاً حقيقياً ضخماً لحيوانات غريبة مفترسة.

الصيادون الأكراد هم كإخوانهم من الصيادين في أنحاء العالم غالباً ما يتمتعون بروح الحماسة والفخر ويستمتعون كثيراً برواية القصة الطويلة عن أعمالهم البطولية الخارقة وبلائهم في ميدان المعارك.

حدث في أيام بدرخان، أن انطلق أسد في منطقة الجزيرة وأخذ يفترس الماشية والأغنام، وبعد أن حاول أمير بوطان عبثاً صيده، أمر بقرع الطبول معلناً عن مكافأة لمن يتمكن من قتل هذا الحيوان المفترس، وقد صادف أن قدم أحد الرحّل الأكراد ويدعى جاريزي (ÇARIZI) إلى الجزيرة وقد اجتذبه سحر الجائزة وأغراه المال، ولم يكن يحمل أي سلاح سوى هراوة كبيرة (دلبه) ولم يكد يصل إلى حيث يتردد الأسد، حتى برز له وجهاً لوجه، وقبل أن يتمكن الأسد من مهاجمته عاجله صاحبنا بضربة هائلة جبارة من هراوته المتينة الصلبة بين عينيه تماماً كما يضرب الثعلب العادي، فخرّ الأسد صريعاً بلا حراك أمام

قدميه، وهنا دخل في روع الرجل أن الذي قتل هو كلب الأمير وليس الأسد إذ يبدو بأنه لا يعرف شيئاً عن الأسد، وخوفاً من أن يقع بين أيدي رجال الأمير، ترك المدينة ولاذ بالفرار، وقد صادف أن مرّ شخص ماكر جداً من بوطان بالقرب من المكان وشاهد جثة الأسد فوضع فوهة بندقيته تحت أذنه وأطلق النار، ثم سلخ الأسد ووضع جلده على ظهره وحمله إلى قصر الأمير. فأُعلم الأمير بالأمر فوراً، وقبل أن يمنح المكافأة للرجل البوطي بدأ يحقق معه. ولكنه لاحظ بسرعة البديهة أنه لا يمكن أن يكون هذا الشخص نفسه هو الذي قتل الأسد. عندئذ أمسك وأعلن بواسطة رسله بأنه يرغب في معرفة الرجل الحقيقي الذي قتل الأسد.

وفي الوقت نفسه كان صاحبنا يقص قصة على أحد أصحاب الدكاكين، إذ ما زال يعتقد بأنه قتل كلب الأمير، وقد روى قصته بما أمكن من الاختصار، حينئذ طلب منه البائع أن يطلعه على التفاصيل بدقة عن عمله الجريء البطولي، وأخيراً وبعد أن استوضح الأمر، قال له: ((إنه لم يكن كلب الأمير بل الأسد الذي قتلته بالحقيقة)) أسرع يا صاحبي إلى القصر واحصل على المكافأة. فذهب إلى القصر من فوره ولما رأى جلد الأسد أعلن لمن حوله قائلاً: إذا لم يكن من شيء آخر سوى هذا الجرح الذي في الرأس فإنني أنا الذي قتل الأسد بعصاي هذه.

حُمل النبأ إلى الأمير فاستدعى الرجل، وبمجرد أن رأى شكله الذي يوحي بالشدة والشجاعة والبأس أيقن بأن مثل هذا الرجل لا بد وأن يملك القدرة الكافية تماماً لقتل الأسد بعصاه. ثم ما لبث أن بدأ معه بالحوار التالي: أأنت الذي قتلت الأسد؟ فأجاب: يا سيدي إذا لم يكن أي شيء آخر سوى ذلك الجرح الذي في رأسه أقول بأنه أنا من قتل الأسد. كيف قتلته؟ ((يا سيدي الأمير لنفترض بأنك أنت الأسد وأنا. أنا. تمام! عندما حاول أن يثب علي،

رفعت عصاي بهذا الشكل (وأراه كيف رفع عصاه بالفعل) وضربته بين عينيه)) وقد أوشك أن يضرب الأمير بين عينيه لولا أن رجال الأمير أمسكوا بيده في اللحظة الحاسمة وبظرف دقيق جداً (رائع) قال الأمير: إنك أنت بلا شك الذي قتل الأسد. تكلم. ماذا تتمنى حتى أعطيه لك؟ ((يا سيدي أنا لا أريد شيئاً. إنني أحتاج فقط إلى قطعة فضة لدفع الضريبة المترتبة علي لسمو الأمير)). منذ اليوم أنت معفى من الضرائب، ماذا تريد منحة لك أيضاً؟ ((يا سيدي الأمير لدي بندقيتي، وعندي أغنامي وأملك مستودعاً للمؤونة. فلا أبغي زيادة على ذلك)) ولما لم يتمكن الأمير من إغراء الرجل وحمله على الطلب أمر رجاله لمرافقته إلى السوق وشراء بعض الثياب له ولأولاده بالإضافة إلى سيف وبندقية مرصعين بالفضة.

هذه النادرة ونوادر أخرى كثيرة يقصها علينا السيد عثمان صبري بحماس وفخر الذي يعد من أحسن رواة القصص الكردية الرائعة.

صيد الأسماك، الذي يعدّ مهنة بالطبع، هو مع ذلك يعد رياضة تغمر هواتها بالسعادة والمرح وهي شائعة جداً إذ إن السّمك وفير جداً في نهر الفرات وروافده، وكذلك في الدجلة والخابور[1] وفي الزابين الكبير والصغير وفي غيرها من الأنهار الأخرى الكثيرة في كردستان. وتمارس بواسطة الشبكة تور (TOR) وفي الصنارة والخيط شنكل (ÇENÇAL) وفي الحربون أيضاً (رمح لصيد السمك) ومتران (METRAN) ويستعمل هذا الأخير لصيد السمك الكبير مثل السلّور في نهر الزاب، والتي تلامس الأرض من طرفي الذيل والرأس عندما توضع على ظهر الحمار لنقلها إلى السوق دليلاً على ضخامة حجمها.

---

(١) الخابور هنا هو (الخابور الأصغر) أحد روافد دجلة، ينبع من جنوب أرمينية ويمر من مدينة زاخو، ويصب في دجلة شمال بلدة فش خابور، قرب الحدود السُّورية - العراقية - التركيَّة حالياً (النَّاشر).

الفصل السابع

الأيام السوداء

كردستان كغيرها من البلاد النامية، تنقصها الوسائل الصحية، فالمنازل كما هو معلوم وبصورة خاصة بالقرى لا تفتقر لتمديد المياه والكهرباء فحسب بل يعوزها الاستعداد الصحي. فغالباً ما ترى بعض الأهالي يستعملون بئر القرية من أجل الوضوء مثلاً. ولكن الآن أصبح يقام في القرى الكبيرة أبنية صغيرة للمراحيض العامة، لذا فإن بعوضة الملاريا يمكنها أن تعيش في تلك الأماكن وحتى ارتفاع ٦٠٠٠قدم، وتنتشر تلك الحشرة في جميع حقول الأرز. وكذلك الذباب يتكاثر بشكل يضايق المارة والمسافرين، وفي الربيع تكثر البراغيث بشكل يفضّل معه الإنسان أن يقيم خارج البيت. أما في الأماكن الواقعة على الحدود الفارسية، فيوجد نوع من القراد الذي يمتص من دم الإنسان أثناء النوم، والمستشفيات لا تتوافر إلا في المدن الكبرى كالسليمانية أو حلبشة (HALEBCHA) وأسرّتها ليست كافية، والأطباء قلّة بشكل عام ومعدومون بالقرى، حيث تقتصر الدولة على مستوصف يديره ممرض معتمد لا يتعدى عمله عن توزيع بعض الأدوية الأولية مثل الكينين والملح الإنكليزي والإسبرين إلخ.. وهكذا يجد الإنسان ملاحظة أحد الأطباء الإنكليز صادقة وهي: ((من

جهتي كطبيب أستطيع القول: إن العراق موقع خصب للأمراض والأوبئة لا تدانيها أرض أخرى في أنحاء العالم)).

الأمراض والأوبئة

إذن فالحياة ليست نزهة في كردستان، إذ تنتشر فيها مختلف أنواع الأمراض والأوبئة بصورة دائمة. إن الحياة التي يحياها الرُّحَّل في العراء، والصيد وأخطاره، والشجار بين الرعاة وحراس الكروم، وأصحاب الدكاكين وغيره كل ذلك يسبب عادة الجراح والإصابات والآلام، والكردي حاد بطبعه وخنجره دائماً بمتناول يده. كما أن الخطر يصيب بعضهم من الحيوانات أيضاً. كعضة كلب أو ذئب، أو لدغات الأفاعي والعقارب، والجراح من قرون الأكباش والثيران، ومن مفاجآت استعمالات الأسلحة النارية وكذلك الحروق أيضاً شائعة.

وكذلك قساوة المناخ وظروف الحياة البدائية تجعل الأكراد عرضة لأنواع العلل. وتنمو هذه الأمراض بالطبع بسبب الفقر، وفقدان الوسائل الصحية... فسوء التغذية مثلاً يسبب موت ٥٠٪ من الأطفال والذي تصل نسبته إلى ٢٠ - ٤٠٪ من من مجموع الوفيات بشكل عام، وهي درجة مخيفة جداً، فمعدل الحياة بين الكبار لا يتجاوز سن الـ ٣٠ ويمكن أن يكون ٢٨ سنة حسب رأي بعض الخبراء. أمراض العين وقلة الإبصار والتهاب الملتحمة والتراخوما شائعة جداً، وكذلك العمى أيضاً يستوفي قسطه وضريبته، وللسل ضحاياه على عكس السفلس الذي لم يكن معروفاً حتى بداية هذا القرن حسب رأي مارك سايكس (MARK SYKES) ما عدا نوع من السفلس الصبياني (البجل BEJEL) الذي يصب أيضاً العرب الذين يعيشون كالأكراد على شواطئ أنهر الزابين الكبير والصغير والدجلة والفرات، الملاريا تستشري وتدمر حياة الكثير الذين تبلغ نسبتهم ربع الوفيات تقريباً، ولكنها أبعدت بصورة عملية وفعّالة عن بعض المناطق العراقية وكردستان في عام ١٩٥٣م وما بعده من الأعوام حيث قام

الطبيب الإيطالي لويجي مار (LUIÇI MARA) من منظمة الصحة العالمية بحملة رائعة ضد الملاريا لدرجة أصبح الأكراد يسمونه الدكتور ملاريا. الجدري ينتشر في أماكن متفرقة وله ضحايا كثيرة. وكثير من الأكراد تراهم يحملون آثاره في وجوههم. أمراض المعدة مألوفة ومختلفة، والديدان المعوية هي أيضاً شائعة وكذلك الزحار، والإسهال ينتشر بشكل مخيف حتى إن المسافرين المارّين بتلك المناطق يتعرضون لإصابتها بسرعة فائقة ويصيبهم إما على شكل عضوي باسيلي أو أميبي وحيد الخلية، وتجدر الإشارة إلى أن بعض الصحفيين الأمريكيين والأوربيين الذين غامروا داخل كردستان أثناء حوادث عام ١٩٦٣ و١٩٦٤م أصيبوا بدرجات متفاوتة من هذه الأمراض، وأمراض الكبد لم تكن مجهولة، كما أن الروماتزم منتشر أيضاً. إن الأعراض التي أدت إلى نسبة كبيرة من الوفيات حسب أحد التقارير الرسمية في لواء السليمانية عام ١٩٥٢م كانت كما يلي: ذات الرئة ٦٩، ملاريا ٦٦، فقر الدم ٥٧، أمراض القلب ٣٤، التهاب الكُلَى ٣٠، الحمى الراجعة ٢٣، السل ٢٣، الزحار ١٧، وأمراض أخرى لم تشخص ٢٦٤، وهذه الإحصاءات ليست دقيقة تماماً، فضخامة هذه النسبة من الأمراض لا يمكن تجاهلها بأي حال من الأحوال.

العلاجات

ليس هناك أكثر من انتشار أحد الأمراض المعدية الذي يمكن أن يشكل بحد ذاته خطراً على مجتمع بأسره، وتجاه ذلك ترى أن ذلك المجتمع لا يهمل التزود بوسائل معالجة المرض المذكور، علماً بأن الأكراد لديهم دائماً الوسائل التقليدية المختلفة للمعالجة، يأتي بالدرجة الأولى الإيمان بالله واللجوء إليه سبحانه وتعالى، ثم إلى أنبيائه وأوليائه الصالحين، وعندئذ تلعب الحجب والتعاويذ أدوارها، وتمارس قليلاً أو كثيراً الرقيات السحرية، ثم العلاجات الطبيعية المجربة التي يكثر استعمالها، وفي الآونة الأخيرة أصبح الأكراد يلجؤون إلى مراجعة الأطباء الأكفاء.

المرض يجيء من الله سبحانه وتعالى ومن الله يأتي الشفاء، لذلك يلجأ المريض للتقرب من الله في بادئ الأمر، ويتّبع في ذلك ما كان يقوم به النبي ﷺ بذاته في حال المرض بما جاء عن عائشة زوج الرسول ﷺ المفضلة أنه عندما كان يشعر الرسول ﷺ بمرض في عضو من أعضائه يبادر لكف يده اليمنى ويردد بسم الله الرحمن الرحيم ثم يتلو سورتَيْن من القرآن الكريم يرجو بها ربّه المساعدة والشفاء، حيث يمر بكفّه بعد التلاوة على العضو الذي يشكو منه فيشفى في الحال. وقد يشرب ماءً يبث فيه بعض الآيات القرآنية المكتوبة على ورقة ما. وتستعمل هذه الطريقة يومياً، وهذا العلاج يكفي لمعالجة جميع أنواع الأمراض[١].

وزيارة أضرحة الأولياء والدعاء عندهم هي أيضاً إحدى الطرق الشعبية للعلاج. وفي هذا المضمار، الموضوع لا يختلف كثيراً بين المسلم والمسيحي وخير مثال على ذلك. قبر الأب (ليوبولدو سولديني LEOPOLDO SOLDINI) أحد المبشرين الدومنيكان والعالم النباتي المشهور والطبيب الجراح الكبير، لا يزال حتى يومنا هذا ملاذاً لشفاء الحمّيات إذ يعوده الإسلام والمسيحيون واليهود من الأكراد. يأخذ الأهل أولادهم حاملين معهم كعكة صغيرة وبصلة وملحاً يتركونها كتقدمة للقديس مع طاس من الماء يستعملونه في غسل الشخص المريض، ثم لا يلبث أن يكسر الوعاء بعد ذلك على القبر ومن المعتقد المسلم به أن تأثير بركة أرض الأماكن المقدسة فعال جداً ضد مختلف الأمراض والآلام، وعلى سبيل المثال: إذا أصيب أحدهم بحكة جلدية أو أي مرض جلدي آخر لا يتردد بالمعالجة على الطريقة التالية: ولا سيما إذا كان من اليزيديين. فيذهب إلى مزار الشيخ (موسى سور MOUSASOR) اليزيدي مصطحباً جرّة ماء يرش بها أرض ذلك المكان المقدس فتترطب. فيبادر لجمع قسم من ذلك التراب الندي ليستعمله على المكان المصاب من الجلد ويكسر الوعاء الذي كان يحتوي على

---

(١) أمر رسول الله ﷺ باتخاذ الأسباب، وأخذ الدواء المناسب لكل مرض، جاء في البخاري: كتاب الطب ٥٣٥٤: ((ما أنزل الله داء إلاّ أنزل له شفاء))، (النّاشر).

الماء، وقد برع في هذا المجال بعض المشايخ مستغلين سذاجة البسطاء بطريقة فائقة وقد لجأ بعضهم من المشعوذين لأن يحتفظ لديه ببعض التراب يجمعه من عدة مزارات في صناديق تستعمل عند الحاجة، وكل واحد من أولئك الأفاكين الدجالين له اختصاصه واستطباباته. أمراض العين، آلام الأعضاء، القبض والإمساك، الإسهال والعلاجات لهذه الأمراض تؤخذ بالماء عن طريق الفم للمعالجة الداخلية، وتستعمل بالوقت نفسه للآلام والأمراض الخارجية، وتكون فعّالة ولا سيما إذا استعملت بعد سبعة أيام متوالية من الصيام والصلاة (إسماعيل بك نكولو ISMAIL BEÇ TCHOLO) أمير اليزيديين، كان رجلاً عديم الضمير ومجرّداً من المبادئ الخلقية فقد كان لا يتردد في استعمال قواه الخارقة في الشفاء كما يزعم، فمثلاً، كان لا يتورع عن جعل بعض النساء الساذجات المغفلات من قبيلة جمال الدين على الحدود الإيرانية التركية يشربن من الماء الذي يكون قد بصق فيه. فتشفى المريضة، وتحمل العاقر وتنجب الأطفال وتعود المهجورات إلى أحضان أزواجهن على حد زعمه، كما كان يعطي من الماء ذاته أيضاً إلى النسوة اللواتي يموت أطفالهن.

وهذه القوة أو الطريقة التي يملكها يدّعي بأنه حصل عليها من ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني الكبير، ومثلاً آخر على شفاء ولد محموم. أنه يربط خيطاً أحمر حول رقبته أو ذراعه وهذا يكفي لشفائه وهو مع هذا يدرك تماماً بقرارة نفسه بأن جميع أعماله هذه التي يمارسها لا تخرج عن كونها أعمال خرقاء وسلوك أحمق وشعوذة. الثؤلول حسب منطقه. أسبابه ملامسة القدم لبول الضفدع، ويشفى في موقع باشيكا (BASHIQA) في زيارة مليك ميران (MELIK - MERAN) الاختصاصي بذلك المرض في تلك المنطقة، ومن ضروريات الشفاء أن يُرمى جزء من القش تربط في خرقة إلى وعاء من ماء النبع وعندما يصيب القشة التلف يختفي الثؤلول.

إلا أن هذه العلاجات الخرافية ليست سائدة بمجملها بين الأكراد، فهم لا يجهلون الأدوية الطبيعية والعلاجات المجربة ذات النتائج الحقيقية، فكل قبيلة لها طبيبها الخاص (HEKÎMê KURMANCÎ) الذي يتمتع بمعرفة وراثية ويلم في شفاء كثير من الأمراض الخاصة البسيطة وذلك عن طريق الخبرة والتمرين، فيعتمدونه كما يعتمدون النساء المسنّات أيضاً الخبيرات في هذه المهنة، ويلجؤون إليهن في حالات التشريب والرّزق والكمادات. في القرن الثامن عشر كان أوائل المبشرين في كردستان أساتذة مهرة في هذا النوع من الطب مثل الأب جارزوني (ÇARZONI) الذي كان يدعى «الأب الكردي» أثرى سجلنا بهذا الصدد والأب كامبانيل (CAMPANILE) بين لنا استعمالات كثير من الأعشاب المختلفة التي وضعها الكرد. منها السَّعد (نبات من فصيلة السعدية) يقوي الأسنان، المريمية (القصعين) يعزّز التعرق ويمنع السكتة الدماغية، وبذور ثمرة الآجنوس كاستوس (ثمر يشبه الفلفل) مفيدة جداً من أجل الدورة الشهرية لدى الفتيات، وأوراق الشقّار (شقائق النعمان) من أجل القروح، وتفيد أيضاً لعلاج التهاب القصبات وفي علاج العقم لدى النّساء فيصبحن قابلات للإنجاب، نبات البنج يجلب النّوم ويمنح أحلاماً هادئة، أوراق الحمّاض تنظم أحماض الجسم وتثير الشهية، وقطرات الزئبق الأبيض تطفئ حرقة المعدة الناجمة عن سوء الهضم، وجذور السحلب تنشط قوة الجسم الطبيعية، رعي الحمام (نبات زهره مختلف الألوان) وهو نادر تقريباً ويستعمل في معالجة الطحال عوضاً عن الشوكران (نبات يستخرج من ثمره شراب سام) غير معروف لدى الأكراد، السرفيل (المقدونس الإفرنجي) هو أيضاً نادر وهو منشط للقلب. الإفسنتين موجود بكثرة ويستعمل مقوياً للمعدة وهو مرير نبتة زيت الخروع تنمو بكثرة ويستعمل زيتها للصباغ وللدّلك لمقاومة البرد والمغص، الشجرة الجنوبية (نوع من القيصوم) إذا وضعت بالقرب من الماء يصبح لديها القدرة

على طرد السموم منها، ويستعمل الرعـاة عصـارة الفربيـون (نبـات ذو عصـارة لبنية) ومريرة مطهراً يخلط مع عصير العنب، وفي بعـض الأحيـان يسـتعاض عـن ذلك بالتفاح المر أو بـذور الفربيـون وكـلا العلاجـين لا يضمنـا السـلامة تمامـاً، وأخيراً اليبروج أو اللفّاح (نبات عشبي من الفصيلـة الباذنجانيـة) الـذي يجـب أن يجمع بمنتهى العناية والدقة وله شهرته وفعاليته بمضمار إثارة الشهوة الجنسية.

ولكن علوم المداواة هذه لا تقتصر على الحشائش الطبية، فقد سجل الدكتور الفرنسي مـاركيز (MARQUIS) عـام ١٩٤٨م أنـه شـاهد بـأم عينـه في أمـاكن مختلفة في كردستان أن بعض النسوة المسنّات كن يدركن بالنتائج المفيدة لعمليـة وضع بعض التراب النـاعم علـى قطعـة مـن الخبز (بمثابـة البنسلين الأزرق) ثـم وضعها على الجراح العميقة ومكان المرض. وهذا يقوم مقام البنسيلين، والجروح غالباً تعالج بالكي. والعلاج بالكي هو عبارة عن خليط من الملح وبياض البيـض والزبدة والعسل، توضع على الجرح وهي حـارة بدرجـة الغليـان، والفتيلـة الـتي كانت تستعمل لإزالة القيح من الجروح لم تكن مجهولة أيضاً، وجراح العيـارات النارية تداوى بالمستحضر المؤلف من الأعشاب والبارود، ولاستخراج الرصاصة يحـدث شـق في اللحـم، وإذا كـان العظـم مكسـوراً فـالجرّاح أو المجـبر يتكفـل بمداواتها وتقويمها، وبعض المجبرين الممارسين يتمتعـون بمهـارة فائقـة، وإذا كـان الكسر عنيفاً توضع عليه ضمادة تحتوي على سمكة صغيرة وتترك حتى تفسـد إذ من المفروض أنها تليّن العظم ليسهل تقويمه، وتكرّر العملية حسب الحاجة. ومن أجل آلام الظهر إثر سقوط مـن علـى ظهـر جـواد يستعمل جلـد مـاعز طـازج ويترك على موضع الألم حتى يفسد وبذلـك يكـون قـد تمَّ الشـفاء، أمـا بعـض الأطباء الهواة فغالباً ما يهملون..

حدث مرة أن صادف السيد ويجرام (REV - WIÇRAM) مشعوذاً في بـرزان يحاول خداع رجل يشكو من التراخوما وإقناعه بأنه يمكنه إزالة (المواد المتراكمـة

في عينيه) من وراء بؤبؤ العين وذلك بتمرير سفود أبيض ساخن داخل الصدغين.. وهناك آخر أراد أن يختبر بندقيته التي كسبها حديثاً فأطلقها على عظمة ساقه ثم بادر لملء الثقب بمزيج الزبدة وزبل البقر، ولا يخفى بأن ضمادة زبل البقر وطلاؤه يستعمل في بعض الأحيان لمعالجة الحروق أيضاً.

ولكن بالرغم من اضطراد العوائق في مجتمعات معيّنة، فلا يزال المواطن الكردي يبحث ويفتش عن الخدمات والعلاجات الناجعة لدى الطبيب الرسمي المجاز أو الممرض الذي وضعته الدولة تحت تصرفه بالمستوصفات بالقرى الكبيرة. أو يذهب إلى طبيب خاص، والطبيب عادة يحظى باعتبار كبير، وعليه تجاه ذلك ألا يؤخذ بالكلمات المعسولة والمديح، وقد يكسب الثقة والاحترام بقدر ما تنجح وصفاته في شفاء الأمراض. وهكذا ينخفض استعمال الدواء الذي لا تثبت فعاليته. فالكردي بطبعه يرغب في العلاج القوي، فمثلاً الجرعة العادية من الملح الإنكليزي أو المانيزا للآشوريين (٣) مقادير بينما توصف للأكراد (٥) وزرق الإبر تحت الجلد يطلب بكثرة لأن مفعولها سريع، أما طبيب القبيلة فلا تدفع له أتعابه حتى تنجح معالجته ووصفاته.

وفي مستوصفات الحكومة العراقية المعالجة مجانية بشكل عام.. إلا أنه بالرغم من ذلك فإن الكردي بفطرته دائم الشكر والامتنان للمعروف ولا يتردد بتقديم الهدية إلى الطبيب الذي عالجه وشفاه، ولا يخفى أنه في هذه الأيام أصبح كثير من الأكراد في العراق وتركية يدرسون الطب في الجامعات ويبذلون مهاراتهم وخبراتهم في سبيل خدمة ومنفعة مواطنيهم وكما هي الحال في الطب فهي كذلك في المحاماة، فالأطباء والمحامون يتحدرون عادة من العائلات الكبيرة ذات النفوذ وبهذا تتعزّز سيطرة هذه الأسر ونفوذها على باقي أفراد الشعب.

الطريق التي يجب أن يعبرها الجميع

مهما كان مدى الاعتقاد في الحجب والتعاويذ. مهما بلغت فضائل الأدوية الناجعة التي يستعملها المواطن الكردي فهو كغيره من الناس يؤمن في النهاية المحتومة فالحياة لا بد أن يعقبها الموت. والموت عندما يحين تنقلب الأفراح إلى أتراح والأغاني إلى بكاء ونحيب، وللأكراد عادات وتقاليد خاصة في تشييع الجنازة ودفنها، والكردي صارم وعنيف جداً بطبعه، إذ يمكنه مواجهة الموت بشجاعة وإقدام كما يتبيّن ذلك في الأمثال التالية: ((الذي يعرف الحياة جيداً يجب ألاّ يهاب الموت. عندما يقدّم الموت كأس لك، ضعها على شفتيك من دون أسف أو ندم، إن هو إلا مجرد الساعة التي تفرقك عن أولئك الذين تركتهم خلفك))، ولكن الكردي يفضل أن يموت في معركة على أن يموت في السرير، ولا سيما بعد معاناته من مرض طويل الأمد ((دع الموت يدنو فلا خير في العمر الطويل - الموت! ليكن الموت ولكن ما معنى العذاب؟)).

عندما يموت الرجل عند اليزيديين يجب أن يساعده أخوه الذي هو من العالم الآخر فعليه أن يساعده لاجتياز ذلك النهر الهائل المخيف إذا لزم الأمر، إذ إن الموت سيستمر طويلاً، يكفّن جسم الميت عادة بسرعة، ويتم ذلك من قبل المغسِّل المختص وأحياناً من قبل البير (الملاّ) وبعد عملية الغسل يمسح الجسم بأعشاب عطرية لطيفة ويُلفُّ بكفن أو عدة أكفان غير مخيّطة من القماش القطني.. في الماضي ولا سيما في حال كون الميت شاباً كان يوضع في غرفته تمثالاً على شكل دمية تمثله، وقد كانوا يطلقون عليها اسم شجرة الحداد (DARê SÎNê) حتى إذا ما حل وقت التشييع وسار الموكب الجنائزي، أجلست الدمية على حصان الشاب المتوفّى المفضل، ورافقت الموكب، ومن ناحية أخرى يجب أن يبقى النور ساطعاً يحترق لمدة ٣ أيام في غرفة المأتم والجنّاز.

الدّفن عادة يتم في اليوم ذاته من الوفاة، ويؤخر إذا كان الموت اغتيالاً. في هذه الحال لا يدفن الميّت إلا بعد الانتقام له والقضاء على قاتله. يوضع الجسد على حمّالة وليس في تابوت وبعدها يتم دفن الميّت في المقبرة من قبل الأصدقاء، ويتم التشييع من قبل الأقرباء والأصدقاء معاً، وحسب العادة فإن النسوة اللواتي يمشين خلف وثن كبير أعد لهذه المناسبة وهن يندبن صاحبات لسن مستثنيات، وإذا كان شخصاً ذا مكانة مرموقة يكسى حصانه بالجوخ الأسود ويسير وراءه حتى مثواه الأخير. أما الأطفال فعند موتهم يلفّ الطفل ويدرج في سجادة صلاة، ومن ثم يؤتى بدجاجة فيقطع رأسها ويدفن ذلك الرأس مع الطفل ليجنب العائلة حوادث مماثلة محزنة أخرى.

يوضع الجثمان بالقبر على الجانب الأيمن والوجه متّجهةٌ نحو مكة المكرمة، القبر يحفر إلى عمق يعادل قامة رجل، وبعد إغلاق اللحد يقوم الملاّ بتلقين الميّت وغالباً ما يندب الميت (SIN) بغناء حزين، وفي بعض الأحيان تلقى الخطب حيث يمدح الميت وتعدد مزاياه ومناقبه.

ولكي تبقى ذكرى من مات قتلاً حية تعيش في الأذهان، تبنى كومة من الحجارة (SKêR) في المكان الذي قتل فيه وعلى كل من يمر بالمكان أن يضيف بعض الأحجار لتبقى ذكرى القتيل حية دائمة.

المقابر (ÇORÎSTAN) تقام بشكل عام على تل مرتفع خارج المدن والقرى وتغرس فيها الأشجار حسب العادة ولا سيما شجر الأرجوان (شجر من الفصيلة القرنية جميل الزهر) حيث يتمتع الموتى تحتها بالراحة الأبدية. وبهذا الشكل تبدو المقابر لا يحيطها شيء من الكآبة والعبوس، بل على العكس تماماً، فالقبور تتفاوت وتتنوع في المنطقة نفسها، حيث تشيد القباب على قبور الأغنياء. ولكن العادة أن ينصب حجرانِ شاهدة (KêL) على طرفي القبر بمثابة زخرفة له، وقد تنقش عليها بعض العبارات، ومن ناحية ثانية فإن اليزيديين من

شيخان ينقشون على الشاهدة بالعربية كذا وكذا بأن فلاناً فارق هذه الدنيا تغمده الله برحمته بتاريخ كذا...

وهناك عادة نقش بعض الرسوم، خناجر، بنادق، وأدوات أخرى أو نسور، وتنقش بصورة خاصة دوائر مثل الشمس إذا كان الميت محارباً أو مقاتلاً، ولإحياء ذكرى امرأة ما تنقش الزهور، أساور وأمشاط، وهناك بعض من يؤمن بأنه يرى في تلك الرسوم إحياءً للديانة الزرادشتية. وفي بعض الأحيان تصنع حفرة صغيرة بالقبر وتملأ بالماء يمكن أن تشرب منها الطيور والحيوانات تزكيةً لروح الفقيد، كثير من المسافرين كانوا يلاحظون في أحوال كثيرة بأن أرملة أو فتاة مخطوبة ضحّت بغدائر شعرها وتركتها معلّقة على شاهدة القبر دليلاً على الإخلاص والعاطفة نحو من فقدته. تثبت يد من حديد إلى ضريح أحد الأولياء، وهذه ربما ترمز إلى التشفع به في الدار الآخرة ولبعض الطوائف طرق خاصة متميزة بتكريم الميت، منها ما يسود لدى أكراد سنجابي يضعون في المقبرة منحوتات وتماثيل دقيقة وغريبة جداً تمثل الموتى. فمثلاً، يمكن أن يشاهد المرء تمثال امرأة تمسك بيديها طفلين، أو تمثال رجل تحيط به الأراوي والغزلان وهو ممسك ببندقيته، وقبائل البختيار (BAHKHTYARIS) تشيد تمثال أسد مثلاً على قبر الرجل الشجاع، وقد تحدثت مدام شاغنيان (Mn. ChAÇhÎNÎAN) في كتابها (عبر أرمينية السوفيتية ١٩٥٢م) كيف أصابتها الدهشة عندما أبصرت في قرية يزيدية تدعى كانداكساز (KANDAKSAZ) منحوتات ظلّيّة شاهقة لجياد ضخمة هائلة ملونة بجميع الألوان: البرونز، الأحمر، الأسود، الأبيض إلخ... أقيمت جميعها على قواعد وهي في وضعية العدو والسباق، تنثني قوائمها الخلفية الواحدة باتجاه الأخرى لتشكل رقم ثمانية ٨، وقد جُذبت رؤوسها بواسطة أعنّتها المحكمة المشدودة إلى الأسفل لتصبح قابعة على صدورها وذيولها مرتفعة إلى الأعلى ومقوّسة.

هذه التماثيل الرائعة المدهشة تعطي انطباعاً بليغاً عن الحيوية والنشاط والقوة، هكذا كانت قبور الأكراد. إلا أن هذا النوع من تكريس الذكرى الذي لا يزال قائماً حتى وقت متأخر بين سكان القرى الكردية وقد اختفى في هذه الأيام وأصبح على عكسه، فقبور النساء أصبحت تشتمل على بلاط بسيط نقش عليها ما يشبه المهد، كل هذا كان يضفي على تلك المقابر الغابرة جواً من الغرابة والخيال.

الحداد (SÎN) من الناحية النظرية يستمر سنة كاملة، وتقبل التعازي خلال الأشهر الثلاث الأولى (SERXWESÎDAN) حيث لا يفارق الأقارب البيت فالشكليات تمارس في هذه المناسبات للتعبير عن الخضوع لإرادة الله سبحانه وتعالى والتمنيات بطول العمر والسعادة، لأولئك الذين ما زالوا على قيد الحياة، فعبارات التعازي تكون مثلاً، أرجو لكم الصحة والسعادة، أو أعاد الله البهجة إلى قلوبكم، فيكون الجواب لذلك، ليبقيك الله، أطال الله عمرك، ليحفظ الله صحتك، وإذا كان المتوفى ابناً، فيقال: عوضكم الله خيراً منه وغير ذلك من التعابير المتنوعة، وبالطبع فإن أكراد أرمينيا السوفيتية أبطل لديهم كل ما يمت إلى الدين بصلة. الصّيغ تبدو باردة كما يبدو مثلاً. لدى فرقة عمال إحدى الصحف، الطريقة الجديدة لديهم هي تقديم التعزية بكتابة حرف (X) وإذا كان عاملاً في جهاز التحرير وتكون مناسبة موت عمّه مثلاً فتكون التعزية برسم حرف (Y) أو (V.Y) وحرف (Z) يقدم تعزيه إلى فئة (C.A.B.) التي ترمز إلى تعابير المشاركة الوجدانية والتي تظهر بالطباعة. إلا أنه مع هذا كله فإن التعازي الشفوية لا تزال تحتفظ بذوقها التقليدي بعض الشيء.

خلال فترة الحداد (SÎN) يجب ألا يقام أي فرح أو ابتهاج أو مشاركة فيه فيرفع كل ما هو أحمر من البيت حتى جيران العائلة المصابة تحاول أن تتجنّب حتى تحضير طبق الأرز مثلاً الذي يغرم به الأكراد، وجبات الحداد تقدم في اليوم

الثالث والسابع واليوم الأربعين، وفي كلٍّ من تلك الأيام، يذبح خروف على ضريح المتوفى ويوزع لحمه على المارّة، وبعد مرور سنة كاملة على الموت تجتمع القرية بكاملها في ولائم تدعى ولائم المحبة. واليزيديون في مساء نيروز (NEWRÛZ) يطوفون حول المقبرة، بينما يعزف الموسيقيون على المزمار والرق (دف) فيتوقفون عند كل قبر لمدة عشرة دقائق وأثناء ذلك الوقت تبكي النساء ويضربن على صدورهن، ويترك الطعام على كل قبر وبعد ذلك يوزع على الفقراء والمعوزين، والنساء الكرديات يحبذن زيارة المقابر في أمسيات الخميس أو في أيام الجمع، أولئك اللواتي يبرحهن مصاب حديث العهد يسترسلن في حزنهن ونحيبهن أمداً. أما زيارات قبور الأقرباء فتستمر مدى خمس سنوات، وبعد ذلك يصبح القبر منسياً. أما زيارة قبور الأولاد الصغار فتمتد لمدة أقصر.

الفصل الثامن

الأكراد في ظل الهلال

يستحسن أن نبدأ هنا بشرح مفصل عن دين الأكراد. الأكراد كما هو معلوم يبلغ تعدادهم عشرة ملايين نسمة على تقدير (وهذا إحصاء قديم جداً) ولا يمكن معرفة أو تحديد مدى تديّن القسم الموجود والموزع بين الإيرانيين من الإسلام الشيعة، وربما أكثر أو أقل تحرراً في تركية، وهم في العراق وسورية من الإسلام السنّة ومن الطبيعي أن يكون متوقعاً وهم على مفترق الطرق من الإسلام. فالدّين لدى الأكراد لا بد أن يتخذ صفات مميزة خاصة، إذ ليس من المؤكد أنها تكون قد اكتسبت من الشعوب المجاورة، كما أنه تجدر الإشارة هنا إلى أنه توجد بين الأكراد العراقيين والإيرانيين بضع مئات من القرى المسيحية، القسم الأكبر فيها من الآشوريين الذين لا يختلفون عن الأكراد مطلقاً من الناحية العملية في لباسهم وعاداتهم، والآشوريون بصرف النظر عن لغتهم الخاصة فجميعهم يتكلم اللغة الكردية، وقد انضمت قبائلهم قبل الحرب العالمية الأولى إلى القبائل الكردية واتحدت معها في نزاعها وقتالها.

من الوثنية إلى الإسلام

دين البلاد التي نسمّيها اليوم كردستان والتي كانت في الماضي بلاد الميديين كان المجوسية فالنقش المنحوت على قبر داريوس (DARIUS) في بيزتون (BISUTUN) وهي بلدة تقع شرقي كرمنشاه. تعرف من قبل الفارسيين اليوم بنقش رستم (NAQSH - I RUSTAM) الذي يذكر بقوة الإله الأكبر ((آهورا مازدا AHURA MAZDA الإله الحكيم)) إذ استطاع داريوس بحكمته من إخضاع كثير من الشعوب المبيّنة في النقش والسيطرة عليها. وهذا الإله لم يكن الوحيد من نوعه، فقد كان يوجد آلهة أخرى، مثل ميثرا (MITHRA) إله الشمس والخلاص وآناهيتا (ANAHITA) إلهة المياه والخصب والنسل. كما أن قوى الطبيعة كانت لها مكانتها المتميزة أيضاً، إذ كان يحتفل بعبادتها بذبح أضحيات لا تقدّم إلا بإشراف الكاهن المجوسي. والرهبنة المجوسية ربما تكون ميدية الأصل، والكاهن المجوسي له مكانته إذ يتمتع بامتيازات سياسية رفيعة ودينيّة بشكل خاص. وهم أي المجوس يدينون بمبدأي الخير والشر (آهورا مازدا و أورمزد أهريمان) (QRMEZED AHRIMAN) إذ يقومون بعرض أجسادهم عارية أمام تلك الآلهة ويحضرون شراباً مسكراً يدعى هوما (HAOMA) الذي كان يستعمله الفرس باحتفالاتهم الدينيّة، فيحتفلون بطقوسهم في العراء مع وجود بعض المعابد لديهم وهي على شكل حصون مربعة، يتألف المعبد منها من طابق واحد بغرفة واحدة يستعملها الكاهن للعناية بالنار المقدسة.

أُسِّس الدين المازدياني (MAZDIAN) خلال فترة وجود الأكمانيين (ACHEMANIANS) من قبل زاراثوسترا أو زوروستر (ZARATHUSTRA , ZOROASTER) ويعرفه الأكراد بزرادشت (ZERDEST) وحسب بعض المراجع والنصوص يمكن أن يكون هذا النبي الفارسي القديم قد ولد في بلدة مكري (MUKRI) الواقعة في قلب كردستان عام ٦٦٠ قبل الميلاد وعاش حتى

حوالي عام ٥٨٣ ق.م[1] المذهب الزرادشتي وتعاليمه محفوظة في الغاتاس (ÇÂTHÂS) وهي من ضمن الآفستا (AVESTA) الكتاب الزرادشتي المقدس. وهي عبارة عن مؤلفات شعرية تنقل تعاليم ومبادئ صاحبها التي تنبذ ذبح القرابين وتمنع تعاطي شراب الهوما المسكر إلا أن قربان النار يبقى رمزاً للعدالة وصراعاً ضد قوى الشر)). على كل إنسان أن يختار بين النور والظلام، بين الخير والشر، بين أورمزد وأهريمان، بمعاملة الحيوان برفق محبذة ومطلوبة ((الأفكار الجيدة، كلمات جيدة، أعمال جيدة. هذه القوانين الثلاثة التي ترتكز عليها المبادئ الزرادشتية)) وقد أصبحت الزرادشتية الدين الإيراني أثناء حكم الساسانيين فترة (٢٢٤ق.م - ٦٥٢م) حتى حل محلها الإسلام واستأصلها[2] .

ولكن هذا التغيير لم يحدث دون نزاع. إثر احتلال تكريت (TIKRIT) وحلوان (HULWAN) في عام ٦٣٧م عمل الإسلام على المواصلة نحو كردستان فزحف سعد بن أبي وقاص نحو الموصل[3] ، فاحتل المناطق الكردية كما احتل المرج (AL - MARJ) بانوهادرا (BA-NUHADARA)، هيبتن (HIBTÛN)، دازن (DASEN) إلخ..

ولكن هذه الانتصارات لم تتمكن بأية وسيلة من جعل البلاد بكاملها تحت راية الإسلام وقد تصادمت جيوش الخليفة عمر بن الخطاب بالأكراد في أهواز وبعد معارك طاحنة تمكن الإسلام من فرض سيطرته على شاهرزور (SHAHRIZOR) في عام ٦٤٣م وعلى بيرود (BERUD) وبالاسجان

---

(١) زرادشت (توفي حوالي ٥٨٣ ق.م)، ولد في مدينة شمال غربي إيران، ظهر حوالي منتصف القرن السَّابع قبل الميلاد، أصله من أذربيجان، نشر دعوته أولاً في بلخ، فانتشرت منها إلى فارس وأصبحت ديانة السُّلالة الإخمينيَّة الَّتي قضى عليها الإسكندر ٣٣١ ق.م، جعلها أردشير الأوَّل مذهب الدَّولة السَّاسانيَّة حتَّى الفتح الإسلامي، (النَّاشر).

(٢) بقايا الزردشتية اليوم (المجوس عبدة النَّار) في بومباي في الهند، ويزدوكرمان في إيران، وحجُّهم إلى قرب مدينة باكو حيث معبد النار في (أتشكاية)، (النَّاشر).

(٣) وهذا خطأ من المؤلِّف، صوابه، فتحها عتبة بن مرقد السُّلمي سنة عشرين هجرية زمن خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه [الرَّوض المعطار ٥٦٤، فتوح البلدان ٤٠٧]، (النَّاشر).

(BALASJAN) في عام ٦٤٥م. تبقى ذكرى هذا العنف بما قلّ أو كثر فيها من ضراوة في اعتناق الدين الإسلامي مسطّرة بطريقة مثيرة نابضة في نصٍّ يقال: إنه قديم ولكن الشكوك في أصالته كان قد دحضها ماكنزي (MACKENZIE) مؤخراً.

تهاوت معابد أورمز وأصبحت أطلالاً، وأخمدت النيران.

لقد فرَّ أكابر الزعماء وتواروا في مخابئهم.

تراجع الأكراد أمام اجتياح المسلمين الفاتحين.

وانكفؤوا حتى حدود شاهر زور.

وبقيت الأمهات والفتيات في الأسر.

والأبطال وقعوا في كمين وأُبيدوا غدراً.

وشريعة زرادشت ضاع سلطانها واندثر.

أسفاً على أورمز فقد ضلَّ ولم يعد يُبصر أحداً.

لقد زاد سقوط دولة الساسانيين عام ٦٥٢م في إضعاف دين ملك الملوك ودين رعيته.. وكثيراً من الأساليب الاجتماعية والسياسية الهامة استخدمت حججاً لتغيير مذاهب عبدة النار وإقناعهم من قبل الغزاة المسلمين. في سرداش (SURDASH) في العراق كانت لا تزال تشاهد أطلال قصر الملك جولندي (JULINDI) الذي حاول عبثاً أن يتحالف حتى مع الشيطان، مع أي قوة لصدِّ جيوش الخليفة علي بن أبي طالب.. خلال حكم الأمويين عام ٧٠٨ م أرسل الحجاج حملة تأديبية ضد الأكراد الذين نهبوا وسلبوا مقاطعة فارس، ولكن بالوقت نفسه كان هؤلاء الأكراد أنفسهم يساندون الخليفة مروان الثاني في فترة (٧٤٤ - ٧٥٠ م) الذي كانت أمه كردية ضد الخوارج. دخل عدد كبير من الأكراد في الإسلام وليس الغالبية، وقد ثاروا أكثر من مرة في وجه جيوش الخلفاء أثناءها.

في عام ٨٣٩ م انهزم جعفر بـن فاهـارجس (JAFARS BIN FAHARJIS) الكـردي لأول مـرة في ياباغـاس (BA-BGHAS) وانسـحب إلى جبـل دازم (DASEM) حيث راح يتحـدى جيـوش الخليفـة [العبَّاسي] المعتصم. وفي عـام ٨٦٦ م اتَّحد أكراد الموصل مع مزاور (MUSAWIR) وهـو مـن الخـوارج. وفي عام ٨٩٤ م انضموا إلى جانب عرب حمدان بن حمدون الـذي وضـع يـده على الموصل، ولكن في عـام ٩٠٦ م قـام محمـد بـن بـلال وهـو مـن قبيلـة هاضبـاني (HADHBANI) الكردية ببسط يده على مقاطعة نينوى إلا أنَّه صُدَّ أخيراً وهـزم كما هزم الحميديون (HUMAIDI) وسكان جبـل رازن علـى يـد عبـد الله بـن حمدان. في عام ٩٤٠ م استنفر المغامر ديزام بن إبراهيم، وهو نصف كردي مـن ناحية أمه، فرقاً مـن الأكـراد الصـرف في حمـلات داخـل أذربيجـان، لم تعـرف نتائجها..

يتضـح مـن جميـع هـذه الوقـائع أنـه في بدايـة اعتنـاقهم للإسـلام استحسـنوا بمجملهم مذهب الخوارج بينما انصرف بعضهم إلى الشيعية، ومع هذا كله، فقد اعتنق الأكراد بكليتهم الدين الإسلامي في القرن العاشر والحـادي عشـر، ومنـذ ذلك الحين يمكن اعتبارهم مسلمين بشكل عام وغالبيتهم من السُّنّة.

دعائم الإسلام الخمسة والأكراد

الأكراد كالمسلمين المتمسكين بعقيدتهم. يتقيدون في مبادئ مدرسة الشـريعة والفقه (FIGH) الشافعي (٧٦٧ – ٨٢٠ م)، وهذه المدرسة ترفض مبـدأ الـرأي الشخصي وتذهب في تعاليمها إلى أفضلية الموافقـة العامـة. الإجمـاع (IJMA) في الفقه الذي لا يقتصر على أئمة المدينـة وحدهـم بـل يتعداهـم إلى جميـع العلمـاء الكبـار في أي عصـر مـن العصـور. لذلـك تـترك هـذه المدرسـة بـاب الشـرح والاجتهاد في الفقه مفتوحاً. وانطلاقاً من مبدأ الإجماع في العقيدة تعزز بالرجوع

إلى آيات من القرآن الكريم وإلى السُّنة وحججها المستمدة من القياس (QIAS) الذي يجب أن يُعمل بها فقط.

عندما أخذ الناس يدخلون في دين الإسلام. اتخذ الأكراد هذه العقيدة الجديدة بجدية تامة، فأنشؤوا مدارس كثيرة لتعليم القرآن الكريم، وخرَّجوا كثيراً من العلماء الذين أصابوا شهرة كبيرة في علوم الدين والشريعة والعلوم والتاريخ نذكر منهم اثنين فقط. الأول محي الدين العقلاتي (AL - AKLATI) الذي أسهم إسهاماً كبيراً في بناء مرصد مراغة[1] (MARAGHA). وابن الصلاح الشهرازوري [ت ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م] موسوعة الفقه الذائعة الصيت عن الحديث (HADITH) والذي افتتح مدرسة الأشرفية أو مدرسة الأحاديث الشريفة المؤسسة في دمشق، العلامة الموسوعي حاجي خليفة (HAJI KHALIFA) الذي أثبت عام ١٦٥٨ م أن جميع العلوم التي استحوذ عليها العثمانيون الأتراك حتى عصر سليمان الكبير (١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) كانت نابعة فقط من الأراضي الكردية[2]. بالوقت الذي كانت العلوم الفلسفية والعلوم الطبيعية لا تزال في طور النمو عالمياً.. ولدينا البرهان على ذلك في المكتبة التي تتألف من أكثر من ٢٠٠٠ مخطوطة يدوية التي حفظها السلطان حسين أمير باهدينان (BAHDINAN) عام ١٥٧٦ م في مدرسة كابان (QAHBAN) في العمادية. وفي مجموعة عبدال خان أمير بتليس (BITLIS) النفيسة الرائعة التي بيعت بالمزاد العلني عام ١٦٥٥ م لأن الأمير رفض الخضوع لوالي (وان) المعيَّن من قِبَل السلطان.. إذن فلا عجب أن تكون كردستان قد ساهمت في تخريج عدد كبير من شيوخ الإسلام. شيوخ الإفتاء الرسميين في إستنبول وحتى

(١) مدينة مراغة: جنوب تبريز، شرق بحيرة أُورمية، (النَّاشر).

(٢) في القول مبالغة، فعلماء كُثُر من بلاد الشام ومصر أخذهم السُّلطان سليم الأوَّل سنة ١٥١٧ م معه إلى إسطنبول.

السلطان نفسه كان من الأكراد[١]، ومنذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا فإن جامعة الأزهر الإسلامية الشهيرة في القاهرة تحتفظ دائماً بأساتذة أكراد عباقرة في هيئة التدريس لديها.

إذا كانت هكذا الصفوة فماذا عن المجتمع؟

حياة الكردي اليومية هي إسلامية محضة، ويبدو ذلك واضحاً بمجرد أن يفتح فمه سواء بالترحيب أو بتعابير التمنيات، فهي دائماً مليئة بذكر الله، إما بالعربية، الله، أو بالكردية (XWEDê). ومثلين يمكن أن يحملا المعنى السامي النبيل للإيمان المطلق بالعناية الإلهية: ((الله يهيِّئ بناء العش من أجل الطائر الأعمى - الله يوفر لنا الطعام من أجل إكرام الضيف)). وكثير من الأمثلة الأخرى يمكن أن يقتبس منها مدى روعة التخيُّلات الحيَّة الممزوجة بالتقوى والإيمان بصورة متجانسة، ومع ذلك يبقى هناك دائماً إمكانية تداول بعض التعابير المألوفة التي لا تحمل معنىً لها، أما أكراد أرمينية السوفيتيية: ففي نسخة مجموعة الأساطير الكردية مالا يستثنيهم من هذا النوع من التعابير.

ولمساعدة الأكراد في ممارسة شعائر دينهم ولتدعيم إيمانهم وتقويته كانت تتوفر كتيبات مؤلفة باللغة الكردية عن تعاليم الدين الإسلامي. منها كتيب يحتوي شعراً طويلاً فقهياً يتحدث عن آداب صلاة المسلم وعبادته، كان قد ألَّفه شاعر مجهول من بوطان حوالي عام ١٧٨٣ م. وخلاصة التشريع الإسلامي التي ألَّفها الشيخ عبد الله من بلدة زهري (ZEHRI) الذي توفي حوالي ١٨٢٠ م، ثم دروس بالشريعة والأصول ألَّفها الأمير كمران بدرخان (KAMIRAN BEDIRKHAN) عام ١٩٣٨م. وقد ترجم المؤلف نفسه إلى الكردية عدة مئات من الحديث القدسي، كما قام بترجمة القرآن الكريم إلى الكردية بصورة خاصة، وقد نشر على أجزاء (أي كل جزء على حدة). ولنلقِ نظرة عامة على

(١) كلام المؤلِّف هنا خطأ، فسلاطين آل عثمان كلُّهم - دون استثناء - من الأتراك، (النَّاشر).

(كردستان) في هذا الصدد فإننا نرى أنه طبع مؤخراً في طهران فقرات عن الصِّيام وتطابق الإسلام مع قوانين الطبيعة الإنسانية نشرت عام (١٩٥٩ – ١٩٦٤م).

والكردي ما إن يتلقى التعاليم بواجباته الدينية من فروض وسنن فإنه يبادر فوراً لممارستها. شعار الإيمان الشهادة (SHAHADA) ويطمئن بها المسلم ويستيقن بها حتى إنه يرددها في كل مناسبة.

١ً – الصلاة:

هي الشعيرة الأولى بالإسلام (NIMéJ) يتخلّلها السجود ويجب أن تؤدى خمس مرات يومياً وأينما كان الإنسان. والفرد الكردي يؤمن كلّياً بهذا الفرض الديني، وكذلك النسوة يؤمنَّ به وبعضهن إلى حدٍّ ما تسمح به ظروف الحياة المتحضرة. أما الفتيات الصغيرات فقليلاً ما يؤدِّين الصلاة. تقام صلاة يوم الجمعة في منتصف النهار في الجامع يؤديها المؤمنون جماعة باحتفال وشعائر دينية خاصة الجوامع الكبيرة توجد فقط في المدن الكبيرة (CAMI)، أما في القرى فيوجد فقط مساجد صغيرة (MIZGEFI). وعطلة يوم الجمعة تسهل للجميع حضور صلاة الظهر أي (صلاة الجمعة).

٢ً – فريضة الزكاة (ZEKAT):

أوجبتها الشريعة على كل كردي مسلم مكلف يؤديها بكل سخاء لتغطي احتياجات المعوزين والمتسوِّلين الكثر في البلاد الإسلامية برغم كل شيء.

٣ً – صيام شهر رمضان (ROJI):

يطبق تماماً حسب الشريعة.

٤ً - الحج إلى بيت ا لله الحرام في (مكة المكرمة):

وهو الركن الخامس في الإسلام، فرض على كل مسلم يؤدِّيه مرة واحد في العمر على الأقل. في عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٨م) كان يعهد إلى الأكراد بمهمة حماية الطرقات وضبط الأمن حتى مكة المكرمة. أما اليوم فقد أصبح نسبة الذين يؤدون فريضة الحج من الأكراد أقل من السابق، وعلى هذا الأساس أصبح لا يوجد كثير من الذين يحملون لقب حجي (HACI)، النساء الكرديات اللواتي يؤدين فريضة الحج في الأراضي المقدسة بعد عودتهن لا يرفعن الغطاء عن رؤوسهن حتى أمام أزواجهن.

هذه العبادات تؤلف دعائم الإسلام الخمسة. يليها تعاليم أخرى ملزمة يرتبط بها المؤمنون. منها:

٥ً - الختان (الطهور):

فأولاد الكردي لا بد وأن يكونوا جميعاً مختونين.

إذا كان لحم الخنزير محرَّم لدى الأكراد وممقوتاً، كما هو لدى الآشوريين. فالخمر لا يتردد بعضهم في معاقرته بالمناسبات، وبصورة خاصة (العرق). أما النبيذ فمباح في أوساط بعض المناطق بين اليزيديين..

٦ً - شروط الوضوء:

تنفذ بدقة. ومن قبيل التندر ((قيل عن رجل أفرط في الجماع فأمضى جلّ وقته في الحمام لإسقاط الغسل)).

والمرأة أثناء الحيض يحظر عليها دخول الأماكن المقدسة، المسجد، أو أماكن الحج، حتى مسّ القرآن الكريم، لهذا، تحفظ نسخة القرآن الكريم في غرفة النوم ضمن غلاف خاص.

يحتفل الأكراد بعيد المولد النبوي منذ سالف الأزمان وصولاً إلى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، فمن المعلوم أن مظفر الدين كوكبوري[١] (KOKBURI) صهر صلاح الدين سلَّط على تلك المناسبة أضواءً ساطعة بقصد إعطاء الأكراد الفرصة لتكريس هذه الذكرى، وذلك بتصوير معجزات الرسول ﷺ بشكل حي وذكرت في كتيب بياني مثير، هذا وقد ألَّف كثير من المشايخ والملاّ قصة المولد النبوي (MeWLûD) بأشعار طويلة مستفيضة باللغة الكردية، كانت تنشد أو تتلى بمناسبة عيد المولد النبوي. بعضها كان قديماً وشائعاً جدّاً كشعر ملاّ باته (MeLA BATé) (١٤١٧ - ١٤٥٩م) كما يوجد غيرها حديث العهد تماماً، أمثال ما ألفه عثمان أفندي عام ١٩٠٠م، وأحمد رامز عام ١٩٠٤م، والشيخ محمد خال من السليمانية عام ١٩٣٧م. والملاّ رشيد مفتي إربيل عام ١٩٥٢م، إذ يمكن القول إنه في كل عام يطالعنا نتاج من هذا النوع حتى إن كثيراً منها بقي من دون نشر، أضف إلى ذلك على أي حال أنه يلاحظ أن الواجبات الدينية قد تضاءلت تقريباً بسبب ظروف الحياة العصرية، حتى إن الكردي الذي يتغيب عن بلده ويجد نفسه في مجتمعات غريبة عنه لا يتردد عن الإفطار خلال شهر رمضان. ومع هذا يعمل على أن يظل مؤمناً متمسكاً، إلى جانب هذا يجب أن يؤخذ بالحسبان أيضاً، أن الشعائر الدينية، التقوى وحتى العقيدة الإسلامية ذاتها أخذت تخبو بين الأكراد المتقدمين اليوم. وخصوصاً إذا كانوا يقيمون في الخارج.

ممارسة الشعائر الدينية لدى العرب متكافئة تماماً عند الأغلبية من الناس الذين يتمتعون عادة بشيء من الثقافة والمعرفة بالأمور الدينية يميلون إلى التهاون بها

---

(١) مظفَّر الدِّين كوكبوري ابن الأمير زين الدِّين أبي الحسن علي بن بكتكين التُّركماني، [٥٤٩ - ٦٣٠ هـ/ ١١٥٤ - ١٢٣٣ م] صاحب إربل، ولد في قلعة الموصل، وولي إربل بعد وفاة أبيه، وأقام بها مدَّة، وانتقل منها إلى الموصل، ثمَّ دخل الشَّام واتَّصل بالملك النَّاصر صلاح الدين فأكرمه كثيراً، وتوفي بإربل، كان له اشتغال بالحديث، سمع من الرِّصافي وغيره، وحدَّث، وله مواقف في قتال الصَّليبيِّين بالسَّاحل، وآثاره حسنة في الحجاز وغيره، [عن الأعلام ٥/٢٣٧]، (النَّاشر).

لتصبح مجرد شكلية، ونتيجة لذلك فقد أصبح الكردي الورع المتمسك يحاول أن يجاري في ذلك، ليس خلال الاحتفالات الإسلامية الرسمية، التي لا يفقه منها إلا القليل، ولكن في عظات جماعة الصوفية الروحية. وسرعان ما اتخذت هذه الظاهرة طريقها داخل كردستان حيث يوجد فئة كبيرة من هذا النوع ولا سيما بين الطبقات الشعبية..

ظهرت الصوفية في وقت مبكر بين الأكراد، وقد كانت في القرن الثاني عشر ناشطة جداً، وقد اكتشف المؤرِّخ ماكاداسي (MAQADDASI)، الذي زار كردستان حوالي عام ٩٨٠ م، أربعين صوفياً كانوا يرتدون قمصاناً من الشعر ويعيشون على جوز البلوط. كما أنه كان هناك قاطع طريق عريق كردي حدث أن تحول إلى الهداية بوحي من الله سبحانه وتعالى وأصبح المدير الروحي الكردي لفرقة الكالميني (QALMINI) ويدعى أبو الوفا الحلواني (بعد عام ١١١٠م بقليل)، وكان أول من نال لقب تاج العارفين، في العراق، جمع أربعين مريداً من أتباعه كان من بينهم سبعة عشر فرداً من الأمراء. وكان هناك غيره كثير من الصوفيين بالوقت ذاته. وعدداً كبيراً من كتّاب سير الأنبياء والصَّالحين. حتى إن جبال الأكراد عموماً كانت تزخر بتلك الجماعة من الزُّهّاد والمتعبِّدين مما أغرى الشيخ عدي بالإقامة في جبال هكاري (HAKKARI)[1] وكان الشيخ الماكر الذي لا يُعرف كنهه كما كان أكثر الآخرين معارضة على أنه يزيدي كما سيبدو لنا لاحقاً.

هذه الزمرة من المسلمين الورعين لم تكن ترغب في حفظ القرآن الكريم غيباً فحسب بل وتستنبط منه طريقة دينية (KALAM) كما لا ترغب في الاقتصار على تشريع القرآن (الفقه FIQH) فقط بل تريد أن تستخرج منه نصوصاً

---

(١) عَدِيُّ بن مُسافِر (شرف الدِّين أبو الفضائل) ت ٥٥٧ هـ/ ١١٦٢م: أسَّس الطريقة العدوية، ولد في بيت فار (بعلبك) جاور بالمدينة، ثم انتقل إلى جبهة الهكارية (الموصل) فبنى زاوية انقطع فيها للعبادة، وتوفي بها، وغالى فيه أتباعه الَّذين أضحوا اليزيديِّين، (النَّاشر).

تطبيقية عملية يبتعد بها أعضاؤها لينصرفوا إلى التفكير والتأمل حتى يحققوا من خلاله تنسُّم وارتشاف ما أمكنهم من المزايا الروحانية بأعلى درجاتها، حيث تدركهم النشوة الصوفية والانجذاب ثم الاتصال مع الحضرة الإلهية السامية. يشرحون نظرياتهم الصوفية ومناهج الزهد فيها بأشعار كثيرة يتعذر فهم بعضها أحياناً، وهذه الأشعار كانت بالطبع مجازية يبرز فيها شيء من الشعور الإنساني المحض المترع بالمحبة الخالصة من الكائن الحي في هذه الدنيا الذي يتوجه إلى ا لله سبحانه وتعالى بتضرعات وتوسلات شاعر محمومة. والأشعار نفسها تكون صادقة بالرمزية والاستعارة من الخمرة، فترمز إلى القدح الملطخ باللون الأُرجواني يبدو وكأنه وجد من أجل سكرة الروح بلا شك، ولكن استعمال مرادفات ومفردات الحان يذهب بلبٍّ بعض الزُّهاد الصوفيِّين فيصبح سكراً حقيقياً أكثر مما هو كناية واستعارة.

في المدارس الصوفية ((الصلة بين المعلم والتابع مألوفة في الأنظمة الأخرى كما هي مألوفة في سلوك الصوفي طبقاً لما بينه وبين الشيخ الأكبر (PIR) يتهيأ التابع (MURID, SHAGerD) وتؤسس المدرسة وتمنح مجاناً في المكان الذي يرغب أن يقيم فيه الشيخ الأكبر مع جماعة من أتباعه، حيث يتلقّون العلم على يده، ويتعبدون ا لله معه لفترة ربما تطول أو تقصر. إذا نفذ إلى أسرار الصوفية يلاحظ بأن ارتداء الجبّة الخاصة المميزة (KHIRQA) (رداء رجل الدين) هو رمز لقبول المهمة التقليدية لخدمة الدين السماوي، وهذا التقليد يرجع مرحلياً حتى يصل إلى النبي ﷺ)). آربري (ARBeRRY) أفاد أنه في القرن الثاني عشر اتحدت الكتاتيب الصوفية الصغيرة في مجموعة دينيَّة ضخمة وأوجدت ما يسمى (بالطريقة) وهذه المجموعة تذعن لسلطة زعيم ديني حكماً، حيث تمارس شعائر وأنظمة عامة موحدة باسم الطريقة، أما اليوم فقد أصبحت الأمور الدينية تدار من جيل إلى جيل كما هي منذ عهد الخلفاء الراشدين على هدي رسول

ا لله ﷺ المؤسس الأول الذي أذعن لشريعته الولاة في مختلف الدول والمناطق. وقد أقام قلة من العلماء المحترفين في منازلهم وكرَّسوا أنفسهم على التدريس والتعليم ومزاولة أمور الدين والعبادة (TeKKé أو KhÂNeQA) كانت الأكثرية السَّاحقة تتألف من المؤمن العادي أو (المريد) الذي يعيش في جو الطريقة التي يمارسها من وقت لآخر بإقامة وتكريس الطقوس والشعائر المتعلقة بالطريقة، ومبدأ تفاوت التفاضل بين الإخوة المؤمنين صادر بحدود منطق الشريعة أكثر منه اجتهاداً.

أوَّل هذه الطرائق كانت **القادرية** وقد أُسِّست من قِبَل الكردي عبد القادر الجيلاني (١٠٧٨ - ١١٦٦م)[1]، وقد توطدت دعائمها بوقت قصير بين الأكراد، وما زال القادريون كثرة حتى يومنا هذا، وبعض عائلات مشايخهم كالطالباني في كركوك والبريفكي (BeRIFKI) في العمادية ذات شهرة واسعة، وجبروت رئيس الطريقة العام في بغداد يطلق عليه لقب نقيب الأشراف.

الطريقة الثانية: **النقشبندية**. أُسِّست من قِبَل بهاء الدين، وهو من بخارى (١٣١٧ - ١٣٨٩ م) امتدت فيما بعد إلى كردستان، وما إن وصلت إلى كردستان، حتى تخصص بها مولانا خالد. وهو كردي فقير من قبيلة جاف (JAFF). ولد في كراداغ (QARADAGH) عام ١٧٧٩م، وبدافع حلم رآه في منامه قام بأداء فريضة الحج إلى مكة المكرمة، حيث تصادف مع درويش يقتل القمل، تماماً كما كان قد رآه في حلمه، أشار عليه هذا الدرويش ليذهب إلى دلهي في الهند حيث سيهتدي إلى طريق الخلاص. فامتثل للأمر، وذهب فعلاً إلى دلهي والتحق بمدرسة الشيخ عبد ا لله هناك الذي لقنه مبادئ الطريقة النقشبندية

(١) عبد القادر بن موسى بن عبد ا لله بن جنكي دوست الحسني، أبو محيي الدِّين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي: مؤسِّس الطِّريقة القادريِّة، ولد في جيلان (وراء طبرستان)، وانتقل إلى بغداد شاباً سنة ٤٨٨ هـ، فاتّصل بشيوخ العلم والتّصوُّف، وبرع في أساليب الوعظ.. وتصدَّر للتّدريس والإفتاء في بغداد سنة ٥٢٨ هـ وتوفي بها، له كتب منها: (الغنية لطالب طريق الحق)، و (الفتح الرَّباني)، و (فتوح الغيب)، و (الفيوضات الرَّبانية)، [الأعلام ٤/٤٧]، (النّاشر).

وأدخله فيها. عاد بعدها إلى بلده السليمانية حوالي عام ١٨٠٨ م، وفيها لاقى مقاومة شديدة من المشايخ الآخرين، ولكنه صمد حتى نجح في النهاية من خلال وعظه وبيانه، واستطاع أن يجتذب أعضاءً من الطريقة القادرية إلى طريقته وقد أصبح مشايخ النقشبندية مع مرور الوقت أكثر عدداً وأهميَّة واعتباراً من مشايخ القادرية، ويلاحظ ذلك بين الذين ينتمون إلى مشايخ شمس الدين أو زهري (ZEHRI) في طويلة (TAWILe) وبرزان هم من بين أكثر العائلات قوة ونفوذاً، إذ لم تكن تنحصر الخصومة لديهم بين هاتين الطريقتين دائماً بمجرد المقارعة والحجة والجدال، بل كانت تتعقد أحياناً فتؤدي بالنتيجة إلى معارك حقيقية..

الثالثة: طريقة **التيجاني**. هي أحدث من سابقتيها، أسسها أحمد التيجاني في إفريقية الشمالية (١٧٣٧ - ١٨١٥ م) وله قلة من الأتباع بين أكراد الأناضول (ANATOLIA).

هذه الطريقة والطرق الأخرى في تركية كانت تعاني من تأثير سياسة أتاتورك العلمانية..

تأثير المشايخ على الشعب الكردي قديم العهد، وهو بوضعيته كما هو عليه بالطبع يحتاج إلى مورد، فالثقة العمياء التي يوليها المريد أشياخه شيء لا يصدق، وتتجاوز حدود المعقول، وقد لاحظ السيد إدمون (Mr. EDMONDS) أنه إمّا بسبب غياب السلطة العليا في الجوار أو بسبب الحاجة للتدريس وارتشاف العلم، إذ يبدو بوضوح أن أعضاء النقشبندية حتى غير المثقفين في كردستان يتمتعون بأفضلية خاصة متميزة..

على أن هذه الظاهرة لا بد أن تولّد الخوف من أن المشايخ المنحرفين لا يتورعون عن استغلال سذاجة أتباعهم ومريديهم، فيثيرونهم من أجل مآربهم الخاصة السيئة. لذلك ترى أن نشوء بعض الحركات العصبية من وقت لآخر بين الأكراد وإشعال نار الفتنة دائماً وراءها - مع الأسف - مشايخ انطوت نفوسهم على نزعة الشّر والإثم..

وهكذا فقد كانت الدعوة للجهاد والحرب المقدسة في مقاطعة أورمية (OURMIA) أيام الحرب العالمية الأولى، وحركات العصيان المسلَّح الأخيرة في تركية والعراق كانت تثار من قبل مشايخ معظمهم نقشبنديون، وينطبق هذا على الشيخ سعيد في بيران (PIRAN) والشيخ محمود في السليمانية والشيخ أحمد في برزان، وقد تبين بأن المآرب السياسية في هذا المضمار كانت تلعب الدور الأكبر في هذه الحركات أكثر من المآرب الدينية..

لقد بدا واضحاً أيضاً أن الحركة الصوفية فقدت شيئاً من قوتها الأصلية، ونشاطها الروحي. وقد أبرز الشيخ محمد أمين الكردي الشافعي النقشبندي الذي توفي عام ١٩٠٤ م أحد مؤسّسي الصوفية التقليدية المتميِّزين، وهو كردي من إربيل، ألّف كتاب (تنوير القلوب) الذي انتشر بسرعة لدرجة أنه طبع للمرة السادسة في القاهرة عام ١٩٢٩ م، ومن المفيد جداً قراءة تلك الرواية الجيدة التي منحها هذا الشيخ الأسلوب الذي يبيِّن فيه عبادة ذكر القلب (DHIKR QALBI). وآربوري (ARBERRY) الذي لخَّص الكتاب أخبرنا أن الصوفية توقفت عند نقطة أضاعت معها تأثيرها على استمالة قلوب وعقول ذوي الثقافات العالية من الناس بسبب افتقارها إلى المعرفة العقلانية والعقيدة المحددة الواضحة. فمن الطبيعي أن تراها تقوم في مجتمع غير مثقف محدود ذي عقلية حسَّاسة، وتعصُّب غريب إذ يعتقدون أن لديهم وحدهم الدافع لإصلاح الدين والمجتمع بأسره، فيبالغون بالتسرُّع والارتجال الذي ينتهي غالباً بشكل درامي محزن، هذا عدا عن الاتهامات والقذف التي يتبادلونها زوراً كما حدث لطائفة هاكا (HAQQA) وهي طائفة مشايخ توبزاوا (TOPZAWA) وسرجالو (SERGALU) في العراق التي اتهمت زوراً بالفسق والفجور.

الأكراد المنشقون عن الإسلام

الابتعاد عن المعتقدات الصوفية ومبادئها عزز دوافع الطوائف المنحرفة التي آلت إلى الانفصال عن الإسلام، مما سبب كثيراً من التخبط والتشتت والتقلبات التي أصبح يصعب معها تحديد مذاهبهم واندماجهم الحقيقي.

والأكثر أصالة في هذه الطوائف المنشقة كانت اليزيدية أو عبدة الشيطان، كما يسمونهم في بعض الأحيان، وهم من الأكراد الصرف، ويبلغ تعدادهم اليوم حوالي ٥٠,٠٠٠ نسمة، ويقيمون في العراق في أودية شيخان الحرجية وفي جبال سنجار، ويوجدون في سورية في بعض قرى الجزيرة وفي نحو عشرين قرية في جبل سمعان (SIMAN). والأكراد الذين يقيمون في أقاليم يريفان (ERIVAN) وتفليس (TIFLIS) في الاتحاد السوفيتي هم أيضاً من أصل يزيدي. وبما أن معقتداتهم الدينية سرية فإنه شتى أنواع النظريات المتقدمة في شرح هذا المعتقد لم تتمكن سوى أن تنسبه إلى الدين الزرادشتي (الذي يؤمن بالمعتقدات الثنائية، الروح والجسد) والمثرية (MITHRAISM) وهي وثنية كردية قديمة (ومثرا MITHRAS هو إله النور، وحامي الحقيقة، وعدو قوى الظلام عند الفرس)، أو هو فرع منشق عن المسيحية، أما اليزيدية فالحقائق تثبت بأنها انشقت مباشرة عن الإسلام، ولإثبات ذلك لا بد لنا من أن نسبر غورهم لنصل إلى أعماق أفكارهم الدينية، إذ لا يبدو للعيان سوى عاداتهم وتصرفاتهم الظاهرة، بينما تبدو خصائص المسلم الجوهرية بهذا الصدد واضحة جليَّة من حيث الوصف والتسمية، التقويم، تحريم إقامة تماثيل للإنسان، الختان (الطهور) إلخ... أما لدى اليزيديين فيمكن إضافة ذبح القرابين، عبادة القديسين، والحج إلى قبر الشيخ عدي وهو تقليد واضح للحج إلى مكة المكرمة. تمارس عند ذلك القبر طقوس الحج الإسلامية مع استعمال أسماء عربية، أكثرها غير معروف لدى الأكراد. ويظل الجو بمجمله صوفياً. الأولياء ذوو المكانة الرفيعة عُرِفوا بالصوفية

والزعيم الديني جاء من الصوفية، وكتب الصلوات والأمور الدينية الأخرى تُظهر تشابهاً قوياً بالصوفية من حيث مفرداتها وأفكارها. الصلات الروحية بالصوفية الإسلامية المتطرفة واضحة بالمبادئ والأفكار التي أوجدها الإنسان منذ بدء الخليقة. التقمُّص والتجسُّد والتَّناسخ، ولا سيما الإصلاح الأخير لإبليس الذي منه استنبطت تسمية اليزيدية عملت جميعها بالتصادف على غواية وضلال عبّاد الشيطان، لذا يبدو واضحاً وملزماً لفصل الطوائف الإسلامية بأسسها المترابطة على حدة، لتبرز لنا اليزيدية بتمامها وكمالها..

ولكن مهما كان من أمر اليزيدية. يبقى السؤال يفرض نفسه عن مؤسس هذه العقيدة، وهو مسلم أصلاً وما حدا به ليقرَّ تلك الانحرافات الخارجة عن الدين الإسلامي ليَضلَّ ويُضلّ؟ إذ إن الممارسة من حيث المبدأ تكاد تكون واحدة. شمس الدين حسن (١١٩٧ - ١٢٤٦ م) الابن الأكبر لأخ مؤسس الزاوية (ZAOUIA) هو الذي شقَّ الطريق إلى تلك البدعة وقد تلا ذلك انشقاق أتباعه إلى فرعين، فرع هاجر إلى سورية ومصر ويدعى كرافا (QARAFA) ظل مواظباً على أمور الدين الإسلامي المألوفة لمدة طويلة تحت اسم العدويَّة (ADAWIYYA) بينما بقي الفرع الآخر في بلاد الرَّافدين (MESOPOTAMIA) على ضفة نهر الدجلة الشرقية. حيث لم يضيِّعوا جميع ما يربطهم بالدين الإسلامي روحاً وفكراً فحسب بل سرعان ما انشقوا عن الإسلام بالعقيدة والمبدأ وما لبثوا في النهاية أن تولدت بينهم العداوة ونَمت على أشُدِّها بدءاً من القرن السابع عشر فصاعداً. هذا، ويبدو بأن المذابح الدورية المتكررة هي وحدها التي عملت على توطيد وترسيخ الطقوس اليزيدية ومعتقداتها التي أضحت تدريجياً أكثر غرابة وغموضاً. وعلى ضوء ذلك يمكن القول والاستنتاج أخيراً بأن اليزيديين إذا كانوا قد توقفوا عن الاستمرار بانتمائهم الإسلامي، فلا يمكن جحود كونهم هكذا أصلاً..

بينما تبدأ اليزيدية نشأتها مع نمو الصوفية السنيَّة نرى أن أنصار الخليفة يزيد الأول (٦٨٠ - ٦٨٣ م) وهم يشكلون طائفة كردية أخرى تسمى أهل الحق (AHL – e – HAQQ) يحملون الأفكار الشيعية المتطرفة، ومن المحتمل أن تكون هذه الطائفة قد نمت في لورستان (LURISTAN) ثم تحولت إلى داخل إقليم شاهرزور -هوراماان (Shahrizor – Hewraman) نحو أواسط القرن الحادي عشر بواسطة مبارك شاه بابا خوسن (Mubarak Shah Baba Khosin) وهو الذي جعل بين رفاقه السبعة امرأة تدعى فاطمة الهيفاء، بيبي فاطمة الشهيرة (BIBI FATIMA) أخت الشاعر الشهير بابا طاهر الحمدان (٩٣٥ - ١٠١٠ م) إذ يعتقد أن تكون هذه الطائفة قد أعيد تشكيلها من قبل السلطان إسحاق أو سوحاق (ISHAK, SOHAK) ابن الشيخ عيسى برزنجي (ISE BARZANDJI) وزوجه دايراك خانم (DAYIRAK KHANIM) ابنة الأمير محمد زعيم قبيلة الجاف (JAFFS) وقد بنى السلطان سوهاك (SOHAK) عام ١٣١٦ م نياز خانة (NIYAZ KHANA) أي مكان لتقديم النذر والأضاحي في هورامان (Heuraman)، وأسس مراكز الإرشاد الرئيسية في برديفر (Perdiver)، وكانت حاشيته تتألف من ثلاث مجموعات وكل مجموعة تتألف من سبعة أشخاص. وهم السبعة الخالدون، والسبعة المنزَّهون، والسبعة الصالحون، وقد يجري اختيار تلك المجموعات الثلاث من بين ٨٢ من كبار القوم ليكونوا مرشدين أي دليل (DALIL) ومن أولئك المرشدين المقدسين ينحدر سيّاد كاكاي (KAKAI) الحاليين في العراق.

أهل الحق هم الذين يؤمنون بالإمام علي ويعتبرونه رمزاً سماوياً مقدساً، ويولون الأئمة المنحدرين من أصلابه احتراماً وتبجيلاً كبيراً. وبرغم ذلك تراهم على علاقات طيبة مع أهل السُّنّة، ويوقّرون أيضاً بابا يادجار (Baba Yadcar) (١٥٩٦ م) الذي يعدّون زيارة قبره إحدى شروط الحج، ويتوسلون إلى الأنبياء

موسى وإلياس والمسيح وخصوصاً داود عليه السلام. ويؤمنون بسبعة مبادئ متتالية من العبادة، إذ يعتقدون أن أربعة أو خمسة من الملائكة يعنون بها، ويؤمنون أيضاً بالتقمُّص والتّناسخ كما يفعل اليزيديون والدروز. تشغل هذه الطائفة قرى الغوراني الواقعة على طريق خانقين - كرمنشاه، وقبائل لورستان أيضاً تنتمي إلى هذه الطائفة وبصورة خاصة إلى الدلفان (DILFANS) الذين يحتفلون بطقوس العيد الكبير الذي يحل في وقت انقلاب الشمس الشتائي عندما يغرقون في السكر والكحول ويمشون مشيتهم الجنونية الدينية على النار دون أن يتألموا من حرِّها وآلامها. قبيلة الكاكاي (KAKAI) العراقية تشغل ثماني عشرة قرية في لواء كركوك واثنتي عشرة قرية في كل من قضاءي خانقين وقصر شيرين (KASR – I – SHIRIN).

يعيش اليزيديون بأغلبيتهم في العراق، ويقيم أهل الحق من الأكراد على الحدود العراقية - الإيرانية، بينما يتواجد القزلباش (KIZLBASH) بصورة رئيسية وهي طائفة شاذة أخرى في الأناضول من مناطق سيواس (WIWAS). ودياربكر وخربوط ويتكلمون بلهجة الظاظا، وجبال درسيم حيث يقيم زعيمهم الروحي تشكل لهم بالوقت نفسه معاقل طبيعية حصينة، وربما يبلغ تعدادهم نحو المليون نسمة. وقد أوجد الأتراك بينهم جماعات من أصحاب البدع الشاذة كالنوزيريين (NOSAIRIS) واليزيديين الذين لا تربطهم أي صلة بهم، على أن القزلباش (حمر الرؤوس) هم من الغلاة الذين قيل إنهم يعبدون علياً، ويعدون الملائكة الخمسة وسائط بين الإله والإنسان. وأن هناك اثني عشر وزيراً للإله وأربعين نبياً، وأحد هؤلاء الأنبياء هو سلمان الذي تعترف به أيضاً طائفة الحق. زعماؤهم الدينيون المسؤولون عن تنفيذ التعليمات وجمع الضرائب هم الديديون (Dede) ويزورهم السيد (Seyid) المرشد مرة في العام من أجل إقامة الاحتفالات الدينية التي تشبه العشاء المقدس. ومن أجل شرح العقيدة

يتقيدون بصيام اثني عشر يوماً على شرف الأئمة الاثني عشر وثلاثة أيام أخرى قبل عيد الخضر. حسب المبدأ يجب أن يصلّوا مرة واحدة في اليوم، ويؤمنون بعبادة الشمس أثناء بزوغها وعند مغيبها، ويقدسون النار وتقدمة الأضاحي على ينابيع الأنهار. لا يوجد لديهم كتاب مقدس خاص، يكنّون الاحترام للتوراة، والإنجيل، والقرآن الكريم.

المعلومات المستقاة من المسافرين بما فيهم القزلباش مشوّشة إلى حدٍّ كبير، وفي بعض الأحيان متناقضة، وربما كان ذلك بسبب التنقل في أماكن متفاوتة. وقد ادَّعى بعضهم أنه اكتشف معتقدات وطقوس مسيحية في عبادتهم وتراهم من ناحية أخرى أكثر مشاركة للبكتاكشي (BEKTAKSHI) بمعتقداتهم وهم جماعة الدراويش الوحيدة في تركية التي تعلن ولاءها للشيعة، ومن الجدير بالذكر أن كلا الطرفين يشتركون في كثير من أماكن الحج..

واستمراراً بالبحث عن هذه الطوائف لما لذلك من أهمية بالغة، نرى أنه يوجد أيضاً بعض الفرق الصغيرة الأخرى المنشقة التي قد تختلف الواحدة كثيراً أو قليلاً عن الأخرى، أما من حيث تطبيقهم طقوس العبادة يلاحظ بشكل عام ميولهم المتطرف نحو الشيعة، حيث يمكن إدراك ذلك بسرعة. يقيم في جوار الموصل أيضاً الشاباك (SHABAKS) ويقدرون بـ ١٠,٠٠٠ نسمة تقريباً. ويبدو أنهم يشكلون حلقة ارتباط بين اليزيدية والشيعة المتطرفة. وهناك طائفة السارلي (SARLI) على ضفاف نهر الزاب وترتبط بالكاكاي (KAKAI) وكذلك الباجوراني (BAJORANI) الذين يقيمون في المواقع نفسها على الحدود الفارسية، وأخيراً الشمسية (SHEMSIYé) ويدعون بذلك لأنهم يعبدون الشمس، ويعرف هؤلاء بأنهم كانوا يقيمون في ماردين في بداية القرن التاسع عشر، وقد تبيَّن فيما بعد بأنهم اندثروا نهائياً، إذ يعتقد بأنهم تحولوا إلى المسيحية اليعقوبية وذلك على الأقل من حيث الظواهر..

الفصل التاسع

على أهداب الدين: الخرافات

في الفصول السابقة من هذا الكتاب ورد ذكر العادات التي يمكن أن تتأصل بالمرء منذ الولادة أكثر من مرة. الزواج وغيره من الاحتفالات والأعياد التي لا تربطها رابطة بالدين، كانت أيضاً يحتفل بها غالبية الشعب وتوليها غاية الاهتمام كما لو كانت طقوساً دينية مقدسة حقيقية، فإذا كانت الطوائف التي - تكلمنا عنها فعلاً قد تلاشت أو انشقت عن الإسلام وتقاليده. إذ ربما كان ذلك بسبب منح أتباعه كثيراً من الحرية في أمور العبادة التي أتاحت الفرصة للسحر والشعوذة بشكل من الأشكال بأن يلعب دوره. الكردي ليس متديناً بصورة مطلقة، فقد اتفق الرحّالة بآرائهم على كونه يؤمن بالخرافات، ويبدو ذلك جليّاً - بالمعتقدات الخرافية المنتشرة باستعمال التعاويذ والطلاسم والحجب بشكل عام، بالأعمال السحرية بالطقوس والعادات الغريبة التي تشير إليها المراجع بأنها حيَّة وسائدة في الأديان الوثنيَّة.

المعتقدات الخرافية

الكردي، الذي هو شاعر في أغلب الأحيان، لا بد أن يتأثر بالجمال الطبيعي الذي يحيط به من كل جانب، وهو إن وجد هذا الجمال، فذلك لأن تلك

الطبيعة مأهولة بسكان من عالم آخر تفعمها بالحياة - حسب اعتقاده - الجنّيات بيري (PéRI) التي تأوي إلى ينابيع الجبال. أما الجن والحديث عن الجن، فالكل يؤمن بوجودهم، وكذلك الآشوريون يؤمنون بوجود الجن كما يفعل اليزيديون. والجن على نوعين. جماعة الخير، وجماعة الشر. ولهم أيضاً دينهم الخاص، جن الخير وهم في بعض الأحيان ساخرون، يلبس الجن القبعة الحمراء فيختفون عن الأنظار، ويطوفون في أعماق الوديان، أما الأرواح الشريرة فتختبئ في تجاويف الصخور وفي أعماق الكهوف الكبيرة. بعض من الشجعان دفعهم فضولهم الملحّ لمحاولة اختراق تلك العزلات الجنيَّة، فرجعوا ولكن بعد أن فقدوا عقولهم، وهذه نتيجة متوقعة طبعاً. عتبة البيت هي المكان المفضل المحبوب لدى الجن الذين يترددون إليه؛ لذلك يجب الاحتراس من سكب الماء الساخن بالعتبة خوفاً من الإصابة بالأذى. ومع أن الجنَّ قد خلقوا من النار، فإنهم يأكلون كما يأكل الإنس لاستمرار الحياة، وقد نجح شيخ يزيدي في سنجار باجتذاب واحد من الجن وأصبح يتبعه كظله، كما فعلت سيدة آشورية أخرى من بلدة تال (TAL) إذ تمكنت من اجتذاب جنّي آخر بطريقة مماثلة أصبح بعدها يساعدها في أعمال البيت. بعض الجنّ اتّحدوا بالزواج مع بعض الغيلان. يثبت لنا التاريخ أن الأمير محمد أمير بوطان الذي توفي عام ١٧٥٠ م كان قد تزوج من جنيَّة، وأنجب منها عدة أولاد، كما قام فقير يزيدي من سنجار في وقت لاحق بالتجربة نفسها، إلا أن النتيجة كانت على نحو سيئ لأن الفقير صار مجنوناً. بعض المشايخ والمشعوذين عرفوا بشهرتهم الواسعة بما لديهم من قوة وسيطرة على الجن، يستغلونها في مهنة التعاويذ والطلاسم والشعوذة.

١ً - يسود الاعتقاد بقوة أشباح وأطياف الليل بشكل عام، وقد يغالي بعضهم بذلك الاعتقاد لدرجة يقودهم معها إلى الجنون، وكذلك الأحلام لها في

خيالهم مرتعاً خصباً، ويؤمن بها الكثير إيماناً راسخاً ويجد بعضهم في تلك الأحلام النور الذي يتكشّف عن المستقبل، كما تعتري بعضهم الآخر بضرب من الجنون، كالشيخ حمو اليزيدي الذي دفعته أحلامه إلى الانتحار. ويتخصص اليزيديون الكوجك (KOGEK) في تفسير الأحلام، الصفة التي تكسبهم السيطرة الفائقة على جمهور البسطاء.

لا يمكن إنكار وجود الحيوانات المقدسة لدى اليزيديين، فبعضها يتمتع بالاحترام والتبجيل، مثل الديك الذي يرمز إلى بزوغ الشمس ويجلب الحظ للعريسين اللذين تزوجا حديثاً، والطاووس الذي يمثل ملاك النور. كما أنه من وجه آخر، هناك الحيوانات المخيفة، كالأفعى التي تزخر بها قصصهم غالباً، وعند اليزيديين لا يقتصر الحديث عن الأفاعي العجيبة بل تتناول أيضاً الأفاعي الضخمة المزدرمة، على أن هناك مشايخ قبيلة الشيخ مند الذين يتمتعون بخبرة فائقة بالتقاط الأفاعي وترويضها، وآخرين من أسرة عمر مندان بالقرب من طريق كركوك – طقطق (KIRKUK – TAQTAQ)، يملكون موهبة شفاء عضة الأفعى، ومخلوق غامض آخر لدى الأكراد هو الحرباء التي يسمونها (MARA EZMAN) أي حية السماء، وهم يؤكدون بأن هذه السحلية لم تشاهد قط تأكل أو تشرب أو تنام أو تقوم بأي عمل، إذ يعتقدون بأنه مجرد حيوان كان قد خلق في السماء وفي ذات يوم وقع إلى الأرض، وفي الواقع أن قدرة هذا الحيوان الزاحف على تغيير لونه فقط تدعم اعتقادهم بذلك.

يوجد أيضاً في كردستان أعشاب غامضة لها فعاليات غريبة يأتي أولاً اللفّاح أو اليبروح، وهو معروف جيداً حتى في التوراة كعقار مثير للشهوة الجنسية ((وهو نبات يضيء ليلاً ويتراءى بأوراق فضية كبيرة، ويجتذب نفسه إلى باطن الأرض إذا ما دنا منه أحد، ويختفي عن أنظار من يبحث عنه، ويقال: إنه يبقى مختفياً كذلك حتى تصيبه بضع قطرات من بول امرأة تنثر فوقه، لجعله ساكناً لا

يتحرك عن موضعه، كما يُعمد إلى ممارسة طقوس معيَّنة متعلقة به في نطاق مسافة محددة بعيدة عنه، أوراقه تشابه إلى حدٍّ ما أوراق الكرمة، وجذوره تشابه تماماً جسم الرجل أو المرأة حتى في لون بشرتهما، ويقول الأكراد: إنه عندما يجري اقتلاعه من أرضه يحدث جذره صفيراً كصفير الرياح، والشخص الذي يجتث جذوره لا بد وأن يسقط ميتاً من فوره، ولتجنب مثل هذا الخطر المميت يقوم الأكراد بحفر الأرض من حوله، ثم يربطون طرف حبل إلى الجذر، ويربطون الطرف الآخر حول رقبة كلب أو عنز، وحينئذ يبتعدون عن المكان ما أمكنهم إلى مسافة يستطيعون منها رمي الحيوان المربوط بالحجارة لاستنفاره وحثّه على الهرب وسحب الجذر. إذ لا يكاد ينتهي من هذا العمل حتى يسقط ميتاً من دون حراك)). وأفاد كمبانيل (CAMPANILE) أيضاً أنه يوجد في الجبال عشب عجيب ذو قوة خارقة في إصابة العمى وفقد البصر لمن يستنشق ريحه فوراً، وينمو بالقرب منه نوع آخر مضاد من العشب يدعى الترياق.

بعض الظواهر الطبيعية تفسر أيضاً حسب اعتقادات غريبة يعرفها كل واحد في كردستان، وكذلك البدو فإنهم يعتقدون أنه إذا ما خسف القمر فإنه لا بد وأن يكون هنالك حوت كبير أو تنّين يحاول ابتلاعه، ولطرد هذا الوحش الشرير بعيداً، يأخذ الناس بافتعال ما أمكن من الجلبة والضجيج وذلك بإطلاق العيارات النارية، والضرب على طناجر النحاس المعدَّة لهذا الغرض.

٢ً - الهزات الأرضية تحدث بسبب كون الأرض تقوم على ظهر ثور أحمر، تنخسه أذناه من وقت لآخر، أو يهفّ بذنبه فتحدث الهزة، هذا بالإضافة إلى اعتقاد آخر سائد، يقول: إن ذبابة تحوم حول ذلك الثور وعندما تقترب من عينيه يومضها فتهتز الأرض، وإذا صادف في يوم ما أن حطَّت تلك الذبابة على ظهر الثور فيرتعش جسده ويندثر العالم بأسره. الأمطار يبعثها الله سبحانه وتعالى وقد أناط هذه المهمة بالملاك سليمان المسؤول عن شؤون جميع

الحيوانات، وينقل سليمان بدوره الأمر إلى (هماي HUMAI) وهو طائر خرافي يشبه العنقاء (زعم قدماء المصريين أنه يعمِّر خمسة أو ستة قرون، وبعد أن يحرق نفسه ينبعث من رماده وهو أتمّ ما يكون شباباً وجمالاً) فيستدعي جميع الطيور ويأمرها بأن تجمع الماء سويّة من البحر أو من المحيط ويحلقوا في الفضاء ليمطروا الأماكن المحددة لهم، وإذا كانت هناك قطرات كبيرة أو صغيرة من المطر فمرد ذلك كون الطيور ليست من حجم واحد، ((عندما أرنو إلى السماء أذكر دائماً أروع وأسمى ما لدى الأكراد من انطباعات عن الأجرام السماوية والظواهر الطبيعية، فهم يتصورون أن القمر هو أخ للشمس ويلاحق أحدهما الآخر باستمرار حتى يوم القيامة، إذ إن القمر يعشق أخته الشمس لذلك لا ينفك عن مطاردتها، وخسوف الشمس يحدث دائماً عندما تحجب تلك الأخت الجميلة الفاتنة وجهها عن أخيها العزيز، وذلك لتذكي فيه نار الشوق لرؤيتها من جديد، ويعتقد الكرد أيضاً أن كل إنسان له نجم خاص يتلألأ في السماء، يموت بموت صاحبه. وأن الخسوف أو الكسوف والنجوم المذنبة هي نذير سوء وشؤم وباعث للمصائب (مدام شانتر M. CHANTRE).

تؤمن النساء بشكل خاص بالعرافة وقراءة البخت (ديري DéRI) ويثقن ثقة تامة بالغجريات المشعوذات اللواتي يتسلحن دائماً بعدة الشعوذة. ، الرمل، وعظام كتف خروف وغير ذلك من وسائل العرافة.

كسائر الشرقيين تماماً الذين تترسخ عندهم بعض المعتقدات الخرافية بتأثير العين الشريرة الصائبة، فإن نساء الأكراد أيضاً يتأثَّرنَّ بها، بنما تراهن على عكس الشرقيين الذين يتشاءمون بشكل عام من العين الزرقاء، يعدونها مؤذية وشريرة، ولديهم قول مأثور (العين الصفراء هي العين الشريرة) والأولاد والنساء في المخاض (الماخضات) هم من دون شك عرضة لتأثير تلك العيون الشريرة، الفتاكة، وكذلك المرأة التي ولدت قبل موعدها بأقل من ٤٠ يوماً

عليها ألا تقوم بزيارة امرأة أخرى وضعت حديثاً إذ تعد تلك الزيارة شؤماً ومدعاة للأذى والضرر. كذلك إذا صدف أن اجتمعت امرأتان في الخارج كانتا قد وضعتا أقل من أربعين يوماً أسبق من موعديهما، عليهما أن تتبادلا الإبر والطفلين الرضيعين، ومن ثم تعودان إلى البيت دون أن تتقدم إحداهما الأخرى.

الحجب والتعاويذ

تستخدم الحجب والتعاويذ ضد عين الشر، وضد السحر بشكل عام، وكذلك لجلب الحظ، ففي مثل هذه الأحوال، لا بد من اللجوء إلى (الأرواح) التي تمثل القوى الخفيَّة الخارقة بواسطة تلك الحجب والتعاويذ التي يرسخ الاعتقاد بقوة فعاليتها وقدرتها.

بعض الحجب تضع من قبل حرفيين مهرة وتصاغ بالأحجار الكريمة الحقيقية وتثبت في قلادات تدعى برمورا (BERMURA) وملوانكا (MILWANKA) وتكون فعاليتها وتأثيرها أكبر خصوصاً إذا كانت من اللون الأزرق تشبه بشكلها الصَّدَفة إلى حدٍّ بعيد وتؤدي أصوات الأجراس الصغيرة، أو تصنع من العقيق الأحمر أو العقيق اليماني أو ترصَّع به، كما أن بعض الحجب تخاط ضمن كيس صغير يشبه كيس الدراهم الصغيرة الذي يستعمله الباعة المتجولون. وهو عدا عن كونه ذا فعالية وتأثيراً كبيراً فإنه يبقى بمنزلة الشيء المحبب المعقول. هذه الحجب تتألف عادة من قصاصات من الورق يرسم عليها مربعات صغيرة بالحبر الأحمر ينقش العرّاف بداخلها أشكالاً وكلمات، وفي الجانب الآخر من الورقة توجد رسوم مختلفة كالسيف مثلاً، أو تكون مجرد تنقيط أحمر، ثم تطوى الورقة بشكل مثلث. وغالباً ما يضاف إلى الورقة إبرة تكسر إلى نصفين وتوضع داخل الورقة حيث يودع الجميع داخل كيس صغير، وإذا أضيف إلى الحجاب بعض شعرات رجل متزوج فمعنى هذا أن زوجه قد ظفرت بحبه الخالص. بعض هذه

الحجب تسمى جولابند (GULABEND) تحمي من الرصاص. وهناك شيوخ ذوو خبرة واسعة في صناعة تلك الأنواع من الحجب والتعاويذ التي تصمم لهذه الغاية أو غيرها.

أشياء كثيرة أو أي شيء تقريباً يمكن استعماله حجاباً، بشرط ألا يكون هذا الشيء شائعاً، فمثلاً: أنياب الذئب، جذور المندراك (اليبروح) قطع من أخشاب أو أحجار معينة. اللآلئ وبصورة خاصة الودع.

بعض الأطفال تكاد الحجب تغطي طواقيهم، أو أكتافهم أو حول أذرعهم وغير ذلك، وتحرص النساء على هذه العادة وتحافظ عليها طبعاً وكذلك الرجال ولا سيما في القرى. أما سكان المدن والقرى المثقفون فينبذون تلك الخرافات وعاداتها.

طقوس السحر والشعوذة

الحجاب بحد ذاته لا يكون دائماً الدرع الواقي لشخص ما، إلا إذا اقترن في كثير من الأحيان بممارسة بعض الطقوس الناجعة، أكثرها ما يكون غريباً جداً، وتنحصر هذه الطقوس بأساليب وشعوذة الخبير المعروفة. إذ يمكن الحصول على ما يستحيل الوصول إليه من قبل الآخرين بمفردهم. فهذه إذن أمور سحرية خالصة وممارسات خرافية. فمثلاً: تعتقد المرأة أنه باستطاعتها السيطرة على زوجها بشكل مطلق وأن تسيِّره حسب رغباتها كما لو كان حماراً تماماً. وذلك بأن تجعله يأكل مخ حمار، إذ تعمد إلى دسِّه في طعامه سرّاً، وهذه عادة سارية عند البدو، أما عند الأكراد فمعدومة.

هناك ظاهرة غريبة بين الأكراد اليزيديين وهي استعمال الدائرة السحرية، إذ من المعروف أن كثيراً من اليزيديين يعتقدون أن الدائرة مقدسة وتتمتع بقوة خارقة، وأنها ترمز للوقاية من الأذى وهي طريق الدخول إلى عالم آخر. كما

أنها معروفة في جميع الأماكن والأزمنة في كردستان. إذا رسم أحد الأكراد اليزيديين دائرة حول نفسه فذلك يعني أنه يستلقي في مكان بعيد خفي وأنه يحمي نفسه من مكائد الأرواح الشريرة. إذا رشَّ بعض القطران بالقرب يمكنه بذلك أن يحصر الشيطان في تلك البقعة ويأسره. عندما ينصرف بعض المشايخ إلى ممارسة أمور ووظائف العبادة والتنسُّك القاسية يعمدون أيضاً لرسم دائرة مندرا (MENDAR) بدم خروف ضحية أو قربان، وذلك لصدِّ الشياطين والجن عن أذاهم. بعض المشعوذين ممن يمارسون السحر بكثير أو قليل عليهم أيضاً أن يحيطوا أنفسهم أيضاً بدائرة أثناء تلاوتهم تعاويذهم. إذ يعتقد اليزيديون بقوة الدائرة السحرية، فإذا ما انحصر واحد منهم على سبيل المداعبة ضمن دائرة فعلى ذلك الشاب البائس أن ينتظر بعض الأرواح الخيِّرة لفكِّ تلك الدائرة الخطيرة، وإذا لم يتوفر له ذلك يبقى حبيس الدائرة ولا يجرؤ على الخروج أو الفرار منها حتى ولو شتمت الشيطان أمامه..

وهناك تعويذات سحرية أخرى يستخدمها الأكراد لجلب الأمطار أو حبسها إذا لزم الأمر، في حال حدوث الجفاف لا يكتفون بتلاوة الأدعية المألوفة فقط، إذ إن هناك صلوات وأدعية أخرى تدعى (نوجا بارانا NOJA BARANA) تقام خارج المدينة أو القرية كما أخبرنا توفيق وهبي في مكان تقوم فيه صومعة للدراويش أو (ديوانا DIWANA) صومعة الصوفية المتميزين، فيلطخون وجوههم بالسواد ويلوذون بقبر شيخ تلك المنطقة (بير MULLAH) الكبير ويصلّون عند قبره صلاة الاستسقاء (نوجا بارانا) مستلهمين بركة ذلك الولي لاستجابة الدعاء ثم يشكلون حلقة للذكر والدعاء تسمى (رقصة الدراويش). النساء أيضاً تشارك في الابتهال الروحي ضد الجفاف، يذهبن إلى البئر وينضحن الماء على بعضهن بعضاً أو يشددن أنفسهن إلى محراث يسحبنه نحو النهر، ثم يأخذن بحرث الماء كما تحرث الأرض. وهناك وسيلة أخرى يلجأن لها. يرتدين أجمل

ملابسهن ويتجولن جماعات بين أحياء القرية حتى يصلن إلى شجرة عظيمة وينتظمن في ظلها، مصطحبات أدوات المطبخ الضرورية ومواده ويأخذن بالرقص حول قدر الطعام حتى يتم نضجه ويصبح جاهزاً. بعد الانتهاء من تناول الطعام يبدأن بسكب الماء على أحلى ملابس الموجودات، ثم ينتظرن سقوط الأمطار، وإذا لم تهطل الأمطار قبل موعد عودتهن تباشر الواحدة بإغراق ملابس الأخرى بالماء، وهكذا يعدن إلى بيوتهن بملابس الغرقى. في كركوك تجتمع النسوة في الشارع تحت صنبور من ماء المطر، وهناك بعد توزيع الأطعمة على الفقراء ينقعن أنفسهن بماء ذلك الصنبور.. وعرف آخر في القرية، وهو أن يغطس أصلح وأتقى رجل معروف في بركة الماء. وفي أماكن أخرى يُكتفى بقذف حجر أُخذ من قبر عابد في البركة حيث يبقى في مكانه حتى تتساقط الأمطار.

الأولاد أيضاً لهم دورهم في هذا المضمار لما يملكون من أفئدة طاهرة، إذ يعمدون لصنع دمية تؤلف من قطعتي خشب على شكل صليب لاتيني تسمى (بوكا باران BUKA BARAN) أي عروس المطر يكسونها بالثياب ويضعون على رأسها عمامة يمسكها ولدان كل من ذراع ويطوفون بها مع رفاقهم من بيت إلى بيت وهم ينشدون:

يا من خلقت الأثمار والرمان وماءه.

نرجوك ربنا، أرسل المطر علينا مدرارا.

من أجل المرضى والمعوزين.

إلهنا دع الأمطار تهطل.

ذوت أوراق الربيع وأزهاره.

أين أنت يا عروس المطر الفاتنة.

نتوسل إليك بأن تروي المزروعات العطشى.

أعيدي لنا خيرات الأيام السالفة.

ثم يغمس الأولاد الدمية في بركة كل بيت ثم تصب صاحبة البيت بدورها دلواً من الماء على اللعبة وبعدها توزع اللحوم بالحلوى على الصبية.. وعلى عكس ذلك عندما ينبغي توقف الأمطار خوفاً من تلف المزروعات، يلجأ الأولاد إلى الطريقة نفسها فيصنعون دمية مماثلة وينطلقون بالفناء (كودو كودو KODU KODU) وتوزع عليهم الهدايا أيضاً. هناك نهج آخر أكثر إحكاماً، وهو أن يؤخذ حبل ويعمل به سبع أو تسع عقد تشابه بمجموعها رأساً أصلع ثم يرمى في النار مع إنشاد ما يلي: ((أضرمت النار لإحراق الرؤوس الصلعاء، ومن أجلها فلتحرقني الشمس)). وفي بعض الأحيان تعقد أربعون عقدة في حبل وكل عقدة ترمز إلى رأس أصلع، ثم يوصل الحبل بصنبور ماء المطر باتجاه مكة المكرمة، إلا أن تلك الطريقة يمكن أن تكون أكثر منها سهولة وذلك بكتابة أسماء الصلع في ورقة تعلق في شجرة.

عبادة الأوثان. هل هي قائمة؟

العقائد الخرافية والممارسات السحرية ليست مقتصرة على الأكراد وحدهم فهي أيضاً كائنة بين شعوب الأناضول والقوقاز المجاورين، كما أن هناك أعرافاً وعاداتٍ أخرى عريقة تسرَّبت إلى الأكراد من بطون التاريخ وقرونه الغابرة، فمن المسلَّم به أن دين الأكراد القدامى هو الزرادشتية إحدى الديانات الشرقية القديمة، والأكراد أنفسهم يميلون إلى الاعتقاد بأن عبادة الشمس وعبادة النار لا تزال موجودة لدى بعضهم وخصوصاً اليزيديين وهذه حقيقة واقعة، إذ ليس هناك ما يدحض صحة أن الشمسيين واليزيديين يتجهون في صلاتهم نحو شروق الشمس ونحو غروبها. وكثير من المسيحيين أيضاً يؤدون صلاتهم باتجاه المشرق.

فيما يتعلق بعبادة النار، هناك ما يجدر ذكره، طبعاً لا يمكن إنكار حقيقة أن الأكراد يعدُّون الموقد شيئاً مقدّساً، فاستمرار نار الموقد هي رمز استمرار الأسرة، ورماد مواقد بعض الصوفية وأهل الحق في كردستان كما أخبرنا (موكري MUH.MOKRI) تمتلك قوة سحرية دينيَّة يؤمن بها بعض الناس، وهذا ما أكدته مدام شانتر (M. CHANTRE) التي أضافت إلى ذلك كثيراً من التفصيلات فكتبت: إن احترام موقد الآباء لدى الأكراد ليس له حدود، وكذلك مواقد مشايخهم. ((يتألف الموقد من بعض الحجارة، وهو مقدَّس والنار التي تضرم به تعدُّ عنصراً نقيّاً طاهراً، وبصقة على ناره تعدُّ إهانة قاتلة. وقد يذهب الكردي لأن يقسم بموقده، كما أن الطفل المولود حديثاً يحوّم به حول الموقد، وفتاة على وشك الزواج عليها أن تدور حول الموقد قبل مغادرتها لبيتها الجديد. وعندما تزوج الأم ابنها تضرم موقده الجديد بنار تؤخذ من موقد دار أبيه، بينما يتحاشى الجيران اقتراض النار أحدهما من الآخر، إذ يعدُّ ذلك شؤماً، وتستمر النار متَّقدة الليل والنهار طيلة أيام الربيع حتى موعد ولادة الأغنام)). أضف إلى ذلك أنه يحظر على أي أحد أخذ نار من تحت قدر يغلي فيه الحليب، ولا أن يمر بين قطيع من الغنم وهو يحمل شعلة من نار. ويولي اليزيديون - والقزلباش القدر نفسه من الاحترام للنور والنار، ومع كل هذا تبقى عبادة النار غير مشتركة لدى أفراد ذلك الشعب أو جماعاته، إذ لا يؤخذ من بين تلك الأعراف ما يشير إلى عبادة معيَّنة. ولا صلوات أو ابتهالات أو أي شيء من أجل القرابين. خلال الحرب العالمية الأولى يؤكد ضابط قوقازي أنه وجد في مخيَّم كردي على الحدود الإيرانية التركية، آثاراً تدل على عبادة النار. وجد في إحدى الخيم ((قدراً ذا ثلاث قوائم وسلسلة صدئة علّق طرفها تحت قرون وعل، والطرف الآخر مدّ إلى ما تحت القدر ويحيط بنار القدر أحجار تحمل رسوماً ورموزاً وأحرفاً، وقد خصصت الخيمة من قبل جماعة المخيم للعبادة فقط و لم

تكن معدَّة للإقامة أبداً. وتجري زيارتها فقط بالممارسات الدينية الخاصة، عندما يعمد كبار القبيلة إلى ذبح القرابين من الحيوانات على تلك الأحجار)). وحسب (NIKITINE) فهل كل تلك الدلائل تكفي لتدل على أنه مذبح لعبدة النار؟ أليست قرون الخروف المتفحمة القابعة بين حجارة الموقد تشير إلى حقيقة بقايا وجبة طعام الرعاة مثلاً؟ حتى إذا كانت الأحجار تحمل تلك النقوش فإن البرهان يظل ضعيفاً ولا يشير إلى شيء قليل جداً؛ لأن تلك المناطق تحتوي خرائب كثيرة استعملت أحجارها لأغراض كثيرة مختلفة يبقى معها الرواة في حيرة من أمرهم، ولا ندري كيف تأكد للكاتب الأرمني في روايته بأن ذلك المكان لم يكن إلا مذبحاً وعلى أي أساس بنى روايته؟ إذ لا بد وأن يكون الأمر مختلفاً جداً إذا ما كشف لنا ذلك الشعب عن حقيقة الأمر وما يعنيه من ذلك..

هناك دليل يبدو أكثر وضوحاً وهو يشير إلى عبادة قوى الطبيعة. ومن المعروف أن الأقدمين في أكثر بقاع الأرض كانوا يعتقدون أن الأرواح شرِّيرة كانت أم خيِّرة تأوي إلى أشجار وينابيع معيَّنة. وهكذا نجد أن تلك المعتقدات لم تندثر نهائياً إذ لا يزال بعضها موجوداً في كردستان، لذا نجد أنَّ كثيراً من الأشجار والينابيع تعدُّ مقدسة حتى يومنا هذا، ولا أهمية لما كتبه السيد درايفر (Mr. DRIVER) وما قد يكتبه الآخرون بهذا الصدد وما إذا كانت تلك العقيدة القائمة تدل بطريقة ما على عبادة الأشجار بدرجة أقل من عبادة الأرواح التي تسكنها. الأشجار المقدسة تكون عادة بالقرب من أضرحة بعض القديسين. مشايخاً كانوا أم صوفيين، وغالباً ما تطلق على تلك الأشجار أسماء خاصة بها. فمثلاً: اليزيديون في قرية باشيكا (BA'ASHIQA) يطلقون على شجرة التين اسم الست نفيسة وفي قرية خرابك (KHARABEK) تحظى شجرة التوت باللقب ذاته، وأي شخص يمر بشجرة مقدسة عليه أن يربط إليها قصاصة قماش وذلك في حال وفاء نذر أو دعاء من أجل الصحة مثلاً، وقد لاحظت مدام هنسن

(HANSEN) تماماً بأن تلك القصاصات المربوطة إلى الأشجار تتميز عن مثيلاتها المتدلّية من رؤوس السواري الموجودة لدى قبور بعض القديسين. إذ يعدُّ الوجه الأول وثني باقٍ حي، أما الوجه الثاني فلا..

الينبوع المقدس غالباً ما يكون بالقرب من مزار أحد الأولياء.. (TEKKé أو ZIARED) وتجري زيارة مثل تلك الأماكن من أجل طلب الشفاء من الأمراض، فعين (خاني زركي KANI ZERKé) أو النبع الأصفر في شيخان يشفي من اليرقان وذلك لما يعنيه اسمه المجرد، وعين زم زم الكائنة عند ضريح الشيخ عدي والتي تمتد مباشرة من مكة المكرمة لا تحتاج إلى وصف أو بيان، وتُقصد في حال ختان الأولاد وتطهيرهم، وكثير من مياه تلك الينابيع المليئة بالأسماك تعدُّ مقدسة ولا يحلُّ اصطيادها، ومثال على ذلك ينابيع (باهزاني BAHZANI) في شيخان بالقرب من مزار الشيخ بيكو (BEKO)، وتلك الموجودة عند ضريح الشيخ عبد القادر في تورند (TURUNDE) في جبل سمعان.

الكهوف وصخور أضرحة ما قبل التاريخ والينابيع الصافية بأسماكها وغيض المقابر القديمة والأشجار المقدسة التي يحظّر قطع أي غصن منها حتى ولو كان ميتاً، كل هذه الأماكن تأوي إليها الأرواح بنوعيها النباتية والمائية تكاد تنتشر في كل مكان في كردستان وتحظى بالتبجيل والاحترام نفسه. كل هذه الأشياء ألِفها الأكراد منذ أقدم عصور الوثنية، أما عبادة القديسين التي ربما حلَّ محلها في أحوال كثيرة عبادة القوى الطبيعية، لم تنفصل تماماً عن قلوب كثير من الناس بالرغم من انتشار شرائع الدين الإسلامي وتعاليمه الصارمة.

الفصل العاشر

الأدب

هذا الفصل ربما يدهش بعض القراء الذين لم يروا كتاباً كردياً فحسب بل ستزداد دهشتهم إذا ما تبينوا وجود ذلك الكتاب، فهم إذن على جانب كبير من الخطأ الفادح، وهناك من ذهب بعيداً فيجحد وجود اللغة الكردية أصلاً. فيقول: إن الأكراد يتكلمون نوعاً من لهجة مستعارة من العربية والفارسية أو لغات أخرى مجاورة كالأرمنية والكلدانية، وما كل ذلك إلا محض خيال ووهم، فاللغة الكردية قائمة متكاملة بشخصيتها، وقد أجريت عليها دراسات مستفيضة خلال أكثر من قرن كامل من قبل علماء مشاهير أثبتوا شخصيتها المستقلة. وسنكتفي بالاستشهاد بأحدث المؤرخين أمثال (ENMcCarus) من الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٥٨ م و (D. N. MACKENZIE) من أوكسفورد عام ١٩٦١ م و ١٩٦٢ م، وفي الاتحاد السوفيتي (I. TUSKERMAN) عام ١٩٦٤ م، و (K. KURDO) عام ١٩٦١ م، وقد طبع هذا الأخير في موسكو قاموساً من الكردية إلى الروسية مؤلفاً من ٣٠,٠٠٠ كلمة.

لنتكلم قليلاً عن اللغة الكردية قبل أن نتوغل بالألفاظ والأدب الشعبي وبعد ذلك نتناول المؤلفات أو الآثار والإنتاج الأدبي والفني.

اللغة الكردية

يتكلم الأكراد لغة هندو - أوربية تتصل بالفارسية الحديثة التي يجب أن يلتبس معها ما يتعلق بمفردات اللغة، وضوح اللفظ، وتركيب الجملة. وهناك لهجتان رئيسيتان الأولى (الكرمانجي KURMANGI) وتسود شمال البلاد وغربها وينطق بها أكراد تركية وسورية والاتحاد السوفييتي وشمالي العراق، والثانية في الجنوب وتدعى (الصوراني SORANI) وينطق بها أكراد إيران وشرقي العراق، ويفصل فيما بينهما البلاد الواقعة في حوض الزاب الكبير التي تشكل حدّاً فاصلاً بين هاتين اللهجتين المختلفتين. بعض الأكراد بما فيهم قبائل الظاظا (ZAZA) يتكلمون لهجة خاصة بهم وهي (الغورانية GORANI)، زد على ذلك أن كل واحدة من هذه اللهجات تتضمن تنوعاً لا متناهياً بشكل يمكن معه القول: إن كل قبيلة في الوادي لها لهجتها الخاصة بها. وهذه ظاهرة تعم جميع سكان الجبال. على أي حال ليس هناك ما يدعو للاستغراب مطلقاً من استعمال تلك اللهجات الوطنية، فالعرب بالمغرب مثلاً لا يستطيع أن يفهمهم عرب العراق إلا بصعوبة فائقة، كما أن المصريين لا يفهمون اللبنانيين بشكل جيد[١]. المفردات الكردية هي فارسية القاعدة، لكنها تتأثر بالعربية والفارسية والتركية معاً، وسبب ذلك يعود بشكل واضح لشمول نطاق الدين. إذ إن شعوب تلك المنطقة بأكملها تدين بالإسلام، ولغة القرآن الكريم هي أساس جوهري في ذلك.

كان الأكراد قديماً كالفرس والأتراك يستعملون الأحرف العربية بكتابة لغتهم، ولكن بما أن اللغة العربية هي لغة سامية، لا تفي بمتطلبات اللغات التي

(١) كلام المؤلّف هنا غير صحيح، فالمغربي يفهم العراقي تماماً حينما يتكلّمان العربية الفصحى، والمصري واللبناني كذلك، حتّى إنّهما يتفاهمان بشكل جيد أيضاً في لهجتهما العاميّة. (النّاشر).

تستعملها الشعوب الإسلامية الأخرى التي لا تعوزها تعابير اللفظ العربيـة فقـط، بل لأنها تحتوي على تعابير شفوية إضافية غير متوفرة باللغة العربية، وقد أضـاف الفرس أيضاً إلى الأبجدية العربية أحرفاً جديدة تمثل النبرات المميزة بشكل دقيـق، كحرفي (J. V) مثلاً وهما غير متوفرين باللغة العربية، والصعوبة الثانية هي عجز إظهار الأحرف الصوتية في الأبجدية العربية، وعلى هذا الأسـاس أضـاف أكـراد العراق خصوصاً رموزاً أبجدية وثيقة كما فعل الأتراك في المـاضي تمامـاً، وبالتـالي فإن القراءة بالأحرف العربية لم تكن أقل صعوبة. لذلك لجـأ المفكـرون الأكـراد وبصورة خاصة أمراء بدرخان إلى السير على خطى كمال أتاتورك الذي استلهم استخدام الأحرف اللاتينية باللغة التركيـة و لم يـترددوا في هـذا النهـج، وأقدمـوا على اعتماد الأحرف اللاتينيــة بـأبجديتهم مستعملين علامـة واحـدة تحـدِّد كـل صوت بمفرده بشكل يمكن معه كتابة ذلك الصـوت بتلـك العلامـة فقـط، وقـد سهَّل هذا الابتكار الأبجدية الصوتية إلى حدٍّ بعيد وأثبت فعاليته طيلـة أكـثر مـن ٤٠ عاماً، وهذا في ظل صرامة القانون على أكراد سـورية ولبنـان وتركيـة الـتي كانت نافذة.

ست وعشرون حرفاً تكفي الآن لكتابة اللغة الكرديـة، منهـا خمسـة أحـرف صوتية: (A. E. I. O. U.) ثم اثنان نصف سـاكنة وهمـا (Y. W) وتسـعة عشـر حرفاً ساكنة: (B. C. D. F. G. H. J. K. L. M. N. P. Q. R. S. T. V. X. Z) وثلاثة من الأحرف الصوتية تحمل نـبرة ثلاثيـة فوقهـا وهـي (ê. î. û) وحرفـان ساكنان يحملان سديلاً (ç. S) وحرفان آخران يأخذان وضعاً خاصاً وهما: (H. X) وهذه الأحرف جميعها تلفظ كما تلفظ بالفرنسية تقريباً، مـا عـدا الأحـرف الصوتية فبيانها كما يلـي: (A=A طويلـة) (E=A) قصـيرة جـداً (E=I صامتـة) (u=OU).

أما الأحرف الساكنة (G و S) فهي دائماً صلبة كما هي في (GATEAU) و (SAUCISSE) و (C=DJ) و (G=YcH) و (S=CH) و (X=KH خ بالعربيـة)، و (X= غين عربية). وقد كتبت الكلمات الكردية الواردة في هذا الكتاب علـى هذا النمط.

في البداية كان أكراد أرمينية السوفييتية أول من بدأ بنسخ أعمالـه بـالأحرف اللاتينية، وذلك بعد تعديل الأحرف بشكل وثيـق. ولكـن قبيـل الحـرب العالميـة الثانية بوقت قصير تحولوا إلى الأبجدية السيريلية (ذات علاقة بأبجدية سلافية قديمة مخترعها القديس سيريل) مع بعض التعديلات. وعلى أي حـال فقـد كـان ذلـك النسخ أسهل وأوضح من النمط العربي الذي استبقى أكـراد العـراق في دائرتـه. ومن المؤمل أن يوافق جميع الأكراد في نهاية الأمر علـى تبنّـي الأحـرف اللاتينيـة التي ستجعل القراءة والكتابة أسـهل بالنسـبة إلى الأولاد الصغـار، كمـا أن مثـل ذلك التحويل سيعزز من وحدة اللغة ووحدة الفكر بلا ريب.

الأدب العامي واللفظي

ما دام المنهج التربوي في كثير من الشعوب بطيء التقدم، فإنك تـرى الأدب اللفظي عند الأكراد غنيّاً وغزيراً بشكل استثنائي، حتى إنه يمكـن اعتبـاره ينمـو ويـزداد بارتباطـه بـالفلكلور الشـعبي حسـب رأي (O.VILTCHEVSKY) فلتشفسكي. وفي الحقيقة إذا أردنا أن نتبيَّن شيئاً من ذلك، إذن علينا أن نغـوص في أكداس ضخمة مـن المستندات الـتي جمعـت ونشـرت مـن قبـل المستشـرقين الأجانب أمثال: جابا، لرتش، برايم وسوسن، ماكاس، مـان، هدانـك، نكتـين، ليكوت، ماكنزي.. إلخ.

JABA, LERCH, PRYM & SOCIN, MAKAS, MANN, HADANK, NIKITINE, LESCOT, MACKENZIE eTc...

بعض تلك النصوص كانت قديمة بعض الشيء تعود إلى القرن الخامس عشر والسادس عشر، وقد بدأ الأكراد أنفسهم حينئذٍ العمل بهذا الصدد ولا سيما بالاتحاد السوفييتي، وفي غضون ٣٠ سنة خلت استطاعوا أن يستخلصوا من آثار الشعب القديم كثيراً من المذكرات عن رواة القصص، المغنّون، أغاني وأساطير ذلك الشعب كـ حجي جندي (HAJI JINDI) وأمين أفدال (AMIN AVDAL) وجاسم جليل (JASIM JALIL) الذين خلفوا أعمالاً خالدة رائعة في هذا المضمار.

الوفرة والغنى في الفولكلور الشعبي يبدو جلياً أكثر من كل شيء في الأمثال والأقوال المأثورة، والألغاز والأحجيات والأغاني والقصص ثم القصص الملحمية البطولية.

الأمثال الكردية كثيرة جداً، وأغلبها طيب المذاق ومفعم بالحيوية، وقد أُتيحت لنا الفرصة لتدوين بعضها، وذلك من خلال أعمالنا. واقع الكردي يميل إلى تنميق الكلام فيسلك طريق السجع والإيقاع الذي يوحي بإحساس عميق بالملاحظة، مشهد الطبيعة، الأعمال اليومية. ولا سيما وصف الحيوانات الأليفة. عندما يوقظها. والوحوش التي اصطادها، كل هذه الأشياء كانت دوافع فضولية، استنبط منها كنزاً زاخراً بالحكمة الواقعية:

لا توجد قمم عالية دون ثلج، ولا وديان سحيقة دون ماء.

أعتى الصخور لا تؤثر إلا بالمكان القابعة فيه فقط.

يزداد صوت الماء صخباً إذا جرى في قناة ضيِّقة.

تحلم الدجاجة الجائعة بالذرة.

من يصادق العقعق يبقى منقاره دائماً بالوحل.

القدر الذي تكسره ربة البيت لا يسمع صوته.

الذي يجلس قرب الكير لا ينال سوى الشرر.

وهناك أقوال شعبية تواكب فصول السنة:

في فصل الصيف.

الطيور تنادي رمال الشاطئ (MEYDAN).

أيام رمضان تمضي وحدها بسرعة.

في شهر أيار.

صاحب الكرم كثير الخوف والهواجس دائماً.

في فصل الخريف ادخل بيتك بسرعة وفي الربيع أسرع بالخروج.

مطر نيسان يساوي كنوز خراسان.

ويغرم الأكراد بوضع الأحاجي والألغاز مثلاً:

قبعة مقعَّرة تملؤها البراغيث؟ تينة.

الحمار ينهق والروث ينطلق؟ عيار ناري.

إلخ...

ماذا عن الأغاني؟

كما لوحظ في الفصل السادس، إن الأغاني لا ينضب معينها من حيث العدد والتنوع، في الريف، في البيت، أثناء العمل، في كل مكان تسمع الأغاني؛ من الفلاح، من الحلاَّبة، من الأمّ.. أغاني الحب والحرب، أغاني الرثاء والندب،

والأغاني الراقصة دائماً على شفاه الراعي كما هي على شفاه ربَّة المنزل. هناك مرجع قوي جداً من الطراز الأول عن الغناء بالأعراف الكردية جاء به لسكوت (R. Lescot) أعطى وصفاً رائعاً عن أغنية الخريف (PEHIZOK) تبدو للوهلة الأولى أنها لا تختلف كثيراً عن باقي الأغاني المستوحاة من أحاسيس الحب وعواطفه الجيّاشة. الأفكار فيها محكمة ومتقنة. (هوىً وعطاءً من دون جزاء أو مقابل، فراق، ألم وجوى في جوف الليالي). ومتطابقة شكلاً ومضموناً كما يصور ذلك في حوار حبيبين. خلفية الأغنية وطبيعة خلقها يرجع إلى ما أضفي عليها وما أعطي لها من نغمة فريدة مميزة، كل مقطع من الشعر تقريباً يبدأ بنظرة خاطفة إلى منظر الطبيعة في فصل الخريف الذي يوحي بالحزن والكآبة التي تنعكس مباشرة على أفكار الشاعر وتجعلها مظلمة داكنة. الجبال يحجبها الضباب، السيول تزداد وتتعاظم من الأمطار المبكرة وتمضي بمياهها الهادرة وقد غطت الثلوج أعالي القمم، الشتاء يقترب، والبدو الرُّحل يغادرون بخيامهم مراعي الصيف الجميلة إلى السهول، لقد ولَّت وانقضت أيام السعادة والمرح، ابتدأت نهاية أيام الغزل والأحلام والخيال، حانت ساعة الفراق الموجعة التي يعاني الإنسان من مرارة آلامها حيث لا يستطيع أن يجرؤ على البوح مما يعانيه من آلام الحب الجارفة.

هناك أغنية قصيرة كان قد جمعها مؤرخ منذ ٣٠ عاماً تغنّيها فتاة تدعى ميرموك (MEYRAMOK) أو مارييت (MARIETTE) تعبر في قسم منها عن أفكارها ومشاعرها، وتبيِّن كيف أنها تعرف كيف تتصرف مع المعجب الوقح. وهذه واحدة من الأغاني الكردية المألوفة، وهي عبارة عن حوار بين فتاة جميلة وجواهرجي كانت قد طلبت منه أن يصوغ لها زهرة ذهبية كالزهرات التي تضعها النسوة الكرديات في طرف إحدى فتحات الأنف:

هيّا. معلّم حنّا اصنع لي زهرة ذهبية.

ولكن إياك أن تثنيها بالكماشة.

أو تضعها على السندان.

أو تطرقها بالمطرقة.

وأقسم بأنك سوف لا تندم.

سأصنع لكِ زهرة ذهبية.

وسوف لا أثنيها بالكماشة.

ولا أضعها على السندان.

وسوف لا أضربها بالمطرقة.

وأقسم بأنه سوف لا يعتريني الندم.

إذا منحتني زوجاً من القُبَل.

إذا كانت هذه غايتك، فلا تأمل مطلقاً بقُبَلِي.

حتى ولو دفعت ثمن ذلك.

سبعة قطعان من الغنم.

وسبعة قطعان من ماعز شعرها أجعد.

وسبع قطع من أرض خصبة.

وسبع طواحين.

وسبع معاصر خمر يديرها أتان.

وسبعة أكواب من لبن العصفور.

وكل هذا بالحقيقة دون أي طائل.

القصص (جيروك GIROK): في الفولكلور الكردي ليست أقل شأناً وغزارة من الأغاني.. الأولاد يعشقون القصص، كما أن قسماً من الشعب غير المثقف غالباً ما يجعلون أولادهم يحيون في جو من الخيال والفكر، ولا شيء يسعدهم أكثر من حكاية مشوِّقة تلهيهم حتى عن الطعام والشراب اليومي. وهكذا نجد أن هناك القصص المثيرة التي تشرح غرائب الطبيعة أو تحكي عن أصول بعض الآثار والمعالم الغريبة، وعلى سبيل المثال: كانت تروى قصة أمير بهدنان (BAHDINAN) الذي حصرته دلاله (DALALé) في بناء جسر زاخو الذي سينهار إذا لم تقدم له ضحية بشرية. أو أسطورة بنجول (BINGOL) ذي الألف بحيرة التي تبحث عن ينبوع الحياة الأبدية. وقد نشر (لسكوت R. LESCOT) في عام ١٩٤٠ م مجموعة كاملة من قصص مليئة بالمغامرات وقصص أخرى مختلفة كثيرة تحكى في شتى المجالات مثل قصة اليقطين.. (KEÇELOK) أو الرأس الحارقة، سليمان زندي (SILêMANI ZINDI) هرزم (HERZEM) ذو الآذان الطويلة، الحاج بيرم إلخ...

الأكراد يحبون القصص من أجل سردها وروايتها وخصوصاً حكايات الفكاهة والنوادر، وهم في هذا المضمار لا يفتقرون إلى روح الدعابة والظرف الذي يتذوقه ويحسُّ به كل من يسافر أو يزور كردستان، وفي مجال الظرف والدعابة يمارس الأكراد مقدرتهم الفائقة بالهجاء ويتفننون في سرد القصص الهجائية اللاذعة بغرابة وطرافة ولا يتورعون من أن يتناولوا في هجائهم أولئك الذين يعايشونهم أو تربطهم بهم علاقات وطيدة، ولا غرو في أن يجعلوا رجال الدين مثلاً أو المشايخ، أو الملاّ عرضة للهجاء، وأحياناً يكون النقد جارحاً ولكن

غالباً ما يكون بأسلوب مألوف مما يعيد إلى الذهن خرافات وأساطير القرون الوسطى. الروح الهجائية تجد مادتها بسهولة عند رؤساء ووجوه القبائل المجاورة إلى حد كبير وفي أي مكان آخر، في كل قرية ومدينة يمتازون بشهرة واسعة في هذا الصدد، ولا خير من أن تكون الدعابة منصفة أو مجحفة، وهكذا نرى من خلال هذه القصص أن بعض القبائل تشتهر بالشجاعة والبسالة بينما تظل قبائل أخرى تتحمل سخرية جيرانها الذين يروون عنهم القصص التي غالباً ما تكون مختلفة، ولا ضرر من ذلك إذا كان الذين يضحكون منها ليسوا من الأشرار.

وهناك نوع من القصص يتفوق بها الأكراد، ألا وهي قصص الحيوانات التي تتناول كل ما خلق الله سبحانه وتعالى من أصناف الحيوانات، وهم بذلك يمثلون صورة حقيقية عن سفينة نوح بكل ما فيها من معان دقيقة، حيث احتفظت الأفعى فيها ببعض أدوار الشر التي يختص بها الشيطان في عبثه في جنة الدنيا، وهناك قصة الأسد والدب، وكذلك الذئب حيث يعرضون من خلال تلك القصص الجذابة مهاراتهم الفائقة في تصوير العنف، الكبرياء، الجبن، البراعة. بحيث تمثل مجموعة من المقتطفات الأدبية الكاملة المختارة الرائعة، ولا سيما القصص التي تصور الثعلب بنشاطه وحركته المتميزة وقدرته في نزاعه مع كثير من الحيوانات كالذئب والأسد، الديك أو الحمار، البومة أو القنفذ، الكركي أو الفأر، السلحفاة أو الأفعى، وفي كل حالة من هذه الحالات ترى هذا الحيوان الماكر وهو يناضل ليكون المتفوق دائماً على غيره، إلا أنه لا ينجح دائماً بذلك أو على الأقل لا تسير الأمور دائماً حسب ما يشتهي على الرغم من اتباعه ضروب الخداع والمراوغة.

وكثيراً ما يتناول المشهد في القصة، الملك سليمان وكيف يتحدث إلى الحيوانات ويستقصي إنجازاتهم وأعمالهم البطولية، الطيور تعدُّ إما رمزاً للفضيلة

أو للرذيلة، فإذا أراد أحد أن يختبر مدى إخلاص أحد أصدقائه من بين أولئك الذين يفترض دائماً إخلاصهم ومحبتهم، بالطبع لا يلجأ إلى الزرزور، اللقلق، الكركي حتى ولا إلى الجمل. بل إلى العقعق فقط باعتباره طائراً غير موسمي ومن عاداته أن يطير بعيداً ويغادر أرضه بمجرد حلول الأوقات العصيبة. جميع هذه القصص يتجلى فيها دائماً مفهوم ضمني رقيق أدبي كثير الشبه بأسلوب الشاعر الفرنسي لافونتين.

الذي أمكن تحقيقه حتى الآن من هذا الأدب هو القليل من مراجع: الأغاني القصيرة التي تتألف من بضع مقاطع يغنّيها أيّ كان، وكذلك الحكايات القصيرة والقصيرة جداً، ما عدا تلك التي نشرت من قبل (R. LESCOT) فهي سهلة وليست معقدة ويمكن حفظها بسهولة ومع هذا فالأدب الكردي الشعبي يظل أكثر انتشاراً وامتداداً، إلا أن أغاني الحب تبقى دائمة الترداد، وتأتي لتروي قصص الحب في كل مناسبة، والحوادث الواقعية كثيراً ما يشوبها شيءٌ من الخيال والتصوير البارع لتزيد في إثارتها وجاذبيتها، المعارك القبلية يتم سردها بقالب غنائي جميل. عند وضع الملحمة يعتمد فيها تصوير الأسطورة وهي تمتزج بالحقيقة والواقع، والأساطير والملاحم الكردية الكبيرة عادة ما يغنّيها أو يسردها شعراء الغناء المحترفون الذين أصبحوا لسوء الحظ قلّة نادرة، أولئك الذين يدعون (CIROKBêJ) القصّاصين أو المغنّين (STRANVAN) شعراء الغناء أو مؤلفي القصيدة، في كلا حالتي الشعر أو النثر القصصي يبدأ المغني عادة بسرد القصة، وعندما ينتهي من عرضه وتقديم شخصيات الملحمة لا يلبث أن يحولها إلى شعر يسترسل في غنائه إلى أي مدى يختاره وعندما يكون هناك عدد من المغنّين يقوم أحدهم بدور القصاص بينما يلتزم الباقون بأدوار شخصيات القصة، ويغني كل

حسب دوره. الحكايات والأساطير عموماً تصاغ شعراً. النثر المسجوع كثيراً ما ينقلب إلى شعر أيضاً. ويُغنى بألحان جميلة خفيفة. يستهل المغنّي غناءه في جميع أجزاء الوصف ملتزماً بالقافية التي يظل محافظاً عليها حتى الوقفة الأولى، وفي كل وقفة من الغناء، بحيث تبقى القافية متوافقة مع الوقفات السابقة، وهكذا يستمر المغني في غنائه. يقول (ج. بدرخان C. Bedir Khan) ولقد كان هناك قديماً مدارس حقيقية لتعليم الغناء وتدريب المغنّين، وكان يدعمها الآغا وزعماء القبائل البارزين، ولكنَّ الحياة قد تبدَّلت الآن، وشعراء الغناء الحقيقيّون قضوا نحبهم وانقرضوا بسرعة الزمن.

هناك نصوص كثيرة غنيَّة لا ينضب معينها من معلومات، وهي تحكي عن تاريخ القبائل وعادات وطباع الأكراد القدامى كانت تُنشر وتُذاع بين الحين والآخر. ومن بين تلك المؤلفات استطعنا أن نظفر بمعلومات وافرة غزيرة تتحدث عن الطقوس الدينية والمعتقدات والخرافات، صيغة القسم (اليمين)، أسماء الأسلحة، أدوات الموسيقى العائدة للعهد الماضي. الأمثال كانت تزخر بتصوير أوضاعهم المختلفة. وقد قام نكتين (B. NIKITINE) بإنتاج روايات مشابهة لذلك: الصيد ومواقع المعارك، لعنة الحب، اختلاف الطباع بين سكان الجبال وسكان السهول، وصف مناظر الطبيعة (السيول الجارفة، العواصف)، الدلائل الدقيقة على وحدة الوجود. المتعبدون تعودوا مناجاة الطير، الحصان، الثلج إلخ.. هنا تجدر الإشارة إلى وجود اختلاف كبير في الأفكار إذ تستحق كل فكرة منها الاهتمام والعناية باعتبارها تشكل مادة هامة للدراسة، وفي الحقيقة يمكن القول: إنها تمثّل كنزاً ضخماً من المعلومات جاهزاً في متناول اليد يصلح لأن يكون مقدمة كاملة تحكي عن شخصية الشعب الكردي.

ليس المقصود طبعاً تعداد جميع الأساطير المنشورة بل علينا أن نحصر اهتمامنا فقط بأكثرها شهرة وانتشاراً، هذه القصص غالباً ما تكون طويلة جداً يمكن تقسيمها إلى عدة مقولات.

أولاً - هناك أساطير السحر والعجائب، يظل الفرد البائس مع ما يعانيه من شقاء وفقر وعناء وآلام يستحث أحلامه لتصبح حقيقة. وهي أن يتسنّى له أن يأكل ما يستطيب، أن يتخلص من أسماله، أن يفتح كوخه نحو الرياح الآتية من السماء، أن ينجح في مشاريعه، يتزوج المرأة التي اختارها، أن يكون لديه أولاد رائعون.. ولكن يا للأسف!.. سرعان ما يصطدم بالحقيقة المرَّة وتتلاشى أحلامه.. حينئذٍ يرى أن عليه أن ينفّس عن كربه فيلجأ إلى سماع حكايات ألوان السعادة التي يتمتع بها أولئك الأبطال والمغامرون. تلك السعادة التي لم تتحقق إلا بفضل إحدى الجنّيات الكريمات التي تلبي جميع طلباتهم ورغباتهم دون أي تأخير. وجبات فاخرة جاهزة قادمة من الحدائق السماوية البهيجة. ألبسة من الحرير المرصع بالجواهر الكريمة. قصور مملوءة بالنفائس والذهب. ومداعبة أجمل بنات الدنيا. مثل هذه الأمور إذا كانت تشكل عائقاً أو حجر عثرة في طريق السعادة إما قضاءً وقدراً أو بسبب ما يفعله بعض الأشرار، أمكن قهرها والتغلب عليها.

هناك لدينا بعض العبارات التي تنحصر بمواضيع أساطير السحر والتي لا يمكن للمرء أن يتصور مدى تنوعها واختلافها المفرط الذي لا ينتهي أبداً.

هناك إذن الأسطورة الرائعة الشعبية مموزين[1] (MEMOZIN) التي انبثق عنها ترجمة (MEMe ALAN) والتي ترجع إلى الوراء حتى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر [الميلادي]. هناك أيضاً شف هاجي (SEVHAJe) إلخ..

ثانياً - كما توجد أيضاً الأساطير التي تصور الأغاني الريفية الصافية النقية. إن الكردي الذي يُفتن بحكايات العفاريت يؤخذ أيضاً بالقصص الزاخرة بالعجائب والخوارق والسعادة التي لا تتوفر في هذا العالم، ويسعد ويبتهج بحكايات المغامرات الهائلة ولو كانت أقل إثارة مما سبق، بينما يكون حسّه وشعوره أعمق لدى سماع حكايات الحب العذري الطاهر، الشرف الذي لا يرام، الشجاعة الخارقة إلخ.. لذا فهو يُصغي باهتمام بالغ وبكل مشاعره لقصة زليخا وفتول، وليلى والمجنون، سيابند وخاتشي (SYABEND & KHATCHe)، خورشيد وخاور (KHURSID & KHWER)، شيرين وخسرو إلخ.. وتجدر الإشارة إلى أن القصص والحكايات ذاتها يتداولها أيضاً الفرس، والأرمن، والأتراك.

ثالثاً - وأخيراً هناك ملاحم تاريخية (ملاحم انبعثت من سلسلة أحداث من التاريخ) وبالوقت ذاته وبقدر ما يتأثر وجدان الكردي ومشاعره المرهفة بمناسبة ما، فهو قبل كل شيء محارب جبار لا يلين، وهذه حقيقة أساسية. إذ يزخر رأسه بملاحم أبطال القصص الفارسية المجيدة الراسخة لديه وتغمره السعادة والنشوة لدى سماع سرد حكايات بطولات المعارك. فيما مضى كان لكل غزوة شاعرها، وكل معركة قبلية كانت تشتهر بواسطة الشعر الغنائي (DENG BêJ) إذ إن قصص بطولات الشيخ محمود وكذلك أعمال ملاّ مصطفى الخارقة لا

---

(١) ترجمها الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي إلى العربية، (ط٥/١٩٨٢م) وطبعتها دار الفكر بدمشق، وتكرر طبعها، (النّاشر).

تلقى القدر والأثر الذي تستحقه إلا من قبل شعراء متميزين ((هناك مثلاً قصة حرب التحرير (SERê AZADî) التي نشرت حديثاً في بيروت عام ١٩٦٤م))، وقد دأب الأكراد على الاهتمام بالملاحم القديمة كملحمة دم دم (DIM DIM) أكثر الملاحم شهرة ولا سيما وهي تصور بسالة الأكراد الخارقة في دفاعهم عن ذلك الحصن المحاصر عام ١٦٠٨ م من قِبَل جحافل شاه عباس الأول.. وكذلك كوروغلو البطل الأُسطوري الذي يحمي الفقراء.. جولندي (JULENDI) الملك الخرافي الذي تحالف مع الشيطان ليصد الفاتحين المسلمين خلال القرن السابع الميلادي.. رستم ذو المغامرات الخطيرة مع زوراو (ZORAW).. زيهابخير أو زردهنج (ZERDHENG).. مآثر نادر وجوبل البطولية (NADER & JOPEL).. فرسان ميروان (MERIWAN) الاثني عشر.. عبد الرحمن بابان.. عز الدين بدرخان.. إلخ.. وهكذا وإلى الآن لا يزال يحتفل بذكرى تلك الملاحم.. ثم إن هناك لائحة طويلة بالملاحم والأساطير العديدة، هذا ومن خلال تلاحم التاريخ مع الأسطورة برزت شخصيات تاريخية مختلفة: أمراء، سلاطين، ملوك وشاهات كانت مغامراتهم ونزواتهم محض أساطير تمخضت من عالَم غريب عجيب.. أمدنا السيد ماكنزي (D. N. MACKENZIE) مؤخراً بقدر كبير منها بقالب شعبي خالص ومعلومات مثيرة تتضمن الحالة الاجتماعية آنذاك. ويمتاز الأكراد السوفييت في هذا المضمار حينما لجؤوا لإعادة صياغة تلك الملاحم القديمة بشكل تتوافق فيه والأفكار السوفييتية أثناءها.. على أن هذه الدراسات كانت لا تتلاءم مع واقع الأنظمة الاشتراكية أو السياسة على المستوى العالمي، فقد نتج عن ذلك حالة صعبة أثرت في تطوير وإثراء الثقافات الكردية سلبياً.

بما أن انتشار الثقافة ومعرفة القراءة والكتابة كان حتمياً فقد نتج عنه في بادئ الأمر، انحطاط بالأدب اللفظي عانى كثيراً في مجال التنقيح والتصحيح،

وفي مضمار تقويم الأخطاء والهفوات غابت الحيوية والإثارة وأساليبها، وفي هذا كثيراً ما تكـون المواضيـع صحيحـة ولكـن لا حيـاة فيهـا ولا جاذبيـة.. الراديـو والترانزستور الذي انتشر في أكثر القـرى المعمـورة كـان قـد ألغـى دور ومنزلـة شاعر الغناء إلى حد كبير، وذلك نتيجة التقدم والتطور الـذي لا يمكـن تجنبـه أو تفاديه أو جحوده.

الكتابة والثقافة الأدبية منذ بدايتها حتى الحرب العالمية الأولى

وفرة الأدب اللفظي آنئـذ يجـب ألاّ تدعنـا نفقـد قيمـة ثـروة الأدب الكتـابي الذي يجري نقله إلى النـور.. منـذ قـرن تقريبـاً حسـبما أفـاد جابـا (A. JABA) القنصـل الروسـي في أرزروم[١] وحسـب البحـث الـذي كـان لا يـزال جاريـاً بالموضوع وسعياً وراء مزيد من المعلومات، إضافة لاتجاه السيد جابا مؤخـراً إلى العمل القـائم في موسـكو بصـدد مـا كتـب ونشـر عـن تـاريخ الأدب الكـردي بمجمله.. وقد ظهر كتاب علاء الدين سجادة (SAJADé) بين الأكراد في بغداد عام ١٩٥٣ م، وهو مجلد ضخم مؤلف من ٦٣٤ صفحة، بيَّن فيـه المؤلـف بعـد التمهيد عن كردستان وشعبها ومراحل تطور الأدب الكردي وصوره وأشكاله، وأعقب ذلك دلالات كثيرة تُظهر نحو ٢٤ شاعراً ومجموعة من المؤلفين تبلغ نحو ٢١٢ مؤلف وكاتب، أما شعراء العراق وإيـران فقـد قضـى جميعهـم نحبـه، أمـا كتّاب النثر فلم يتناولهم البحث الـذي تـأجلت دراسته في مجلـد خـاص لاحـق، كما أنه لم يكن لدى المؤلف أية نيَّة في نسخ مثل هذه الإجراءات، ولكنـه كـان متأكداً بأن أحـداً مـن قرائـه لـن يسـتغرب بـأن تلـك الدراسـة قـد انتظمـت في

(١) أرضروم (Erzrum): مدينـة في شـرق تركيـة في جبـال بنغـول داغ عنـد منـابع نهـر الفـرات ونهـر أراكس، فتحها المسلمون سنة ٦٥٥ م على يد حبيب بن مسلمة، احتلها السَّلاجقة في القرن الحـادي عشر، (النّاشر).

اهتمامات رجال الأدب. وجود علماء الدين بكمٍّ هائل كان طبيعياً وحقيقة واقعة منذ القدم، وفي كل الأماكن كانت الدراسة والدين والشعر تقتصر فقط على رجال الدين، وهكذا لم يكن الدمج الديني والأدبي ليذكر دائماً في هذه اللائحة الطويلة التي تبرز نحو ٥٠ اسم ملاّ، ٣١ شيخ، ٥ مولانا، و ٤ فقيه، وكان يوجد أيضاً ٩ خان، ٣ أمراء، ١١ بك وأسماء خمسة نسوة..

إن أصل الأدب الكردي لا يزال يبدو غامضاً وغير واضح تماماً، حيث لم يكن بإمكان المؤرخين دائماً تحديد عصور بعض الشعراء مثلاً بشكل عام، ويعمد المؤرخون الأكراد إلى الماضي البعيد في تاريخ الإنتاج الفكري والتي لا يمكن لعلم التاريخ أن يثبتها دائماً. والنظرية نفسها تنطبق على بعض مؤلفي الشعر، فمثلاً إذا ما اعتبرنا ما يقوله السيد سوسن (Mr. SOCIN) نرى أن ملحمة دم دم التي تنسب إلى الملاّ أحمد من (BATé) (١٤١٧ - ١٤٩٥ م) يبدو نسبها غير معقول لأن أحداثها نشأت في عام ١٦٠٨ م وتماثلها ملحمة فيكي تيران (Fekiê TAYRAN) التي لا يعقل حدوثها في فترة (١٣٠٧ - ١٣٧٥ م) لأن مؤلفها هو مؤلف مرثاة موت سيدة (MELAYe CIZRI) الذي مات عام ١٤٨١ م. وتصعب الموافقة أيضاً على أن علي جرموكي الذي يعدُّ رونسارد الأكراد (الشاعر الفرنسي الكبير) عاش في القرن الحادي عشر، وهذا الواقع شيء لا يعرفه كثير من المؤرخين، وأولئك الذين يرجعون إليه، إنما يكرر أحدهما الآخر، ولا يمكن الوصول إلى الحقيقة إلا من خلال دراسة دقيقة لمعجم الشعراء وخفاياه، علماً أن النصوص الأصلية كانت قد فقدت في الفترة نفسها، أثناء ضرب برلين بالقنابل، وحينئذٍ لم يتردد بعض المحررين الأكراد لنقل نصوص للمؤلفين القدامى مؤخراً، وذلك لجعلهم أكثر تبياناً ووضوحاً بالنسبة إلى قراء العصر الحاضر، وبديهي أن يكون هذا الإنجاز الحقيقي قد دحض أي دراسة

نقدية أخرى، وهناك أيضاً مخطوطة صوفيو بابا جاهير (BABA JAHIR) الأربعة من همدان وقد جاءت بلغة مخطوطة مندثرة حيث يعدّهم الأكراد منتمين لأدبهم فقط، مما يشابه بعض الشيء شكل الأناشيد البطولية الفرنسية (Chanson de gestes) التي تعدُّ جزءاً من الأدب الفرنسي، ومن الأفضل التمرين الدقيق والروية لمن يريد قراءتها، والشيء الثابت أن بعض الشعراء الغورانيين أمثال الشيخ أحمد تختي خلال عام ١٦٤٠ م والشيخ مصطفى بيزراني (BESARANI) (١٦٤١ - ١٧٠٢ م) إلى جانب آخرين من مدرسته..

مما لا شك فيه وما ثبت، أن العصر الذهبي للأدب الكردي يبدأ بالقرن الخامس عشر بنخبة متميزة من الشعراء النابغين ويأتي في المقدمة الشيخ أحمد نيشاني المعروف باسم ملاّ الجزيرة (١٤٠٧ - ١٤٨١ م) الذي تفوق على الجميع، فديوانه الصوفي الذي يصعب فهمه وإدراكه لدى العامة. إذ نتف منه مشتقة من الصوفية الفارسية.

ومن مدرسته وسار على نهجه الملاّ أحمد من باتي (BATê) وقد سبق ذكره، واشتهر بمولده (MEWLÛD) الذي أعيد طبعه مراراً. علي حربري (١٤٢٦ - ١٤٩٥ م)، الأمير محمد من موكس (MUKS أو FEKIYÛ TEYRAN) وقد اشتهر بكتابه تاريخ السنة، وكتابه تاريخ جواد المعارك الأسود.

بعد عصر من الانحطاط زاد على قرن من الزمن، بزغ نجم جديد راح يتألق في سماء الأدب الكردي، ألا وهو أحمد خاني (١٦٥٠ - ١٧٠٦ م) الذي ينتسب إلى هكاري، ويعدُّ بجدارة المؤلف المتميز بحق للملحمة الوطنية الكردية، وهو مؤلف رواية مم وزين، وقد تعامل معها بفكرة ميمي ألآن (Memê ALAN) نفسها وتبنّاها لتتجانس مع قواعد الأدب الكلاسيكي وبروح إسلامية، ثم تلاه إسماعيل بايزيد (١٦٥٤ - ١٧٠٩ م) وكان تلميذه ومن

مدرسته، ثم أعقبه كثير من التابعين، كان يتخلل إنتاجهم الشعري مفردات كردية وعربية وفارسية.. وقد لقّبوا بزهر البساتين (GULZAR SIYAPUSH) وهو اسم مستعار لشاعر آخر معاصر.

لم يكن القرن السابع عشر مشرقاً تماماً، ولكن مع ذلك لا بد أن نتناول منطقة هكاري (HAKKARI) وشريف خان من جلا مرج (JULAMERG) (١٦٨٨ - ١٧٤٨ م)، ومراد بيازيد (١٧٣٦ - ١٧٧٨ م)، والملاّ إريفاس (ERIVAS) الذي ألّف خلال عام ١٧٩٠ م رسالة في الطب، ربما كانت الوحيدة من نوعها التي ظهرت باللغة الكردية. وقد ظهر في الفترة نفسها الشعر الذي تسري فيه روح دينية باللغة الغورانية (GORANI) من قبل خانا أي خبادي (Khana - é - Khbadi) (١٧٠٠ - ١٧٥٠ م) وكان منها تحفته الرائعة (Selewatname)، وكذلك الشاعر الغنائي محزوني (MAHZÛNI) ١٧٨٣ م.

بدءاً بالقرن التاسع غشر وحتى الحرب العالمية الأولى، وفي تلك الحقبة تعاقب كثير من الشعراء ساد بينهم اتجاهان متميزان: الأول ديني والآخر صوفي سيطر على كتابات كثير من الشيوخ والملالي الكثر الذين كانوا يجهدون في بثّ الصوفية في نفوس طلابهم من خلال أشعار سطّرت في دواوينهم بقدر من التكرار والتقليد متأثرين بشعراء الفرس الكلاسيكيين. ومن بينهم كان مولانا خالد (١٧٧٧ - ١٨٢١ م) الذي أدخل الطريقة النقشبندية إلى كردستان. الشيخ معروف نوري (١٧٥٥ - ١٨٣٧ م) ومؤلفاته الدينية التي بلغت ٢٠ مجلداً. الملاّ خليل من سعرت (Seert) نحو ١٨٣٠ م. ملاّ يحيى ميزوري (MIZÛRI). المستشار ميركور (MIR KOR) من راندوز (١٨٢٦ - ١٨٨٩ م). نور الدين بفركي (BIFIRKI) توفي عام ١٨٤٦ م. وإفدرهام أختبي (EVDERHM AKHTEPI) ١٨٨٤ م، الذي قلّد خاني وكتب في مدح

الرسول ﷺ وأطرى كردستان. هناك أيضاً مجموعتان كبيرتان من شيوخ السليمانية مثل سالم (١٨٤٥ - ١٩٠٩ م) الذي يتصف شعره بالأسى والرثاء لشقاء الحياة في هذا العالم. مهوي (MAHWî) النقشبندي (١٨٣٠ - ١٩٠٤ م) نصير الأفكار والنظريات الصوفية التي يحاكي بها هيريك (HERIK) أو ملاّ صالح (١٨٥١ - ١٩٠٤ م). أما الشعراء في إيران فكان إنتاجهم غزيراً جداً. سيفاكو (SEYIVAKO) (١٨٠٨ - ١٨٨١ م) الذي بلغت قصائده الـ ٢٠٠٠٠ قصيدة. وهناك متعددو اللغات مثل فتاح جبارو (FATAH JIBARÛ) (١٨٠٦ - ١٨٧٦ م) الذي كتب بلغات أربعة: الكردية، العربية، التركية والفارسية، وهناك الإبداع والابتكار مثل الملاّ رحيم تواجوزي (Rehim Tewagozi) ويدعى المولوي (١٨٠٦ - ١٨٥٢ م) الذي أدخل أفكاراً جديدة، وهو أول من ابتكر المقاطع الشعرية المتعاقبة الملتزمة بالقافية، وأخيراً يمكن الإشارة إلى كتب وكلام أهل الحق المتصوفة (AHLé - HAQQ) أمثال تيمور كولي (Temur Qhuli) الذي توفي عام ١٨٥٢ م، وخليفة طيفور (Teyfur)، وكذلك درويش نوروز نحو ١٨٧٥ م، ونديــن كذلك إلى الملاّ (Welaw KHAN) حوالي (١٨٧٦ - ١٨٨٥ م) بملحمة ليلى والمجنون الكردية، وكذلك ندين لأحمد بك كومازي (Ahmed Beg KOMAZI) (١٧٩٥ - ١٨٧٦ م) بمرثيته المؤثرة لموت زوجه.

وهناك نزعات أخرى ظهرت جلية خلال القرن التاسع عشر وازدهرت بالشعر الغنائي الوطني توطدت بحسنها وروعتها، ويمكن أن نشير بإيجاز إلى شاه برتو من هكاري (SHAH PIRTO) ١٨١٠ م. محمد آغا جاف (M. AGHA JAFF) في الفترة ذاتها، وقد عرف بمرثيته للحب والصداقة المشهورة. مصطفى صاحب كيران (MUSTAFA SAHIB KIRAN) الكردي (١٨٠٩ - ١٨٤٩

م). سليم عبد الرحمن صاحب كيران (١٨٠٠ - ١٨٦٦ م). مفتي زهاوي (MIFTI ZEHAWI) (١٧٩٢ - ١٨٩٠ م) الذي كان أُستاذاً في فنون كثيرة. وفائي مرزا رحيم (WAFAï MIRZA RAHIM) (١٨٣٦ - ١٨٩٢ م). والنابغة الأديب عبد الله بك شباح (EVDELAH Beg MISHBAH) (١٨٥٩ - ١٩١٢ م)، اشتهر كلاهما بالشعر الغنائي والصوفي والوطني. نالي ملاخيزر (NALI MELA KHIZER) من شهريزور (١٧٩٧ - ١٨٥٥ م) كان بصورة خاصة يمجِّد أرض آبائه كردستان. الملحد (اللا أدري) حجي قادر كويي (HAJI KADIR KOYî) (١٨١٥ - ١٨٩٢ م) عمد بكامل ردة فعله وارتكاساته مسايراً ركب تقدم العلم والتطور ليكون ضد التزمت الفكري وضد الملالي والمشايخ وفقدان التكيف مع الحياة العصرية الحديثة واتهامهم بالأنانية والبلادة الفكرية التي أعاقت حرية الفكر ونموه، وما زالت أشعاره تثير حماس النشء الجديد، وروحه الحاقدة ما زالت تؤثر في كثير من شعراء اليوم وكذلك ضغينته التي تتمثل في مذهبه الفلسفي. أما الشيخ رضا طالباني فقد اتخذ نهجاً آخراً في نطاق اللا أدرية بشيء من التعصب، وكانت لديه موهبة الارتجال والطلاقة والبيان، ليس فقط باللغة الكردية، إنما أيضاً بالتركية والفارسية، وكانت مقطوعاته الهجائية القصيرة من النوع اللاذع الجذاب، يتصف أكثرها بالعمق والثقافة والوضوح، إلا أنه كان أحياناً يعتمد بعض الخشونة والتعابير الساخرة، وعلى أية حال لا يزال يعدُّ علماً وأكثر شعبية بين شعراء أكراد العراق حتى يومنا هذا.

الكتابة والثقافة في العصر الحديث منذ ١٩٢٠ وحتى هذا اليوم

نهاية الحرب العالمية الأولى التي تمخض عنها كثير من التغيرات في الشرق الأوسط نتج عنها تشكل دول جديدة انفصلت عن الإمبراطورية العثمانية،

وهذه الحالة لم تكن لتؤثر بالأدب الكردي. كانت إستنبول بالسابق مركزاً لكثير من المثقفين الأكراد وعلى جانب من الأهمية، حيث يتلاقون ويتحاورون وينشرون أعمالهم. أما الآن فقد أصبحت العراق بشكل خاص بعاصمتها بغداد نقطة الارتكاز الهامة، ولكنها لم تكن لنشر الأدب الكردي فحسب، بل الحركة الدافعة له وذلك نتيجة الجهد الحثيث كانت أحياناً تلقى بعض السلبيات من أولئك الذين ينشرون الأدب الكردي دورياً، التي كانت من خلالها أعمال الشعراء القدامى وصغار الكتاب يمكن أن تظهر مواهبهم، وعلى الرغم من هذا العداء كانت الصحافة الكردية تنمو وتتطور دورياً بحرية في العراق وفي أعماق بغداد والسليمانية خاصة موطن القومية الكردية، وكذلك في راندوز وأربيل، وليس من الضرورة بمكان أن نسرد لائحة كاملة بأسماء تلك الصحف والمجلات التي عاش بعضها مدة قصيرة و لم تستمر، إلا أنه لا يمكن أبداً إغفال المستوى الأدبي والاجتماعي التي تتميز بها مجلة جن (JîN) الأسبوعية في السليمانية التي أثبتت وجودها بقوة منذ عام ١٩٢٤ م، ومجلة جلاويج (GELAWêJ) (SIRIUS) في بغداد فترة (١٩٣٩ - ١٩٤٩ م). هيتاوي (HETAW) في أربيل خلال ١٩٥٤ م وفي بريفان في أرمينية السوفييتية. صحيفة رياتازي (REYA TAZE) خلال ١٩٢٩ م، وكردستان في إيران فترة (١٩٥٩ - ١٩٦٣ م). وصحيفة هوار (HOWAR) التي أنشأها في دمشق الإخوة بدرخان (١٩٣٢ - ١٩٣٥ م) ومن عام (١٩٤١ - ١٩٤٣ م) (٥٧ عدد)، وروناهي (RONAHI) (١٩٤٢ - ١٩٤٥ م) (٢٨ عدد)، وفي بيروت صحيفة اليوم الجديد (ROJANÛ) (١٩٤٣ - ١٩٤٦ م) (٧٣ عدد). وقد نشر الحزب الديمقراطي الكردي هنا وهناك صحيفة خبات (KHABAT) خلال ١٩٥٨ م. أما الآن

فيمكن للأدب الكردي أن يعيش بحرّية ودون قيد فقط في الاتحاد السوفييتي [الذي انحل مؤخراً] وفي العراق، لنلقي نظرة عليه الآن:

١ً – النثر:

النثر، كان متدني المستوى لمدة طويلة بسبب ضعف العلاقة والاتصال، وقد نما وتقدم إبان الحرب العالمية الأولى وذلك بتأثير احتكاكه بالآداب الأجنبية، وذلك نتيجة تراجم كثيرة إلى الكردية، وهذا مما ساعد على دفع مفردات اللغة لتجديد نفسها لتكون حضارية غنية بنشأتها لتتمشى مع العصر الحديث. وبهذا المنحى أصبح القراء الأكراد على اطلاع ودراية من خلال رحلات الأجانب المتعددة إلى كردستان والاحتكاك بهم. منهم: ريك، ميلنجن، هوبارد، اللورد كرزون فرياستارك إلخ..

RICH, MILLINGEN, HOBBARD, LORD CURZON,)

FREYASTARK etc..) وذلك بوسائلهم العلمية، وخاصة الطب وقدر كبير من الأدب العالمي.. الترجمة من الروسية أو الأرمنية كانت محدودة جداً وتُستخلص فقط من الضروريات الهامة، حتى فيما يتعلق بماركس ولينين أو ستالين، وهناك صفحات قليلة من بوشكين، ليرمنتوف، تولستوي، جوركي، تومانيان وغيرهم من الكتّاب الروس أو السوفييت من جنسيات مختلفة. في لبنان كان هناك بعض الاقتباسات من فيكتور هيجو، ألفونس دوديه، لامونيه (LAMENNAIS)، وقد ترجمت أجزاء كثيرة بالعراق من العربية والإنكليزية. وكان المترجمون يتحلون بروح الاندفاع والمنافسة، إذ لم يكونوا راضين دائماً عن الاقتباسات الصغيرة. ولم يكونوا يخشون أن يترجموا، فقد كانوا ينشدون الكمال. مثلاً: العاصفة لشكسبير وزاديج (ZADIG) لفولتير والمعطف (OVERCOAT) لجوركي وحياة

صلاح الدين لجرجي زيدان، وهذا شاهد على حسن التوجه والانتقاء إذ لا يخفى ما لهذا من فائدة كبيرة وقيمة دراسية أكبر.

هناك عادة متأصلة في الأكراد وهي ملازمتهم المنزل، وهذا تاريخي.. المؤرخون الأكراد القدامى: ابن الأثير من الجزيرة (١١٦٠ - ١٢٣٤ م)، وابن خلّكان من إربيل (١٢٠٩ - ١٢٨٢ م)، وأبو الفداء (١٢٧٣ - ١٣٣١ م) وهو من أسرة صلاح الدين، هؤلاء كانوا قد كتبوا أعمالهم بالعربية عن التاريخ بشكل عام، أما شريف خان من تبليس فقد كتب بالفارسية تحفته شريف نامه (SEREFNAME) ١٥٩٦ م (تاريخ الأكراد)، ولم يترجم هذا العمل الأساسي إلى العربية إلا منذ وقت قريب في بغداد عام ١٩٥٣ م من قبل روجبياني (R. J. B. ROJBEYANI). وفي القاهرة فترة (١٩٥٨ - ١٩٦٠ م) من قبل م. علي عوني (M. ELî EWNI) (١٨٩٢ - ١٩٦١ م) هذا وقد ترجمت إلى العربية فيما بعد أعمال تاريخية أخرى للأكراد. هذا الإرث من الثقافة التاريخية لم يهمله الأكراد أبداً، ويكفي أن نشير إلى ثلاثة مؤرخين عراقيين الذين ألقت دراساتهم الهامة أضواءً ساطعة على تاريخ الكرد وكردستان. وهم حسين حسني مكرياني (١٨٨٦ - ١٩٤٧ م)، أمين زكي (١٨٨٠ - ١٩٤٨ م)، ورفيق حلمي ١٩٦١ م.. أولئك الذين أعطوا دفعاً كبيراً لثورات الشيخ محمود.

الدكتور نوري درسيمي والكولونيل أ. يامولكي كتبا باللغة التركية تاريخ درسيم ومقداراً كبيراً عن الثورات الكردية ١٩٥٧ م، وحذا حذوهما من ترجم إلى العربية م. بريفكاني ١٩٥٣ م.

م. جياوك (M. GIYAWOK) ١٩٥٤ م وحسن مصطفى ١٩٦٣ م كانا قد كتبا عن حركات البرزاني. وفي إيران نجد المؤرخين الكرد أمثال: رشيد ياسيمي ١٩٤٠ م، إحسان نوري ١٩٥٥ م، ومحمد مخدوخ كردستاني. جميعهم كتب

بالفارسية وقد ترجمت أعمالهم التاريخية حديثاً جداً من قبل الدكتور أ. مفتي زاده (Dr. A. MOFTI ZADé) إلى الكردية. وترجمت أعمال الجزء الثالث إلى العربية من قبل م. فدا (M. FIDA) ١٩٥٨ م. وفي طريق متباينة هذه المرة بالأرمينية، ذلك بأن ن. محمودوف نشر في يريفان ١٩٥٩ م كتابه عن الشعب الكردي، وربما أشار أيضاً إلى أن هناك دراسات دينية واجتماعية ترجمت إلى اللغة الفرنسية من قبل الكاتب الكردي محمد موكري عن أهل الحق..

هناك قلة من الأكراد من يقوم برحلات في أعماق كردستان لنشر أعمالهم وإذاعتها، وكذلك لدينا من يروي باللغة العربية مثل: علي سيدو ١٩٣٩ م، وبالكردية مثل: أ. سجاده (E. SAJADé) ١٩٥٦ م، وهناك ما جاء شعراً باللغة الكردية، إذ إن جوران (GORAN) حقق نتائج باهرة أثناء سفره إلى هيورامان (HEWRAMAN) ١٩٣٣ م.

وكان في أرمينية اثنان من الكتّاب عمدا إلى لون من الدعاية لأعمالهم التي زودتنا بسيرتهم الذاتية والتي لم تكن بمحتواها تخلو من الحيوية والعذوبة. هناك أرب شامو (EREB SHAMO) بعمله الذي سمّاه (الراعي الكردي) ١٩٣٥ م، التي لم تخف نزعته الشيوعية، وأنتج في عام ١٩٥٨ م رواية سمّاها الفجر (BERANG) وكتب أيضاً (الحياة السعيدة) في عام ١٩٥٩ م، وكانت بدايات هذه الروايات قد كُتبت في ظل النظام السوفييتي، وكتب وزير نادر الذي توفي عام ١٩٤٧ م بالروح نفسها رواية سمّاها (خلال الفقر الذي تعلّمناه) ولكنها لسوء الحظ كانت بالأرمنية. ذلك بأن عبدال (E. AVDAL) نقل إلينا أن التقاليد والعادات الكردية جاءت عبر القوقازية ١٩٥٧ م.

ارتبط النقد الأدبي بإحكام بالتاريخ الأدبي، وغالباً ما كان يتخذ شكل فقرات وملاحظات مجردة، وهذا مالا تجده في كتابات الفئة الممتازة مثل أولئك

المبدعين أمثال جلادت بدرخان (١٨٩٣ - ١٩٥١ م). يونس رؤوف (١٩١٧ - ١٩٤٣ م). وجميل بندي روجبياني الذي تأثر وشغف بالشاعرين والكاتبين؛ زنجن وكاالهور، وأولئك الذين ينحدرون من القبائل المجاورة. م. خزندار (M. KHAZNADAR) الذي نشر مقدمات لعدة مقتطفات أدبية مختارة من الشعر أبرزت دراسة قيمة عن الشعر الكردي.

وفي أرمينيا السوفييتية ظهر اثنان من النقاد الشباب حاولا إثبات وجودهما غير الموفق، وهما؛ أميريك سردار، وأوردخان جليل، بينما نرى أن الكاتب الكردي العراقي علاء الدين سجادي قد برع في هذا الحقل ويعدُّ تاريخه في الأدب الكردي ١٩٥٢ م معلماً حقيقياً في الثقافة والأدب والبحث العلمي، وقد أشير إليه آنفاً. إلا أن هذا العمل لم يكن يخلو من بعض الهفوات والعثرات البسيطة، ولكنه بالوقت نفسه رسم الطريق وأصبح كنزاً للمعلومات، وهنا يتبيَّن كيف ذهب المؤلف في عمله الأدبي، فقد بدأ بمدح الكاتب الذي يهتم بالنثر الشعري ثم يدلي بشيء من المعلومات عن حياته، كما يولي البحث في الناحية التاريخية اهتماماً خاصاً، وشرحاً مفصلاً عن الزمان والمكان، ثم يقتبس من الأعمال بإسهاب وسعة، ولا سيما في غمار المؤلفات التي لم تنشر بعد. ويُتبع هذا بتعليق واف يبدو ترجمة حقيقية، وإذا كانت هناك لهجة غير سائدة في العراق كالغوراني مثلاً، تراه يختتمها بتسمية اللهجة عند الضرورة وتصبح طبعات الكتاب جاهزة للنشر.

ولنأت الآن لأعمال الأدب النثري الحقيقي القصصي، حكايات وقصص قصيرة، وهذا النوع كثير جداً، وكان قد نشر أكثرها في مجلّات عديدة، أبرزت جميعها مواهب اليافعين والشباب، وقد جاءت القصة القصيرة والحكايات هذه لتتناسب مع رغبات وطبيعة الأكراد الحقيقية. لذلك تفوقت كثيراً على غيرها،

وهناك لائحة مسهبة بالجوائز الممنوحة التي تشهد على نبوغهم الأدبي، على أن كثيراً من أسماء أولئك الكتّاب لم تكن معروفة حتى إن المؤلف نفسه كان يجهلها، وهناك من يمكن أن نشير إليه من الكتّاب بين أكراد العراق أمثال: م. م. أمين (M. M. EMIN) م. ج. أردي (M. J. URDI) ك. ج. بابان (K. G. BABAN) وج. أ. نبيز (J. A. NEBEZ) الذي يعدُّ أيضاً مترجماً رائعاً. والأكثر مكانة لدى المؤلف: مآثر أولئك الكتّاب الأكراد السالفين الذين ظهروا في المشرق أمثال: م. ي. بوطي (M. E. BOTI) الذي ألَّف قصصاً جذابة عن الحيوان أعطت انطباعاً أدبياً رائعاً. قدري جان، الذي جاءت كتاباته لتنير أذهان قرائه بأفكار جديدة. الدكتور نور الدين يوسف ظاظا الذي قدم رسالة الدكتوراه في لوزان بسويسرا عن مذهب شخصانية مونييه (MOUNIER) (مذهب يؤكد أهمية الشخصية وأنه لا يجوز انتهاك حرمتها)، وقد كانت قصصه تنبض بالروح الوطنية. وهناك لا بد أن نذكر بصورة خاصة متميزة، عثمان صبري الذي كتب مقتطفات تاريخية عن صلاح الدين ونابوليون، على أنه لم يكن يميل نسبياً إلى الكتابة عن المغامرات والبطولات فيما يتعلق بذكر عادات مواطنيه وسلوكهم، أما قصصه عن الصيد فكانت تمتاز بنكهة خاصة أخّاذة، وفي أسلوبه المبسط المباشر المفعم بالصور والتعابير الحية القاطعة في عرضه أمام أعيننا، وبذلك نعدّه واحداً من أعظم كتّاب النثر إلى اليوم. جكرخين (CEGERXWIN) الذي سيأتي ذكره لاحقاً كشاعر، وقد نشر له في عام ١٩٤٦ م قصة طويلة تحكي مغامرات اثنين من اليافعين؛ وهما جيم وجلبري (JIM & GULPERI)، وقد أجحفها إذ عدَّها مجرد قصة.. من المؤسف أن يلاحظ ضعف كتاب النثر الأكراد في أرمينية، حيث يمكن اختيار بعض منهم ش. جندي (H. JINDI) وقصته (الصباح الجديد) التي نشرت عام ١٩٤٧ م،

وقصص أخرى عن الشعب الكردي ١٩٥٩ م. قصة عبد الرحمن مع دام خاتي (DAME KHATé) ١٩٥٩ م، وربما رواية (اليقظة) عام ١٩٦٠ م.

أما القصة المتميزة كانت لـ (سجادي) وتدعى (نظم اللؤلؤ) وهو المؤلف الغزير الإنتاج بحق الذي أتحفنا - بثلاثة مجلّدات نشرت خلال عامي (١٩٥٧ - ١٩٥٨ م) حوت قصصاً وروايات أدبية رائعة.. هي قصص قصيرة امتزجت بنزعة فلسفية، فكرية، أدبية، تاريخية إلخ..

مما تقدم تنبثق حقائق ثابتة، وهي غياب الرواية الحقيقية عموماً من الأدب الكردي ما عدا وجود بعض الصور الوصفية الضنينة وعلى وتيرة واحدة، وكذلك الدراما لم يكن حظُّها أوفر. إلا أنه كانت هناك محاولات جادة تحت إشراف إداري، ولكنها لم تذهب بعيداً و لم تثمر، ومع ذلك كان دور القصص والمسرحيات جيداً، ولا سيما التي أمكن استنباطها من تاريخ الشعب الكردي من أساطيره وملاحمه أو من عادات متأصلة قديمة مثل أنظمة الإقطاع والمهور وأكثر من هذا الاعتبارات الأخلاقية الحساسة الأخرى، أو منافسات أدبية تبرز في أوضاع نفسية أو اجتماعية، ولكن هذا التحول الحقيقي أو حقيقة الأسطورة وتكيّفهم العقلاني في عالم الإبداع الفكري والفنّي يتطلب من المؤلف جهوداً كبيرة بالبحث النفسي، وقد تجد لمسة الفن والتقنية في تأليف بعض المقطوعات الشعرية الرباعية فقط، أما في المجالات الأخرى، فلا يزال هناك بعض المآخذ عليها حتى يومنا هذا، وهذا ينطبق على الدراما أيضاً.

٢ً - الشعر:

نحن نخطئ إذا اعتقدنا بأن الشعر قد اختفى أمام نشاط كتّاب النثر الذين غزوا حقل الأدب الكردي، فهذا مغاير للحقيقة، فالشيوخ طالما اعتمدوا القافية

في أشعارهم الروحية، فإن بعض الأساتذة قد وازن في ذلك بأن لفت الانتباه إلى أهمية الناحية الشعرية وقيمتها خلال فترة (١٩٢٠ - ١٩٣٩ م) وخاصة في العراق، فقد كان القسم الأكبر من أعمال شعراء القرن التاسع عشر الذي بقي مخطوطاً ما لبث أن انتشر بشكل واسع. فقد نشر لمحوي (MEHWI) ١٩٢٢ م ونالي كردي وحجي قادر كويي ١٩٣١م وسليم ١٩٣٣ م وطالباني ١٩٣٥ م وأديب (١٩٣٦ - ١٩٣٨ م) هريك ومولوي (١٩٣٨ - ١٩٤٠ م). ومن الملاحظ بأن بعض شعراء الأكراد لجأ في بعض الأحيان إلى اعتماد أسماء مستعارة خلال ذلك العصر، كما أن مقتطفات أدبية مختارة قديمة أبصرت النور أيضاً. وفي هذا لا يسعنا إلا أن نجلّ ونثني على الكتّاب: أمين فيزي ١٩٢٠ م. علي همال بكر ١٩٣٨ م. ملاّ عبد الكريم ١٩٣٨ م. رفيق حلمي (١٩٤١ - ١٩٥٦ م).

وقد كانت انطلاقات الشعر الكردي كأية انطلاقة متوقدة، فقد أعطانا م. أ. خزندار عام ١٩٦٢ دراسة رائعة أطعمها نبرة خاصة من الإيقاع والتناغم والسجع، وبالمقارنة بين القصيدة القديمة الكلاسيكية ذات القواعد المعقدة في القصيدة العربية والفارسية مع الشعر الحديث الذي تحرر من الوزن والتفعيلة أكثر من تحرره من القافية، والذي يفضله الجيل الناشئ من الشباب.

إذا كانت الأعمال الصوفية الخالصة قد أصبحت أكثر ندرة حسب رأي الآخرين فإنها لم تختف أبداً، فهناك كيك هيم ناري (KAKE HEME NARI) (١٨٧٤ - ١٩٤٤ م) لا يزال ينشد في الحب الإلهي ويدعو إلى الاعتزال. كما نرى الشعراء الآخرين على النهج نفسه في العراق وسورية أو البلاد الأخرى في الاتحاد السوفييتي، لا يستعملون القيثارة (الربابة) ذات الوتر الوحيد، وعندما

ينطقون على سجيتهم تبرز في أشعارهم نبرة غنائية صوفية تارة، وأخرى اجتماعية، وأحياناً وطنية، لذلك نرى أنه ليس من السهل تصنيفهم إلى فئات..

لقد عمد كثير من الأساتذة المدرسين حديثاً لنشر المواد التعليمية غالباً بشكل قصص خرافية ذات مغزى عن الحيوان. هذا النمط الذي اعتمده عثمان صبري في سورية (وهو ليس مدرِّساً) وسار على منواله الشعراء الشباب السوفييت في هذه المدرسة الجديدة حيث غرسوا في عقول تلاميذهم نماذج من الأخلاق والفضيلة التي تبدو جليّة واضحة في أعمالهم، وهذا النوع لم يكن دائماً من الشعر الممتاز جداً، إلا أنه كان غالباً مادة حقيقية مفعمة بالسهولة والحيوية والوضوح.

نستطلع من أعمال الشعراء الممتازين الأسلوب الغنائي الذي يشمل أغاني الحب والعائلة، والتغنّي بالطبيعة والأمجاد والمفاخر وكذلك العمل والمعايشة اليومية. نجد في العراق بيرمرد (PIRMERD) أي الرجل الوقور وهو زعيم الشعراء فيها. وحجي توفيق (١٨٦٧ - ١٩٥٠ م) الذي استطاع أن يصل إلى قلوب وعقول الشباب الناشئ من خلال أشعاره المفعمة بحبه لجمال وسحر أرض الأكراد وتاريخها. وعبد الله محمد ويدعى زيور (ZIWER) (١٨٧٥ - ١٩٤٨ م) كان يهتم بالشباب أيضاً وأشعاره كانت تفيض رقة وعذوبة وأحاسيس عميقة جداً تأثر بها الشباب وعشقها كما أنها أثرت بمشاعرنا نحن، ولا سيما حينما نراه يمجد سحر الطبيعة وفتنتها وأرض موطنه. وكاني (KANI) أو محمد شيخ عبد القادر ولد عام (١٩٠٠ م) وقد امتاز بوصفه لأرض الأجداد بمشاهدها ومناظرها الساحرة المختلفة بسلسلة مقطوعات قصيرة جذابة، أقل ما يمكن وصفها، بنفحات عطرية يهيم بها القلب والروح.. منها: زهرة حدائق ميريوان (MERIWAN) ١٩٥١ م وسهول جرميان

(GERMIYAN) ١٩٥٥ م، وقد كان يختلف بشخصيته الممتازة عن زمرة البكاوات (BêKES) المنبوذين. فائق عبد الله (١٩٠٥ - ١٩٤٨ م) روح معذبة وامرؤ سيء الحظ وفؤاد مكلوم. وهو أشبه ما يكون بالشاعر الفرنسي بول فيرلين (P. VERLAINE) عاش فقط من أجل الشعر، وبالرغم من عاهته البدنية والخلقية لم يتوقف أبداً عن حث الشباب ودفعهم للكفاح من أجل العدالة والفضيلة ومن أجل بلادهم.. بعض الشعراء الشباب تابعوا خطى أسلافهم بحماس وإصرار مثل شاكر فتار (SHAHKIR FATAR)، نريمان (NERIMAN)، مصطفى سيد أحمد، ولد في كفري (KUFRI) عام ١٩٢٤ م، رسول بزارجردي (BIZAR GERDI) ولد عام ١٩٢٦ م وكمران (KAMERAN).

تعيش في أرمينيا جماعة كبيرة من الكتّاب الأكراد اتخذت مجموعة من الأساطير القديمة أساساً للكتابة وتدريس الطلاب قبل أن يهتموا بنتاجهم الشخصي..

هـ. هندي في عام ١٩٠٦ م وأمين عبدال ولد عام ١٩١٠ م، كانا أستاذين مدرسين، وكانت أشعارهما دائماً تتضمن المذاق التدريسي الطلابي.

ميخائيل رشيد كان يبدو أكثر حيوية في قصيدته (قلبي) ١٩٦٠ م ونوعية رقيقة وشفافة، وكانت أشعاره تمتاز بفنون متنوعة وقصائده التريوليت (ذات الثمانية أبيات) الرائعة تفيض رقة وحناناً وعذوبة، إلا أن شعره بمجمله كان نزعة خصبة بالمبادئ الشيوعية ومع ذلك يظل شاعراً من الطراز الأول تماماً مثل جاسم جليل الذي ولد عام ١٩٠٨ م، ويعدُّ رسمياً محرر التقاويم أو المقتطفات الأدبية للكتّاب الأكراد السوفييت التي من خلالها تبدو أعماله الشخصية واضحة جلية، وكان بالإضافة إلى ذلك أكثر من مجموعة لأشعاره في رصيده، مثل (ألاجوز) (ALAGOZ) ١٩٥٤ م. وأيامي ١٩٦٠ م وفي هذا السياق تجدر

المقارنة بين النسخ المختلفة من إنتاجه بسبب التنقيح والتهذيب المسهب الذي أُنجز بها، بحيث أن أعماله كان يعاد صقلها وصياغتها أكثر من ٢٠ مرة، وهذا بمثابة شهادة صادقة لضميره وحسّه الفنيّ. على أن هذين المجلدين المذكورين لم يكن النظم والفن فيهما دائماً مثالياً حيث يجتهد فيهما الكاتب ليبتعد عن المألوف، كما يتبيَّن من إظهار تباريحه للحبيبة بالمقطوعة التالية:

أنا وردة برية. لم يتفتح برعمها بعد.

الشمس والندى غمراني بوابل من الفتنة والجمال.

إذا أنت لم تلمسني.

فلن تتفتح زهرتي ولن تنثر عطرها.

إذا أنت لم تلمسني.

سوف لا أذرف من شذاي رحيق.

أنا زهرة بريّة، زهرة من الجبال الشاهقة.

بعيدة عنك كثيراً.

أزهار الحب المتآلفة الوارفة.

تليِّن الثرى من حول جذوري بنفحات الحب.

إذا أنت لم تلمسني.

فلن تتفتح زهرتي ولن تنثر أريجها.

إذا أنت لم تلمسني.

سوف لا أذرف من شذاي رحيق.

أنا زهرة بريّة، زهرة من الجبال الشاهقة.

بعيدة عنك كثيراً.

أوه! أيها البستاني المسهّد، الهائم بين الأزهار.

تعال وانتزعني واحملني إلى الجبل. (اللازمة)

إذا أنت كنت شجاعاً واستطعت أن تحملني بعيداً.

هناك سوف أملأ قلبك بالسعادة والمرح.

تماماً كعروس زُفَّت من ساعتها لعريس (اللازمة).

الأمير كمران بدرخان، عدا عن انهماكه في الأعمال اللغوية ونشاطه في الحقل السياسي، له أيضاً كتابات شعرية جميلة نُشر منها عدة مجموعات، منها: قلب أولادي عام ١٩٣٢ م، وقد خُصصت للتدريس في مدارس الأولاد، وثلوج النور عام ١٩٣٥ م، التي ترجمت إلى الفرنسية والألمانية، ورباعيّات الخيام عام ١٩٣٨ م، التي هي أشبه ما تكون بملحمة هوميروس، وقد دونت هذه القصائد الشعرية المترعة بالحب بفيض من الحس الرقيق والعذوبة. دقة وأصالة في التصوير، وحلاوة مطلقة في التعبير.

ولكن مع تقدير هذه القصائد الشعرية الرائعة، علينا ألا نستغرب إن وجدنا بينها أعمالاً تشوبها النزعة الاشتراكية التي تظل توهم الشاعر وتعظه وتوحي له زيفاً بمستقبل سعيد، وتبين له مساوئ الماضي وحتمية إدراكه لمستقبل سعيد. الأفكار التي تغلب على الشعراء السوفييت تنحصر بأن أولى الضروريات هو تحرير المرأة، وتضع حداً للتسلط الإقطاعي، وتعمل على استئصال الممارسات والمعتقدات الدينية، وصعب جداً أن تجد جماعة فيها كاتب لا يتبنّى هذه

الأفكار. إيتار شارو (ETAR SHARO) يقتصر تقريباً في رباعياته على أوضاع الأكراد في الأزمنة الماضية التي تتصف بالجهل والفقر والاضطهاد، ثم يعود ثانية وثالثة إلى إعادة المهور التي يعدّها نوعاً من العبودية يجب أن تلغى تماماً، هذه المادة التي يكررها الشعراء الآخرون والتي يمكن أن يقتنع المرء بأنه من الصعب محو هذا التقليد. يوسف بيكو (USIV BEKO) بقصيدته شهيد (SIHID) يصف حالة الخزي الاشتراكي التي يكون فيها الفقير هو الضيحة دائماً، حينما يواجه جشع وطمع الأغنياء والتجار وهو أعزل مجرد. هـ. هندي (H. HINDI) كان يدعم الحرب الطبقية ضد ظلم الإقطاع المطلق، وقد نجح في إثارة المشاعر والغضب والاستياء لدى الطبقة الكادحة المظلومة، وقد عبَّر بهذا الصدد بأشعاره الطويلة الزاخرة بهذا الموضوع بقصيدته (جوليزر GOLIZER) التي تضمنت انتصار الحب في النهاية على تسلط الإقطاع، انتقام العشائر، موضوع المهور القائم، مآسي الحرب الأهلية، الكفاح من أجل الحرية. هذه العناصر الشجيّة المشهورة التي تحكيها قصص وزير (WAZIR) عن مغامرات نادو وجوليزر (NADO & GOLIZER) الأليمة في العراق، وقد جدد جوران عبد الله سليمان عام (١٩٠٤ - ١٩٦٢ م) الشعر الحقيقي الممتاز. وقد كان المجلّي في الشعر الحر، شارحاً ومفسِّراً له. كما كان يقاتل من أجل الحرية في الحياة ومالها من أفكارٍ وأبعاد، وكان يناضل أيضاً من أجل تشكيل البنية الاجتماعية، التي يمكن أن تمنح الازدهار المطلق وحدها للشعب الكردي، هذه الأفكار المتحررة هي التي أدَّت به إلى سجون بغداد حيث ألَّف (الرابع عشر من تموز في السجن)، وقد كُتبت خلال صخب المظاهرات الشعبية في ذلك اليوم التاريخي الذي يعدُّ فكرياً تدشيناً لعصر جديد للأكراد.. جكرخين (CEGERXWIN) أي شيخ موسى حسن، ولد عام ١٩٠٣ م، ويعدُّ بحق زعيم

جماعة الشعراء في الشمال. كان يكتب باللهجة الكرمانجية، وكانت لديه أفكار جوران نفسها، بل كان مغالياً فيها، إذ كان يؤمن ويصرّح بها جهاراً في اجتماعاته، ثورة التحرر والإنقاذ عام ١٩٥٤ م يمكن أن تأتي فقط من الشمال حسب زعمه وقد ذاق طعم العذاب والمرارة في السجون أيضاً.

هل من الضروري أن نتداول هنا القصائد الوطنية؟ الجواب نعم وبالتأكيد! وهي كثيرة لا تحصى. كما أن هناك نوعاً من الشعر يتخلّله أحياناً نوع من الروح الهزلية كشعر ديروليد (DéROULèDE) أكثر مما في المقاطع الشعرية الملتهبة لفكتور هوجو. هذا الشعر المفعم بحب الوطن وعشق كردستان. كان قد رُسِّخ بنزعة نبيلة ممتازة لوقت طويل جداً منذ أيام أحمد خاني نفسه، وقد نتابع الأسلوب والنمط نفسيهما في الأشعار الحماسية لنالي (NALI) وحجي قادر كوي، وفي العراق اتّخِذ التراث ذاته من قبل الملاّ حمدي صاحبكيران (SAHIBKIRAN) (١٨٧٦ - ١٩٣٦ م) ومن قبل أحمد مختار (١٨٩٧ - ١٩٣٥ م) بطريقة الشعر الموزون التقليدي. في فترة استقلال دولة مهاباد ١٩٤٦ م برز اثنان من الشعراء الفتيان امتازا بحماسهما الوطني الملتهب. وهما م. هيمان (M. HEMAN) وعبد الرحمن حجار خصوصاً الذي ولد عام ١٩٢٠ م، وفي هذا المضمار، حريّ بنا أن نمنح جكرخين سعف النخل لإبداعه في ديوانه الأول الصادر عام ١٩٤٥ م، الذي يهمس بروعة الوحي الشعري الصرف الصافي الذي ينبض حيوية بحماس وطني متوقّد. هذا الملاّ المتجرِّد من صفته، تلازمه فكرة أرض الأجداد الضائعة ونزعتها التي لا بد من تحقيقها ولا تنفك عنه، وتظهر في شعره الكلاسيكية تارة وتارة أخرى بأسلوب أكثر حداثة، يبحث ليصوغ الثوابت اللازمة لهذا التجديد. تكريس الزعماء للنزعة الوطنية. وحدة جميع القبائل الأصلية والفئات الدينية المتشعبة، وخصوصاً

المساواة بالتعليم بين الإناث والذكور. التخلُّص من الجهل والفقر.. عرض لنا آنفاً بأن جكرخين قد تجاوز مرحلة القومية المجرَّدة والانتماء الوطني ليسعى قبل كل شيء إلى الإصلاح الاجتماعي الذي قدمه أحياناً بمسحة ماركسية. مع أن هذا الشاعر ليست لديه خلفية قليلة أو كثيرة عن الشيوعية الحقيقية، فالدعاية الحاذقة في بعض الأحيان تحجب الرؤيا وتضلّل أكثر الناس ذكاءً ومعرفة.

على أي حال، من خلال تلك النزعات والتطلعات الحديثة، يتبين أن جكرخين قد انجذب نحو الشعراء السوفييت الأكراد. الذين لا يحتمل أبداً أن يكون قد قرأ لهم. ولو كان فعل، إذن سيكون استغرابه مطابقاً تماماً لدهشتنا حقيقة. أولئك الرجال وراء الستار الحديدي يقصون علينا عن أرض الوطن، وبما أنهم يقيمون في أرمينيا التي تظل غريبة جداً برغم كل شيء عن الرجل الكردي، إذ إنها أرض سوفييتية بمجملها. ويتمثل هذا الشعور في قطعة ماكار ميراد (MACHAR MIRAD) المفضلة التي صدرت عام ١٩٥٨ مثلاً. التي جاءت أبياتها لتمجد أرض الأجداد الحمراء، التي أصبحت أيامها الوطنية هي الأول من شهر أيار وأيام أكتوبر التاريخية. وذات الفكرة المهيمنة تظل تتكرر في جميع المجموعات الشعرية المنشورة في بريفان بلا استثناء والمدخل الذي لا بد منه في كل قصيدة، لذلك لا تلبث أن تصبح مملّة في وقت قصير جداً، وخصوصاً لأن الكتّاب مرغمون في التكرار والقفز إلى جهاز الستيريو دون أن يأخذوا في حسابهم أن عليهم الرجوع إلى ما ردَّدوه سابقاً. هذه القصائد تكون عادة صادقة بقدر سطحيتها، وعليها أن تقفى دائماً بأسماء ستالين ولينين وقد اختفت أثناء النشر، ومُزِّقت الصفحات الأدبية وبقيت الاشتراكية تنبعث منها فقط. ورحل الرجال بما فيهم العقائديون وبقي الحزب، وعلى نقيض ذلك فإن قضية كردستان والانتماء لأرضها طمس ذكرها تماماً، حتى أن المؤلف لم يعد يعثر

عليها بين الآلاف والآلاف من الأشعار. أما وطنية الأكراد السوفييت فتتصف بالعمومية وليست نقطة الهدف الذي يسعى إليه الأكراد وينعش آمالهم، كما أنها ليست تلك الأرض التي تصورها تلك الأشعار التي صدرت عن شاعر مغمور يمكن أن تؤلف أو يغنّى بها:

ما أعذب أن أموت فداءك يا كردستان
لأكون سيد أرضي وأغني بفخر بالكردية
وبتضافر سواعدنا نحتفل بسموها وعزتها
مع تسابقنا مع الزمن ومن أرضنا الغالية
ولنكون أحراراً، لنحب. لنفكر. ولنموت
سل هذا النبع المتدفق وسوف يحكي لك
بأن في وشوشته ألف زفرة وتنهيدة
ألف دمعة. ألف ثورة، وألف أمل

الفصل الحادي عشر

القومية الكردية

مهما حاولنا تجاهل الحقيقة، فإن الفقرة المبيّنة في تلك الأسطر القليلة السالفة تذكرنا دائماً بأن هناك قومية كردية قائمة فعّالة وحيوية، يجب ألا نتعامى عنها أو ننكرها.. فالشعور القومي، حب الأرض، حب تراب الوطن، تاريخه وتراثه، مبادئه وعاداته وتقاليده، كل ذلك شعور طبيعي وعالمي قائم بين جميع شعوب هذه الأرض، ذلك الشعور الإنساني، وما يتحلى به من روح وانتماء يجب ألا يدفعنا في أي حال لمحاولة الاستيلاء على أراضي الآخرين مثلاً، وخاصة أراضي الجوار، وإن تنوعت أصولهم ومدنيتهم وأعراقهم وثقافتهم. الأكراد كما هو معروف شغوفون جداً بقوميتهم كغيرهم من الشعوب. هذا الإحساس والإدراك المتميز لأصول شخصيتهم لم يتكوّن اتفاقاً أو بطريق المصادفة، فهو بأقل تقدير يعدُّ ثابت التكوين كالقومية العربية مثلاً. أو أكثر عمقاً وأصالة من قوميات إفريقية متعددة. ليس هناك من لديه معرفة حقيقية بالأكراد ويفوته تقدير تلك المشاعر المتقدة التي تنبثق منها أنشطة مختلفة وارتكاسات سياسية لازمت الشعب الكردي. وهنا سوف لا يكون لدينا ما نستطيعه سوى أن نقدم موجزاً مجرداً من هذه المادة يكون كافياً ليعطي فكرة واضحة عن مدى تقدمها وبعدها التاريخي وعمقها.

القومية الكردية قبل التاريخ

منذ سقوط نينوى عام ٦١٢ قبل الميلاد[1] وحتى تحول الأكراد لاعتناق الإسلام. يمكن القول إن تاريخ تشكل الشعب الكردي في كردستان اليوم يتوافق وزمن الإمبراطورية الفارسية، وهذه الناحية لا تخفى على الأكراد ويعرفونها حقَّ المعرفة، فالأساطير الملحمية التي يفخرون بها ويعدونها إرثاً لهم ولأجدادهم الواردة في كتاب الملوك الذي يتضمن ذكر أبطالهم أمثال رستم وحاتم وأبطال آخرون غيرهم يعدهم الفرس مفخرة لهم أيضاً، يجب أن نشير مع ذلك أنه في باكورة تلك الفترة وفي الوقت نفسه تكون كردستان العراقية قد تشكلت فعلاً من الأكراد وبقيت موطنهم حتى انبثاق فجر الإسلام، وقد يمتد هذا إلى ناحية الشرق أكثر مما هو عليه الآن، ويمكن أن نؤكد بصورة جازمة، بأنه حتى قبل القرون الوسطى كان الأكراد يشغلون معظم تلك المناطق أي غربي وشمالي نهر الدجلة بأعداد قليلة نسبياً، ولكن منذ بدء عهد الخلافة، وإنشاء قواعد عسكرية على الحدود البيزنطية ابتدأ التقدم نحو الغرب خلال القرن الحادي عشر بتأثير ضغط بعض القبائل التركية.

و لم تتم عملية التحول إلى الإسلام من دون بعض المعارك والاصطدامات في أثناء نشر الدين الإسلامي بين الأعراق المتباينة إلا أن الأكراد ما لبثوا أن استوعبوا الحضارة الإسلامية. والإسلام في الحقيقة لم يطمس شيئاً من الشخصية الكردية، وأثناء الفترة الفارسية الفاصلة كما يسميها (ف. منورسكي V. MINORSKY) ظهرت بعض الممالك الكردية الصغيرة المستقلة، انفصلت عن سلطان الخلفاء المسلمين الحازم خلال القرن العاشر، وعلى مدى قرن تقريباً بعد ذلك نرى بأنه قد برزت بعض السلالات الحاكمة الكردية. وهي كالتالي: الأولى. الشدادية (Chaddadids) (١٩٥١ - ١٠٨٨ م) عبر قوقازية في دابيل

---

(١) أمام التَّحالف الميدي البابلي، (النَّاشر).

وجانجا (Dabile & Ganja) اللتين كانتا على مستوى من الثقافة والتبصر حيث سادت الثقافة الفارسية لدى المحاكم فيها، ونحو تلك الفترة ظهرت الحسن وحيد (Hassan Wayhids) (١٩٤١ - ١٠١٤ م) وقد بسطت سلطانها في جبال خوزستان وامتد نفوذها على همدان ونهاوند وكرمنشاه وشاريزور، تفرع منها قبيلة تدعى بدر (Badr) (٩٧٩ - ١٠١٤ م) اشتهرت بإقامة العدالة المالية، والتربية والتعليم، وحماية الفلاحين. ثم ما لبث أن حل محلها بنو عيار أو بنو عناز (Banou Ayâr or Banou Annâz) (٩٩١ - ١١١٧ م)، إلا أن أكثر السلالات الكردية شهرة هم المروانيون (Merwanids). (٩٩٠ - ١٠٩٦ م) الذين بسطوا سلطانهم في أردمشت وآمد ودياربكر وحصن كيفا وميَّافارقين (Ardjish & Amid, Mayafarkin, Hisn Keif). وكان نظام الإمارة يماثل إلى حد كبير نظام الخلافة في بغداد. وقد حكم أبو نصر أحمد لمدة طويلة جداً استمرت فترة (١٠١١ - ١٠٦١ م) وخلال تلك الفترة عمل على دعم وازدهار التجارة وإشادة الأبنية التي كانت بقدر إفادتها على درجة عالية من الفن والجمال، وكان بلاطه يزخر بمشاهير الشعراء، وكان لامعاً متألقاً جداً. هذا الملك الذي كان واسع الثراء، كان يضم - أكثر من ٣٠٠ امرأة في حريمه، ولكن هذه الممالك الصغيرة ما لبثت أن قضى عليها السلجوقيون (SELJUKS).

وهنا لا بد لنا أن نذكر صلاح الدين (١١٣٧ - ١١٩٣ م) هذا الفارس المغوار دون مواربة ولا وجل هو من أسس مملكة الأيوبيين. ويعدُّ أحد الأبطال الذين وحدوا المسلمين في وجه الصليبيين، وقد كان كردياً أصيلاً، أحاط نفسه بفرق من الأكراد جنّدهم من قبائل هكاري ومهراتي وهضباتي (Hakkari, Mihrani, Hadhbani)، وكان تعداد هؤلاء أكثر من التركمان وحتى أكثر من العرب في جيشه، وقد لعبوا دوراً هاماً ورئيسياً في الحرب ضد الصليبيِّين، وخصوصاً في معركة عكّا وانتصارهم الساحق في حطين (Hittin)

عام ١١٨٧ م بالفترة نفسها. إذن فالأكراد استطاعوا أن يثبتوا وجودهم وامتيازهم عن أقرانهم من الجنود، وأن يثبتوا أنهم جنود شجعان، مهرة بارعون وإداريّون شرفاء مخلصون وبُناة ومحبّون للفنون، ومع هذا لا يمكن القول بأنهم استطاعوا أن يقيموا حكومات كردية تماماً كما في الغرب مثلاً، حيث طغت العقيدة المسيحية على الناحية القومية ولكن من دون تجاهلها. وهكذا نرى بالشرق الأدنى والأوسط أن الإسلام قد استحوذ على الشعوب وأصبحت ممالكهم إسلامية بحتة، ولولا أولئك المؤسسات لما كان للأدوار الكردية على وجه الخصوص أي أثر في جميع الأحداث. سقوط الدولة الأيوبية الذي تبعه أحلك فترة في تاريخ الأكراد، وهي زحف قبائل المغول على كردستان حيث كانت أفظع كارثة غشيت تلك المناطق، شهرزور (Chahrizor) عام ١٢٤٧ م وديار بكر عام ١٢٥٢ م. وفي عام ١٢٥٧ م دمَّر هولاكو منطقة كرمنشاه وإربيل، كما أقام السلب والنهب في هكاري والجزيرة في عام ١٢٥٩ م، وأعمل السيف والقتل في سكان تلك المناطق. وعلى مدى قرنين ونصف من الزمن (١٢٦٠ – ١٥٠٢ م) كانت مقاومة الأكراد لقوى خانات المغول وبطش تيمورلنك (Tamer Lane) ومَن بعده ضارية لا تتوقف أبداً، وقد ساعدهم في ذلك الأرمن وحتى التركمان من فصيلة الخروف الأسود (Kara Kuyanlu) الذين استوطنوا تلك المنطقة على مدى قرنين من الزمن. وبمجرد هدوء العاصفة والقضاء على المغول بادر السكان لترميم الخراب وإعادة الإعمار. وفي غضون سنين قليلة استطاعوا أن يعيدوا بناء صناعتهم وتجاربهم وجميع أعمالهم من جديد.

الإقطاعية والقومية

يجب أن يكون كسوف الشمس قد صادف حينما بدت الدلائل في الشرق الأوسط لترسم سياسته الخاصة على مدى أربعة قرون خلت تحدد خلالها قدر

الأكراد. عرّافو السلطان العثماني جاؤوا بنبوءة سعيدة من خلال ملاحظاتهم على ظاهرة كسوف الشمس التي هي رمز الدولة الفارسية، وقد بدت شاحبة أمام الهلال. وفي الحقيقة فإن معركة تشالدران (Tchaldiran) ٢ رجب ٩٢٠ الموافق ٢٣ آب ١٥١٤ م، التي صادفت في اليوم التالي للكسوف وفرار جنود الشاه إسماعيل المؤسس لسلالة الصَّفويِّين (Séfèvids) الحاكمة الإيرانية، وإمعانهم بالفرار أمام مدفعية السلطان العثماني سليم الأول الرهيب خير دليل على ذلك. وفي سبيل إرضاء الأكراد وجعل منطقتهم بمثابة دولة فاصلة بين إخوانهم في الدين الأتراك السُّنَّة وبين الفرس الشيعة. هذا السلطان الداهية ومن وحي أنه في سبيل تقديم خدمة للأكراد الذين كان يتزعمهم رجل الدين حكيم إدريس في بتليس، أنشأ خمس إمارات مستقلة ينحدر أمراؤها من السلالة الحاكمة المحلية، وأمر بصك عملة خاصة بالإمارات أُقرَّت أسماء الأمراء المكلفين خلال خطبة خصصت لهذا الغرض. هذه الإمارات الخمسة التي أصبحت متوارثة كانت على الشكل التالي: إمارات بتليس، هكاري (جلا مرغ JULAMERG) باهدنان،، (العمادية) بوطان (جزيرة ابن عمر)، وحصن كيفا، كما تغاضى السلطان عن الضرائب والخدمة الإلزامية العسكرية، وأصبح الأمراء أسياداً على تراب أرضهم، وزيادة في إرضاء الجميع أقام في منطقة ديار بكر ثمانية ألوية برؤسائها على غرار الإمارات ما لبث الفُرس أن حذوا حذوهم بالطريقة نفسها، وبهذا استمتع أمراء أردلان (Ardelan) الأكراد بصورة خاصة بسلطانهم المطلق. لقد أغفلنا ذكر المنافسة التركية - الفارسية بسبب الحدود القائمة بينهم والحروب التي تتالت للأسباب ذاتها والتي كان الأكراد يتحملون تبعتها في معظم الأحيان ويدفعون الثمن.

ولكن مع بزوغ القرن السابع عشر، أوغر في صدور السلاطين تلك الاستقلالية التي قلَّلت من تأثير سلطانهم عليها، ولاح لهم إلغاء صفة الأمراء

الأكراد والاستعاضة عنهم بحكام أتراك موالين لهم، فعمدوا إلى إثارة المنازعات القبلية فيما بينهم، إلا أن هذه الحركة ما لبثت أن اضمحلّت إذ أضعفتها الحروب المتلاحقة في أُوربة حتى تلاشت تماماً. ويمكن أن نشير عرَضاً إلى أنه خلال القرن الثامن عشر في إيران حدث أن واحداً من قبيلة الزند الكردية يدعى كريم خان (١٧٥٠ - ١٧٧٩ م) قد وضع حدّاً للفوضى التي تلت حكم الشاه نادر (١٧٢٢ - ١٧٤٧ م) استطاع أن يجعل من عاصمته شيراز درَّة بين المدن، ومن وجه آخر فقد تجددت المحاولات في تركية مع بداية القرن التاسع عشر، لتقليص واقع الحكم الذاتي للأكراد بقوة، نتج عنها نزاعات عديدة وثورات دموية طاحنة في كل مكان تعاون فيها الأمراء والعوام في المقاومة في سبيل الاحتفاظ بحريتهم. وهكذا يتبين لنا من ثورة عبد الرحمن باشا بابان (١٧٨٨ - ١٨١٢ م) وفي السليمانية عام ١٨٠٥ م وفي عام ١٨٣٠ م ثورة محمد باشا المعروف بأمير بوطان في الجزيرة، الذي هزم فقط بسبب الخيانة، وقد كان آخر أمير مستقل في تركية. ولكن في عام ١٨٨٠ م حدث أن الشيخ عبيد الله من نهري (NEHRI) حاول جاهداً أن يقتطع إقطاعة مستقلة من كلا الدولتين تركيا وإيران ما لبث أن تخلى عنها أيضاً، نشأ من بعدها حالتا الإقطاع والاستغلال حيث صارت الأرض المنتزعة لا تحمل في مضمونها إلا الموت، لإحكام السيطرة وزجّ جميع الأعراق المختلفة في عبودية مطلقة من قبل السلاطين، وأصبح أولاد الزعماء المغلوبين يحظون بعناية خاصة وتعليم في إسطنبول، وذلك لجعلهم تحت السيطرة بعيداً عن إقطاعاتهم القديمة وتأهيلهم ليكونوا أكثر مرونة وأكثر انقياداً للسلطة المركزية. بين أعوام ١٨٨٩ م و ١٨٩٢ م عمد السلطان عبد الحميد إلى تشكيل فرقة الحميدية، وهي فرقة من الخيالة خفيفة السلاح وجعلها تحت إمرة رؤساء القبائل وذلك لمحاولة تحجيم فعالية حب الحروب لدى الأكراد، وقد كانت ترسل للحرب في جميع جبهات

القتال، بهدف أن يهلك الرجال قبل تجنيدهم كقتلة في مذبحة الأرمن أثناء الحرب العالمية تحت صفة جنود الإسلام، ولكن الأكراد رفضوا هذا الشعار من أصله. وقصارى القول: لقد بذل الأتراك كل جهد في سبيل القضاء على القومية الكردية التي كانت قد غذّتها الإقطاعية وعملت على نموّها، ولكن جميع محاولات الأتراك باءت بالفشل وساعدت فقط في صلابة القومية الكردية وسخطها وعدائها..

القومية الكردية والقانون الدولي

حركات الأكراد العدائية ضد الباب العالي (الحكومة العثمانية) يمكن أن تعدَّ أجيجاً يسعر اليقظة الوطنية والشعور القومي، ولكن كل تلك الحركات بكل أسف لم تكن تنفّذ على أسس من التخطيط والدراسة التي من شأنها توحيد الصف والكلمة والتنظيم وتحديد الأهداف. ولكنها كانت عشوائية مرتجلة. فمثلاً: يتوق زعيم ما أن يستأثر بسلطاته الموروثة أو يستقطع مملكة صغيرة لنفسه تراه يسعى في هذا الخط جاهداً ولو كان في ذلك أذى الدولة أو أذى جيرانه الأضعف منه وهكذا.. الفكرة لم تكن لتنبثق من وحي كردستان المستقلة الكبيرة. حلم الاستقلال الذي تشكل منذ البداية، جاء بصورة أقوى فيما بعد الحرب العالمية الأولى تماماً مثل فكرة استقلال العرب للأسباب نفسها. ومن هذا المنطلق عمد القوميون الأكراد لتحقيق أهدافهم إلى تكتيكين. الطريق الدبلوماسية أولاً، ثم إقامة حواجز مسلحة على الطرق العامة..

جاءت ثورة الشبان الأتراك عام ١٩٠٨ م لتلهب الحماس لدى الجميع الذين يعيشون على أرض تركية من الذين يعشقون الحرية والتحرر بمن فيهم من هم دون السن، متدينين كانوا أم قوميِّين من العرب، الأرمن والأكراد، كلهم اعتقد بأن ساعة التحرر قد أزفت. وبالطبع لم يتلكأ الأكراد في اقتناص الفرصة التي

لاحت في ذلك الجو المفعم بالفكر والتحرر. عندئذ تشكلت التنظيمات السياسية والاجتماعية والثقافة الكردية في إسطنبول عام ١٩٠٨ م ضمن جهود موحّدة من قبل الأمير بدرخان، والجنرال شريف باشا والسناتور عبد القادر من شمدينان (SHAMDINAN) فعملوا على إصدار صحيفتهم اليومية (كردستان) وتمَّ افتتاح مدرسة لتعليم أولاد الأكراد في المدينة، ولكن ما لبث الاتحاديون أن أغلقوا تلك المدرسة قسراً عام ١٩٠٩ م مما حدا بالجمعية لأن تعمل سرّاً وفي الخفاء. وفي عام ١٩١٠ م أنشأ بعض الطلاب حركة الهيفيا كرد. الأمل الكردي (HEVIYA KURD). وقد أصبح لديهم مجلة شهرية فيما بعد سُمِّيت (اليوم الكردي ROJA KURD) وفي عام ١٩١٤ م أصبحت تدعى (شمس الأكراد HATAWé KURD)..

عند دخول الأتراك الحرب إلى جانب القوى الرئيسية العالمية، جرى اعتقال بعض زعماء الأكراد المناهضين وتمَّ إعدامهم، كان من بينهم خليفة سليم من بتليس. وفي عام ١٩١٧ م فكَّر الشيخ عبد القادر أن من الحكمة الهجرة إلى مكة المكرمة بالقرب من الشريف حسين، بينما راح ابنه سيد عبد الله يؤسس جمعية لتحرير كردستان (ISTIKHLAS - I - KURDISTAN) وقد ساندهم بعض زعماء الأكراد مثل سيد طه ابن أخ عبد القادر، وقد حاول كميل بدرخان الاتصال بالروس والاستعانة بهم لدعم الأكراد طالما أنهم قد فقدوا الثقة بالأتراك إثر غزو مناطق تبريز في إيران من قبل بعض الضباط الأتراك وسلب القرى الأرمنية الآمنة وذبح ساكنيها[1]، وقد تبجحوا بذلك بصفاقة

---

(١) لم يكن للإصلاحات التي أقرَّها مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ م لصالح أرمينية التركية أدنى أثر في حياة الأرمن من سكان هذه البلاد، وقد أخذت الأمور تزداد تعقُّداً يوماً بعد يوم حتى كان عام ١٨٩٤ م الذي اندلع فيه لهيب الفتن، فقد حدثت المذابح الوحشيَّة في كلِّ مكان، حدثت في ساسون عام ١٨٩٤ م، وفي جميع المدن الكبيرة وخاصة في أطرا بزندة والرُّها وبيره جك عام ١٨٩٥ م، وفي خربوط ونيكسار ووان عام ١٨٩٦ م، وبعد هدوء عدة أعوام تجددت عام ١٩٠٤ م المذابح في ولايتي وان وبتليس، (النَّاشر، عن دائرة المعارف الإسلامية ١/٦٥٥).

خلال عربدتهم أننا لم نتلكأ في إبادة (الأرمن ZO) وأفنيناهم وعند عودتنا سوف نتخلص من (الأكراد LO)، أمر أنور باشا أثناء الحرب وبحجة إجلاء السكان الأكراد قبل الغزو الروسي بترحيل ٧٠٠,٠٠٠ كردي إلى الولايات الغربية حيث هلك بتلك العملية عدد كبير جداً منهم وانخرط آخرون بالوقت ذاته قسراً بالدعوة إلى الحرب المقدسة (الجهاد) التي نادى بها السلطان والتي ذبح خلالها الأرمن وأبعد بعضهم نفياً.

بمجرد أن شارفت الحرب على النهاية وبانقضاء هدنة (مدروس MUDROS) في ١٩١٨/١٠/٣٠ م تشكلت لجان مختلفة. منها لجنة شكلها الأمير سريّا بدرخان (Suraya Bedirkh) (١٨٨٣ – ١٩٣٨ م) بالقاهرة تعمل في سبيل استقلال الأكراد. بينما أحدث الأمراء أمين وكمران بدرخان والسناتور عبد القادر جمعية في إسطنبول ذاتها لإعادة توطيد دولة كردستان، ثم ما لبث أن برز للوجود الحزب الوطني الكردي والجمعية الكردية بمبادئها الاشتراكية. وقد نشرت هذه المنظمات فروعا لها في جميع أنحاء كردستان، إلا أن احتلال إسطنبول من قبل جنود مصطفى كمال أرغم المؤسسين للنزوح إلى الخارج، ولكن برغم كل هذا لم يتوقفوا عن أنشطتهم الوطنية، وكذلك جمعيات التحرر العربية. حتى أنها اجتمعت في قحطا (Kahta) قرب ملاطية عام ١٩١٩ م بهدف مقاومة الحركة الكمالية حتى بقوة السلاح. وقد أقنعهم الكولونيل بل (BELL) من الاستخبارات التركية بالعدول عن الفكرة وقد وعد بأن الطموحات الكردية سوف تبحث جدياً في مفاوضات السلام وفي الواقع فإن معاهدات السلام ولأول مرة في التاريخ حازت رسمياً باعتراف دولي بقضية الأكراد.

يتوق الأرمن والأكراد إلى التحرر على حد سواء، كلاهما يسعى إلى الاستقلال. إنما كل طرف كان يطالب بالمناطق نفسها التي يعيش فيها، فقد

كانت ولايات بتليس، دياربكر وخربوط تعدُّ من كلا الشعبين قطعة كاملة من أرض وطنه. وتجنب كل سوء فهم الذي من شأنه إضعاف مطالب الجانبين، فقد عقد في باريس مؤتمر سلام في ٢٠ أيلول ١٩١٩ م حاز على موافقة الأرمن والأكراد بين الجنرال شريف باشا عن الأكراد وبوغوص باشا عن الأرمن، هذا الاتفاق السياسي الدولي ما لبث أن آتى أكله إذ إن معاهدة سيفر (Sèvres) التي وقعت في ١٠/٨/١٩٢٠ م بين الحلفاء والأتراك أوجدت دولة أرمينية ودولة كردستان - المقطع ٣ فقرة ٦٢ - ٦٤ - من المعاهدة. فإذا كان ذلك القرار قد قوبل بالرضى والقبول من الأكراد من ناحية فقد أغضب الفرنسيين الراديكاليين المتطرفين المؤيدين للأتراك من ناحية أخرى فقاموا بمعارضة قوية وموجة من الاحتجاج في لجنة ديبلكس (Dupleix) مما دفع مصطفى كمال بدوره أن يستنكر تلك المعاهدة وبمناسبة انتصار جيشه على اليونانيين وقذفهم بالبحر، حدا به أن يتنصل من معاهدة سيفر ويعدّها مجرد حبر على ورق. وكذلك أُودي بالاتفاقية الجديدة ومعاهدة لوزان التي أُبرمت في ٢٤/٦/١٩٢٨ م أيضاً أصبحت باطلة ولاغية. وبهذا تكون أُوربة قد أوقعت بالأرمن والأكراد وغدرت بهم ونهشتهم وزادت على ذلك أن تركت أرمينية لجلاّديها.. حسب اجتهاد (لوفور LEFUR) أستاذ القانون الدولي.

ومع هذا كله فإن قضية الأكراد لم تتوقف أبداً، فقد برزت مجدداً في الحلف الوطني الذي تمخض عن قضية ولاية الموصل التي تقطنها غالبية كردية وكان الأتراك والإنكليز كلٌّ يطالب بها وكذلك الانتداب على دولة العراق الحديثة. فقد أرسلت لجنة تحقيق إلى المنطقة. ووفقاً للنتائج قرر مجلس الحلف الوطني في جلسته الـ ٣٧ في ١٦/١٢/١٩٢٥ م بأن ولاية الموصل يجب أن تنضم إلى العراق مع ضمان حقوق الأكراد فيها. وبناء على ذلك كان من المفيد تحديد بعض المقاطع من التقرير للجنة تتعلق بحق الأكراد بالمنطقة.

إذا كانت النتيجة المستخلصة من الجدل العرقي وحده هي التي تقود إلى خلق دولة كردية مستقلة، يشكل الأكراد فيها ٥/٩ من تعداد السكان، أضف إلى ذلك نسبة الأكراد اليزيديين الذين يدينون بالزرادشتية، والأتراك الذين انصهروا بالعنصر الكردي، عند ذلك يمكن اعتبار الأكراد أنهم يشكلون بمجموعهم ٧/٩ من تعداد السكان المحليين. هذا وعلينا ألا نغفل بأن على الحكومة العراقية أن تدين للانتداب البريطاني الذي بذل وسعه لجعلها تبسط نفوذها وسلطانها على الأكراد شرط التزامها بوعودها المتكررة في بيانها المؤرخ في ١٩٢٣/٧/١١ م وفي نشرات رئيس المجلس في ١٩٢٦/١/٢١ م وكذلك نشرات وزير الداخلية في ١٩٢٦/٢/١٨ م بأن حقوق الأكراد يجب أن تحترم ولغتهم يجب أن تدرس في المدارس وتستعمل أيضاً بالقضاء والدوائر الحكومية وأن الموظفين يجب أن يكونوا أكراداً على أرضهم يستطيعون التحدث بلغتهم في المناطق الكردية. وقد جهد الإنكليز لجعل هذه الثوابت فعّالة ونافذة، ولكنهم في حزيران ١٩٣٠ م عندما وقعت معاهدة أنكلو - عراقية التي أنهت الانتداب على العراق أغفل تأكيد الاعتراف بحقوق الأقليات من حيث الدين أو العرق، هذا الحذف كان من شأنه أن تسبب في عواقب مشؤومة للجميع..

تصادم القومية الكردية مع القوميات المجاورة:

لتقويم سياسة ما بعد الحرب نرى أنه بالرغم من توفر بعض الآمال التي ما لبثت أن تحطمت بسرعة، وما أعقبها من سلبيات جعلت وضع الأكراد أكثر تأرجحاً. عندما كان الأكراد قبل عام ١٩١٤ م يعيشون في دولتين فقط هما تركية وفارس، ساقتهم الظُّروف فتَفرَّقوا في خمس دول مختلفة. تركية، إيران، العراق، وعدد لا بأس به في سورية، وقلة في أرمينية، هذا التقسيم الذي رفضه الأكراد لكردستان جعل الثورات المتكررة تقض مضجع بعض تلك الدول وتعكر صفوها.

هناك بعض الألعاب التي تكون خطرة. فمثلاً: الصبي الذي يثير كلبه عندما يمنحه عظمة ثم يعود فيحرمه تلك العظمة باستمرار، حينئذ عليه ألا يلوم إلا نفسه إذا بادره ذلك الكلب بعضّة أليمة، وهكذا في السياسة، لكي تبهر أبصار الآخرين وتغريهم بإمكانية إقامة عهد استقلالي تام من ناحية، ثم لا تلبث أن تعدَّ تلك العهود مجرد قصاصات ورق من ناحية أخرى. تبذل الوعود وتمنّي الأكراد بأنهم سوف يتمتعون بحقوقهم الطبيعية، باستعمال لغتهم الخاصة، لثقافتهم، لإقامة دولتهم الخاصة المحلية، ثم سرعان ما تنكل وترفض منح تلك الحقوق وتسلبها، إذن فهي كارثة سياسية ونكبة إنسانية بديهي أن تؤدي إلى الاضطراب والزعزعة وعدم استقرار مستمر في منطقة الشرق الأوسط، إضافة لاضطراباتها الذاتية الكافية.

مثل هذه التصرفات المخزية بما تحمله من خطورة كبيرة بمضمونها بالنسبة إلى الأكراد، وبمنظور آخر نرى أن شعوباً أخرى أقل تقدماً بكثير من الأكراد منحت مجاناً الاستقلال والحكم الذاتي، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية. من هذا يتضح لنا بأن الأكراد عليهم أن يدركوا بقرارتهم مدى خديعتهم وما أصابهم من غدر في أعماقهم وعليهم أن يناضلوا من أجل التمسك بموقعهم تحت الشمس مثل الشعوب الأخرى.

دعونا نلخص الوضع كما يبدو لنا في الأقاليم الثلاثة الرئيسية التي يقطنها الأكراد. تركية، إيران، العراق، في أرمينية حيث الأقلية الكردية قد حصلت على حقوقها الثقافية تماماً، ولا يكاد يوجد أي مشكلة لهذه الفئة البسيطة حيث يتبين بأنهم يتمتعون بالحقوق والامتيازات نفسها الثقافية والاجتماعية التي للأرمن، ويمكن القول بأن الوضع نفسه ينطبق على الأكراد في سورية من حيث المبدأ، إذا كانت الجالية الكردية لم تتمكن من إقامة مدارسها الخاصة بها فإنها تتمتع بالحقوق المدنية والسياسية نفسها التي لغيرهم من المواطنين تماماً.

الأكراد في تركية

نبدأ بهذه الدولة حيث كثافة الأكراد فيها تفوق أي بلد آخر حيث يبلغ تعدادهم ١٠ - ١٢ مليون بأقل تقدير. وحيث تكثر تحركاتهم ومقاومة الجيش التركي التي كلّفت الأتراك الكثير من الرجال والعتاد والمال.

انتفاضة الشيخ سعيد في بيران (PIRAN) عام ١٩٢٥ م هي العلامة الأولى للسخط والاستياء التي نسبت إلى الإسلاميين المتشددين والتي استمرت طيلة أيام الخلافة إلى أن جاء أتاتورك وقضى عليها. أما فيما يتعلق بامتيازات الإقطاع فقد تزعزعت أوصالها، بسبب إعادة تنظيم الجمهورية، وقد تأكد للجميع بما فيهم أتاتورك أن لإنكلترا يداً في تبديد هذه الامتيازات، وهكذا فقد تشكلت محاكم الاستقلال لإخماد الثورة التي قامت في ولاية الموصل والتي كانت ترسل الناس لأعواد المشانق لأقل ذريعة، وهكذا كانت محاكمة الزعماء المتمردين والمروعة في ديار بكر خلال (نيسان - حزيران ١٩٢٥ م) حكم أثناءها على ٥٣ زعيماً منهم بالإعدام، وقد نفّذ شنقهم بمجرد نطق رئيس المحكمة بالحكم. قضوا لأنهم كانوا جميعاً متّحدين في هدف واحد، في قضية واحدة، وأمنية واحدة، هي تكوين كردستان موحدة مستقلة (حزيران ١٩٢٨ م)..

الثورة الثانية كانت ثورة أجري داغ (AGRI DAGH) أرارات، وقد نظمت وهي مدعومة ومزودة بجميع اللوازم والتقنية العسكرية من قبل ضباط أكفاء جهز جنودها بأسلحة حديثة تحت إمرة المركز الوطني (خويبون XWEBCN) الذي كان يخطط وينظم لتنفيذ الأهداف المطلوب تحقيقها. الحكومة التركية بدورها قامت بالمقابل بتجهيز فيلقين من الجيش في نيسان ١٩٣٠ م تحت إمرة صالح باشا. بدأت المعركة وألقيت قنابل حارقة على القرى من قبل الجيش دون تمييز وبصورة عشوائية، فلم توفر النساء والأطفال، ولما لم يكن هناك تكافؤ فقد أصبحت جميع أشكال المقاومة مستحيلة، مما اضطر زعماء التمرد إلى التراجع

واللجوء إلى إيران. أعقب ذلك انعقاد الجمعية العامة في دورتها الثانية في ١٩٣٠/٨/٣٠ م في زوريخ بناء على طلب ممثلي الأرمن الذين استنكروا عملية إبادة الأكراد التي تذكّر بالأساليب التي كان الأتراك قد اتبعوها في إبادة الأرمن أنفسهم ولكن دون نتيجة. وقد اتهم الأتراك إيران التي ما زالت تساعد الأكراد وسرّاً مثل (سوف يعطى له ما يريد) تلك المقولة التي يُعتقد بأنها تخص لورنس المعروف، وبالنهاية فإن بعض الأغوات والبكاوات (AGABéKOF) يلمحون بأن السوفييت كان لهم يد طولى بهذا الأمر. بينما يصر الآخرون ويؤكدون الحقيقة العكسية وهم الـ (خوند كاريان Khond Karian) وهي أن الروس كانوا يحضرون لدعم الأتراك في إخماد تلك الثورة.

وليكن ما كان.. فقد أصدرت الحكومة التركية في نيسان ١٩٣٢ م قانون النفي والإبعاد الذي أعطى الصلاحية لوزير الداخلية لنفي السكان الأكراد إلى المناطق الغربية في أماكن معينة بحجة أسباب حية، مادية، ثقافية، سياسية، استراتيجية وانضباطية، وبهذا يقضى على وجود الأكراد رسمياً في تركية، ولا يبقى سوى سكان الجبال الأتراك حسب مسمّاهم.

كان من جرّاء ذلك أن انفجرت ثورة درسيم عام ١٩٣٧ م ضد ذلك القرار، تلك الثورة الرهيبة التي قادها الشيخ رضا الذي كان يسعى من خلالها لمقاومة ضراوة ووحشية الحكومة التركية، هذا وبما أن الثورة قد اتَّسع نطاقها وانتشارها واشتد عودها، فقد تدخل الجيش التركي بحشوده الضخمة لإخمادها، وكانت نهاية العملية بشكل مأساوي، ونفذت الإعدامات وحكم على ١١ من المتّهمين بالموت في ١٩٣٧/١١/١٤ م من قبل محكمة الجنايات في مدينة العزيز (EL AZIZ) ونفّذ الحكم باليوم التالي على أعواد المشانق.. أضف إلى ذلك فإن اسم درسيم الذي أصبح مشؤوماً شطب من الخريطة التركية وحلَّ محلّه اسم تونجلي (TUNJELI). منذ ذلك الحين بدا أن كردستان التركية قد سكنت،

حتى إن الصحفيون الغربيون استنتجوا من ذلك أن القومية الكردية في تركية قد تلاشت نهائياً. إلا أن الأحداث الأخيرة سرعان ما أثبتت العكس وحرَّرت ذلك الوهم..

الأكراد في إيران

بما أن ثورة الأكراد قد هدأت نسبياً في تركية فقد تحولت إلى مناهضة عرب العراق الذين يعدّون أنفسهم متميزين وأنهم أكثر حضارة من الأكراد، ومما يدعو إلى الاستغراب في حينها أن العلاقة الطيبة بين الأكراد في إيران والحكومة في طهران أصيبت بانتكاسةمفاجئة أيضاً.. لماذا؟ أليسوا جميعاً إيرانيين؟ أليست لغتهم قريبة الواحدة من الأخرى؟ ألم ينهلوا جميعاً من المعين نفسه تراث الجدود وأساطيرهم؟ إذن كل هذه الثوابت لا بد أن تجذب الشعبين لبعضهما ويظل السؤال محيراً! ولكن على الرغم من كل شيء يبقى وضع الأكراد في إيران أفضل من أي مكان في الجوار. كما أن الحكومة الإيرانية كثيراً ما تؤكد مشاركة الجميع بالحقوق نفسها على حد سواء، ومع هذا لا بد لنا أن نسجل هنا بعض الصراعات الملتهبة التي تصبح أحياناً سياسية ودموية عدا عن منازعات اجتماعية تثور بين الحين والآخر، وهكذا.. أثناء حرب ١٩١٤ م أراد إميل آغا سمكو (IMAIL AGHA SIMKO) زعيم الشكاك (SHIKAKS) أن يستقل عن الفرس باعتماده أحياناً على الأتراك، وأحياناً أخرى على الفرس أنفسهم الذين استرضوه لفترة جعلوه خلالها حاكِماً على إشنو (USHNU) على بحيرة أورمية (OURMIA) ثم ما لبثوا أن غدروا به فقتلوه بالطريقة نفسها التي اتبعوها بقتل مارشيمن بنيامين (MARSHIMUN BENYMIN) بطريرك النسطوريين (NESTORIANS) في الثالث من آذار ١٩١٨ م.

بدءاً من عام ١٩٢٢ م آذار (مارس) اتبع رضا شاه بهلوي مع الأكراد سياسة قاسية شديدة تقضي بنفي زعماء القبائل الرئيسيين إلى طهران بعد مصادرة ممتلكاتهم وانتزاعهم من أرضهم وتجريد الفلاحين الأكراد من زعمائهم، ليصبحوا عرضة لمواجهة موجة الفساد والرشوة والسياسة الوحشية التي دأب عليها موظفو الدولة الفرس. استناداً لما جاء عن إلفنستون (ELPHINSTON) تلك السياسة التي استنكرها وأدانها بشدة القاضي دوجلاس (DOGLAS) الذي كان شاهد عيانٍ لحالات كثيرة منها مؤلمة.

أثناء الحرب العالمية الثانية كانت فارس في شمالها يحتلها الروس وفي جنوبها يحتلها البريطانيون، وبين هذا وذاك أصبحت كردستان منسية، أي لا وطن ولا أرض يمكن العيش فيها بكثير أو قليل من الحرية، ولكن على الرغم من تلك الظروف السيئة وبعيداً عن ضغط حكومة طهران انتهز الأكراد فرصة تشكيل حزب سياسي يدعى كومالا (COMALA) ليس محافظاً تماماً ولكنه وطني تولى زعامته أحد الأكراد، وهو من أسرة متدينة مرموقة في مهاباد، ويدعى القاضي محمد، ثم لاحت له فرصة ملائمة ليعلن في ١٩٤٦/١/٢٢ م دولة مهاباد دون أي إراقة دماء، وذلك في قلب دولة أذربيجان المستقلة التي تتحكم في قلب الحكومة الإيرانية، كان القاضي محمد رجلاً شريفاً شجاعاً مخلصاً ولم يكن شيوعياً حسبما نقل إلينا روزفلت (A. ROSEVELT. JR) كما أنه لم يكن ضد الفرس أيضاً، إنما كان يسعى للاستقلال الذاتي فقط ضمن إطار الإمبراطورية الفارسية، وقد نظم دويلته الصغيرة. افتتح المدارس والمستشفيات ونشر الصحف الكردية وجهد في تطوير وإنماء الزراعة والتجارة والصناعة والصحة، وقد نفّذ كل هذا في زمن قياسي لم يلق خلاله أية مقاومة، وكان أثناءها ملاّ مصطفى البرزاني الذي (نتناوله فيما بعد) لاجئاً من العراق ما لبث أن عُيِّن جنرالاً لهذه الدولة الفتية حيث تمكن من إنشاء جيش صغير جيد التسليح لدعم الدولة.

ولكن ذلك لم يدم لسوء الحظ. فقد انتهزت حكومة إيران فرصة مغادرة الجيوش الروسية التي كانت تدعم دولة أذربيجان فقط دون مهاباد لتنغمس في حمأة انتقامات دامية فتاكة فعمدت إلى شنق أعضاء المستقلة الرئيسيين بعد اعتقالهم وذلك في ١٣ آذار ١٩٤٧ م كان من بينهم ثلاثة من القضاة، وقد استمرت تلك الحملة الغاشمة مدة سنة كاملة لجأ البرزاني أثناءها إلى الاتحاد السوفييتي بعد سلسلة من المغامرات الملحمية البطولية مع الفرس، وقد أصبح ضريح القاضي محمد مكاناً يؤمّه الناس إلى اليوم..

ذلك النوع من العنف والوحشية لم يكن من شأنه حل المشاكل التي تحتاج إلى فهم وحسّ اجتماعي.. جرى في مناسبتين. ولأسباب اقتصادية في ذلك الوقت تسخّر قبيلة جافانرودي (JAVANROUDI) قرب كرمنشاه في أيلول ١٩٥٠ م وفي شباط ١٩٥٤ م في أعمال شاقة من قبل جند الشاه بحجة أنهم لا يؤدون الضرائب ويرفضون تسليم أسلحتهم وأنهم يمارسون زراعة الحشيش، وقد اتهم السوفييت بمساندة تلك الثورات بناء لـ (ب روندوت P. RONDOT) فإن فعالية ذلك القمع كانت النتيجة الإيجابية الأولى لمعاهدة بغداد ١٩٥٥ م تلك المعاهدة التي حلّت محلّ معاهدة سعد أباد (Saadabad) ١٩٣٧ م التي كان أحد أهدافها مساعدة القوى الموقعة عليها: إيران، أفغانستان، العراق وتركيا. تلك الدول التي تعاني وتتخبط في أزمات مضنية بصدد مواطنية الأكراد لديها..

إثر الاضطرابات الأخيرة وما أصاب الحكومة الإيرانية من ضير: مما دفعها لتبحث متلهفة لإيجاد تنظيمات اجتماعية بنّاءة فراحت تسعى لتحظى بتعاطف ومساندة جمهور الأكراد الكبير لديها من جديد فلجأت اعتباراً من أيار ١٩٥٩ م إلى السماح بتأسيس صحيفة كردية أسبوعية تحمل اسم (كردستان) تنشر في طهران وتوزع في الخارج بشكل واسع حيث كان يتخلّلها فقرات أدبية متميزة،

وتتناول: الدين، العلوم، التاريخ والسياسة، ولكن في جميع الأحوال فإن الوضع غير المستقر بالعراق جعل الحكومة الإيرانية دائمة اليقظة والحذر.

الأكراد في العراق

حياة الأكراد في العراق لم تكن أقل منها اضطراباً وإثارة عند إخوانهم في تركية وإيران الذين كانت لديهم الأهداف نفسها التحررية والحركات المناوئة.

في أول أيار ١٩٢٠ م وفي سان ريمو (SAN REMO) انتدبت بريطانية من عصبة الأمم لتحكم العراق وفلسطين انتداباً، ولكن الأكراد لم ينتظروا تلك المبادرة الرسمية، فبادروا إلى الاتصال بالإنكليز الذين كانوا يحتلون منطقتهم آنذاك حتى قبل معاهدة مدروس (MUDROS) بل منذ احتلال بلاد ما بين النهرين وكركوك في ٧ أيار ١٩١٨ م وذلك بواسطة الرائدين سوان (SOANE) ونويل (NOëL) اللذين كانا على الاستعداد التام لبدء العمل وبموجب عريضة وقّعت من قبل زعماء نحو ٤٠ قبيلة كردية قدمت إلى المندوب السامي السير آرنولد ولسون (SIR ARNOLD WILSON) في كانون الأول ١٩١٨ م يطلبون فيها إقامة دولة كردية تحت حماية البريطانيين ومشاركة مع العراق. وعندما تمَّ الأمر بالإيجاب عُيِّن الشيخ محمود برزنجي (١٨٨٠ - ١٩٥٦ م) حاكماً عاماً لها في أيار ١٩١٩ م وفي آذار ١٩٢٠ م أُعلن الأمير فيصل ملكاً على سورية مقره دمشق، الوقت نفسه الذي وقعت فيه معاهدة سيفر (SèVRES) التي تمخضت عن هياج بين الأكراد، أُخرج الملك فيصل من سورية من قبل الفرنسيين، وعُيِّن ملكاً على العراق في ٢٣ آب ١٩٢١ م، وبعد مرور سنة كاملة وفي أيلول ١٩٢٢ م، سُمح للشيخ محمود الذي كان في ذلك الوقت منفياً بالهند بالعودة إلى السليمانية. ولكن الشيخ الذي كان مقيداً في دولته بسبب سيطرة الإنكليز الذين سعوا كثيراً لكسب ودهم، إلا أنه لم يحتمل أن

يماشي البدو في تلك المناطق في خضوعهم إلى الإنكليز، فأعلن نفسه في أكتوبر تشرين الأول ١٩٢٢ م حكمداراً (HUKUMDAR) أي ملك كردستان فشكل حكومة، وأنشأ الطوابع البريدية وطوابع ضريبة الدخل إلخ... فهل كان للإنكليز أي يد بتلك المبادرة؟ على أي حال لم يمض وقت طويل حتى جاء في بيان رسمي بتاريخ ٢٤ كانون الأول ١٩٢٢ م أن دولة صاحبة الجلالة البريطانية ودولة العراق، يعترف كلاهما بحق عيش الأكراد ضمن الحدود العراقية لتأسيس الدولة الكردية داخل تلك الحدود.. للأسف لم تدم الحال طويلاً فسرعان ما نشأ خلاف بين الملك محمود ومعاونيه الذين اضطروه إلى اللجوء إلى بنجوين (PENJWIN) حيث بقي فيها حتى ١٩٣٠ م ذلك العام الذي أنهي فيه الانتداب على العراق.

كانت الحماية البريطانية أنهيت بشكل درامي عندما اصطدمت المملكة الهاشمية مع الأكراد والآشوريين كرستها (مذبحة سميل SEMEL في آب ١٩٣٣ م) حيث عمدت الحكومة العراقية بعدها مباشرة لفرض الموظفين العرب عوضاً عن الأكراد وإلغاء استعمال اللغة الكردية في الدوائر الحكومية في الشمال، ما لبث أن نتج عن هذه الإجراءات توتراً تطور إلى ثورة مفتوحة، ولا سيما عندما فتح العسكر العراقيون النار على المدنيين العزَّل في السليمانية في أيلول ١٩٣٠ م عاد أثناءها الشيخ محمود ثانية إلى بلاده وتولى زعامة الحركة وطالب بالحكم الذاتي تحت الحماية البريطانية مجدداً وقد تراءى للجيش العراقي بأنه عاجز عن سحق الثورة التي استمرت ٩ أشهر فاستدعى الطيران الحربي الملكي (R. A. F) ثانية الذي تدخل لقمع الثورة مما أثار سخط المتمردين على ذوي الرتب العالية أمثال ولسون (WILSON) والجنرال دوبز (DOBBS) اللذين صرحا بأنهما كانا يتنبآن مثل تلك الأحداث المؤلمة، وقد وضع الشيخ محمود قيد الاعتقال في بيته في بغداد.

وقد لعبت الدولة الهاشمية العراقية دورها المعروف مع بدء الاضطرابات، وفي تموز ١٩٣١ م ثار بدوره الشيخ أحمد من برزان ثم ثار ثانية في عام ١٩٣٣ م وأخيراً نفي إلى كركوك ثم إلى السليمانية حيث بقي فيها حتى عام ١٩٤٥ م.

منذ ذلك الحين وبعده أصبحت كردستان العراقية هادئة، وفي عام ١٩٤١ م بعد مغامرة رشيد عالي الكيلاني، ثبّت البريطانيون أقدامهم ثانية في العراق، ومن أجل أن يكسبوا ود الأكراد فقد لجؤوا إلى تجنيد عدد منهم بالجيش البريطاني، ثم خصصوا لقسم كبير مناطق حكم ذاتي في كردستان رسمياً.

في عام ١٩٤٣ م كان الملاّ مصطفى البرزاني أخو الشيخ أحمد يقبع بالإقامة الجبرية في السليمانية يعاني من ظروف صحيّة سيئة من حيث الطعام وأمور أخرى فرضها عليه أولي الأمر، تلا ذلك هربه إلى منطقة برزان صحبة الشيخ لطيف بن الشيخ محمود ومن هنا اندلعت نواة الثورة، فقد تدخل أحد الأكراد البارزين يدعى مجيد مصطفى لتهدئة الأمر حيث عُيِّن وزيراً للدولة العراقية، تجاوب البرزاني معه شرط أن تُزود المناطق الكردية بالمؤن والمواد الغذائية بشكل أحسن وأن يكون الموظفون من الأكراد فقط دون العرب وأن تفتح المدارس والمستشفيات في كردستان، وقد وافق نوري السعيد(١) رئيس الوزراء على تلك الشروط جميعها بينما عارضها الوصي عبد الإله(٢) ولم تفلح المبادرة، وفي ربيع ١٩٤٥ م انفجرت الثورة ثانية بشكل أعنف مما مضى، هذه المرة كان الأمر خطيراً، وأحرز الأكراد انتصارات مذهلة، بينما كانت خسارة الجيش العراقي باهظة جداً في الرجال والعتاد بلغت مليون دينار كما صرح أحد النواب، مما حدا بالدولة آنذاك لإدخال الطيران الحربي في المعركة، ليلعب دوره في إنقاذ

---

(١) نوري السّعيد: ١٨٩٨ - ١٩٥٨ م، سياسي عراقي، ثار على الأتراك مع فيصل بن الحسين، رئيس مجلس الأعيان: ١٩٤٦ - ١٩٥٤ م، رئيس مجلس الوزراء مراراً، قتل في انقلاب عسكري، (النّاشر).

(٢) عبد الإله بن علي ١٩١٣ - ١٩٥٨ م، أمير عراقي تولّى الوصاية على العرش بعد مصرع الملك غازي ١٩٣٩ م، قتل في انقلاب عسكري، (النّاشر).

العراق والمملكة الهاشمية فيها، وهكذا تمت العملية بنهاية شهر آب، وانسحب الملاّ مصطفى إلى إيران ثانية مع بعض رجاله وغنائمه وقد وتخلف عنه أربعة من ضباطه ممن وثقوا بوعود العفو وهم مصطفى خوشنا، وعزت عبد العزيز، محمد محمود وخير الله عبد الكريم، ولكن الوعود بدا أنها مزيفة، وحلَّ محلّها الغدر والخيانة، وحوكم الضباط الأربعة وأعدموا في ١٩ حزيران ١٩٤٧ م بعد أن كان مقرراً رد اعتبارهم وتكليفهم بمراكز مرموقة من قبل عبد الكريم القاسم. بعد إعلان الدولة العراقية، وبعد تلك الحروب التي انتصرت فيها القوة، لم يعد لأكراد العراق شيئاً سوى متابعة الكفاح السرّي، وهذا ما فعلوه.. حيث أسَّسوا الحرب الديمقراطي الكردي بجناحه ذي الميول اليسارية، فقاموا بإعلان منشوري أزادي (AZADI) ورزجاري (RIZGARI) في عدده الثاني تشرين الأول ١٩٤٦ م جاء فيه ما يدعو بحماس شديد لتشكيل اتحاد كردي - أرمني، وفي تلك الأثناء تساءل الكولونيل الفنستون (ELPHINSTONE) رئيس دائرة الاستخبارات فيما إذا كانت تلك المحاولة ستؤدي إلى إنشاء دولة بالاتحاد السوفييتي على النمط الكردي - الأرمني.

على أي حال فقد ساد الهدوء، وانتهز الأكراد الفرصة بما تبقى لهم ليعملوا بحماس أكبر في حقل المعرفة والعلم، فظهرت المجلات الأدبية والمجموعات الشعرية ومواد عن تاريخ كردستان، ونشر كثيراً عن ماضي مشاهير الأكراد وقد أصبحت السليمانية المركز النشط للثقافة وبؤرة القومية.

سقوط العرش الهاشمي الذي أسهم الأكراد فيه بشكل كبير وإعلان الجمهورية العراقية ١٤ تموز ١٩٥٨م فتح عصراً جديداً من العلاقات العربية - الكردية، وقد أوردت المادة ٣ من الدستور المؤقت ما ينصُّ على أن العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن. وقد ضمن لهم الدستور حقوقهم الطبيعية كعنصر متكامل في الوجود الوطني، علاوة على ذلك فقد صدر قرار في ٢ أيلول

١٩٥٨م بالعفو عن الملاّ مصطفى وسمح له بالعودة إلى العراق، وقد عرف فيما بعد بأن قاسم كَيَّف أَو رَدَّ بحالة ضعف تلك المادة من الدستور، وفي أيلول ١٩٦١م ثار صدام مسلح عراقي استمر حتى سقوطه وكان تصرّف عبد الكريم أحد أسباب سقوطه، وبناء لكثير من الشهود والصحفيين الغربيين الذين كانوا في موقع الحدث، فقد ثبت بأن الأكراد لم يسبق أن اتحدوا مثل ما كانوا عليه من الاتحاد والشجاعة أثناءها والكفاح من أجل قضاياهم الوطنية، وخلف قاسم المارشال عبد السلام عارف(١)، ولكن لم يكن يبدو واضحاً تماماً تلك الفترة التي لم يكتب لها النجاح، إذ تجدد القتال في ١٠ حزيران ١٩٦٣م ما لبث أن أعقبه إقرار وقف لإطلاق النار حينئذٍ، وكان حسب رغبة عبد السلام عارف الشديدة المنتصر في ذلك الانقلاب العسكري الأخير. منذ ذلك الحين سكت الجانبان وسكتا.

إن الإحساس بالترابط الوثيق الذي يضمن حقيقة الانتماء والمواطنة الكردية يجب أن يؤدي إلى حل منصف وعادل لتلك المشكلة التي يمكن أن تستمر لوقت طويل، فتعكر التوازن والاستقرار في الشرق الأوسط..

(١) عبد السَّلام عارف: ١٩٢١ – ١٩٦٦ م، ولد في بغداد، من كبار ضباط الجيش العراقي، اشترك في ثورة ١٩٥٨ م، رئيس الجمهوريَّة العراقيَّة ١٩٦٣ – ١٩٦٦ م، قُتل في حادث طائرة، (النّاشر).

THE KURDS' HISTORY
Tārīkh al-Akrād

by: Tūmās Bwā

tr.: Muḥammad Taysīr Mīrkhān

هـذا كتـاب شـامل موجـز عـن الشـعب الكردي، يتصل بـالجوانب المهمـة في تاريخـه السياسي والفكري والاجتماعي والأدبي والفني، ويشير إلى القوميـة الكرديـة وتصادمهـا مـع القوميات الأخرى. كما يبحث في الأصول التي نمت الأكراد.

وهو يفصّل في كل جانب من هذه الجوانب بما يعطي صورة متكاملة عن شعب عاش مؤلف الكتاب البروفسور توماس بـوا بيـن ظهرانيـه فـي مختلف مناطق سكناه، وتعلم لغته، ودرس أدبـه، واختلط به، وكرّس لدراسته معظم حياته.

فهو لذلك وثيقة هامة، ومصـدر مـن مصـادر الباحثين في الموضوع.

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel:(412)441-5226
Fax:(775)417-0836
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/


ISBN 1-57547-928-1

SPOUR ALWANI 2001